© أوراق فلسطينية

تصدر عن مؤسسة ياسر عرفات

رئيس مجلس الادارة: د. ناصر القدوة

رئيـس التحـريـر: يحيى يخلف

مــديــر التـحـرير: غسان زقطان

مستشارا التحريـر: فيصل دراج، الياس خوري

يشارك في التحريـر: فيصل حوراني

عبد الفتاح القلقيلي

أحمد نجم

الهيئة الاستشارية: حلمي النمنم

كمال عبد اللطيف

محسن بوعزيزي

كريم مروة

ادارة: وليد قنة

التصميم الفني والإخراج: عاصم ناصر

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة ياسر عرفات

ISBN 978-9950-375-04-8

AWRAQ FELASTINIA

أوراق فلسطينية

فصليّة فكريّة عربيّة تصدر عن مؤسّسة ياسر عرفات

العدد «٢٤» صيف ٢٠٢٠

المراسلات:

العنوان: ص. ب: ٥٧٣

رام الله – فلسطين

هاتف: ٢٩٥٧٣٧٣ – ٩٧٠٢ + / ٢٩٥٧٣٧٢ – ٩٧٠٢ +

Email: awraq.falastinya@gmail.com

www.yaf.ps/awraqfelastinia

الاشتراكات السنوية:

٥٠ دولاراً للأفراد، ٨٠ دولاراً للمؤسسات (بما فيها نفقات البريد)

ترسل الاشتراكات شيكاً إلى العنوان البريدي أو حوالة بنكية على حساب المؤسسة:

البنك العربي

رام الله – فلسطين

فرع الماصيون

رقم الحساب: ٥١١ – ٤٨٠٢٥٢ - ٩٠٩٠

Ps 57 arab000000009090480252510

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

الافتتاحية

٧ **نداء من فلسطين لشعوب ودول العالم**

أوراق فلسطينية

١٥ **قراءة في رؤية الرئيس ترامب المعلنة في واشنطن.دي.سي يوم ٢٠٢٠/١/٢٨**
د.ناصر القدوة

٣٧ **فريدريك مايتون: كهربة فلسطين كيف صارت الكهرباء قوة استعمارية في فلسطين؟**
د. فيصل درّاج

٥٣ **بعد القرار الشجاع المفروض تبديل السياسة الفلسطينية**
فيصل حوراني

٦٣ **صفقة القرن ... بين الحق التاريخي والحق المتاح**
شذى يحيى

٨١ **الصهيونية، والصهيونية الجديدة، وما بعد الصهيونية**
عبد الغني سلامة

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

أوراق مقدسية

٩٧ أوقاف القدس: تحمي المدينة وتدافع عن عروبتها
عزيز العصا

١١١ القدس في صفقة القرن: تحليل وبدائل
د. وليد سالم

أوراق ثقافية

١٢٣ فاروق وادي: بيتيّ الأول هو بيت عرفات الأخير
حاورته بديعة زيدان

١٤٩ نباحٌ بعيدٌ على مارّة غرباء
قصي اللبدي

١٦٥ قصتان
راوية بربارة

١٧١ مقدمة لحكاية السينما في فلسطين قبل النكبة
يوسف الشايب

أوراق المؤسسة

١٩٠ الاعلان عن فتح باب الترشيح لـ جائزة ياسر عرفات للإنجاز للعام ٢٠٢٠

تتوجه لكم مجلة أوراق فلسطينية بالتحية والتقدير، وتنشر هذا النداء الموجه الموقع من مجموعة كبيرة من الشخصيات الفلسطينية غير الرسمية الذين يمثلون مختلف القطاعات، حيث تم تسليمه باللغتين الإنجليزية والفرنسية لممثلي السفارات ومكاتب التمثيل والقناصل، وممثلي المنظمات الدولية العاملة في مناطق السلطة الفلسطينية، لحث كل تلك الجهات على التحرك ضد القرار الإسرائيلي بضم القدس الشرقية ومناطق الأغوار والبحر الميت والمستوطنات بدعم من إدارة ترامب الذي يمثل انتهاكات جسيمة للقانون الدولي.

٢٠٢٠/٦/١٤

نداء من فلسطين لشعوب ودول العالم

لسنوات طويلة تبقى إسرائيل دولة احتلال، تحتل أراضي دولة أخرى وتسيطر على شعب آخر. دولة كولونيالية تفرض الاستعمار الاستيطاني، بما في ذلك مصادرة الأراضي، ونقل السكان الإسرائيليين للأراضي المحتلة، وإقامة نظام حياة منفصل لهؤلاء. وهي دولة ترتكب انتهاكات جسيمة للقانون الدولي، بما في ذلك القانون الدولي الإنساني والقانون الدولي لحقوق الإنسان. دولة تنكر حق تقرير المصير والاستقلال الوطني للشعب الفلسطيني وتنكر حقوق لاجئيه، بما في ذلك حقهم في العودة والملكية والتعويض. دولة تجاهلت الإرادة الدولية ورفضت وانتهكت كل قرارات ومعاهدات الأمم المتحدة ذات الصلة.

وقد ساءت الأمور مؤخراً أكثر بكثير وشهدنا مزيداً من انزياح إسرائيل نحو

التطرف والأصولية وحتى الفاشية، وشهدنا استكمال التراجع عن الاتفاقيات المعقودة، ومحاولات لأخذ الاستعمار الاستيطاني لمستوى جديد، وأصبح المسؤولون الإسرائيليون يجاهرون بمواقف ترفض الوجود والحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني وتؤكد الرغبة في الاستيلاء على الأرض الفلسطينية كلها.

تم مؤخراً أيضاً طرح ما يسمى « رؤية ترامب للسلام والازدهار» والتي هي في الحقيقة ليست خطة سلام، وإنما تبنٍ للأفكار العقائدية المجنونة التي تدفع باتجاه إسرائيل الكبرى وتنكر الوجود الوطني الفلسطيني، وتحاول إيجاد حلول «للسكان الفلسطينيين» في كيان مبعثر يستطيعون تسميته دولة إذا قاموا بتحقيق العديد من الشروط التعجيزية. وتقر الرؤية بإمكانية قيام إسرائيل بضم مساحات واسعة من الضفة الغربية بما في ذلك مساحات تواجد المستعمرات غير القانونية وغور الأردن وشمال البحر الميت، بالإضافة إلى المساحات غرب الجدار الذي أكدت محكمة العدل الدولية لا قانونيته وضرورة إزالته وجبر الأضرار الناتجة عنه.

لقد كرر رئيس الوزراء الإسرائيلي الآن وفي العديد من المرات نيته إعلان ضم هذه المساحات المشار لها أعلاه، وهو ما ورد في اتفاقية الشراكة للحكومة الإسرائيلية الحالية، أي أن ذلك جزء من السياسة الرسمية للحكومة والتي تأتي إضافة لضم القدس الشرقية المحتلة، وهو ما يجمع العالم على رفضه واعتباره لاغياً وباطلاً. مثل هذه السياسات والإجراءات تمثل انتهاكاً جسيماً لمبادئ القانون الدولي، وأحكامه ذات الصلة، بل تدمر القانون الدولي وقواعد المسلك للدول التي قام عليها النظام الدولي ككل، وهي تدمر إمكانية التسوية التفاوضية بين الجانبين، وبالتالي تقود حتماً إلى مواجهة طويلة سينتج عنها نتائج كارثية.

إن واجب المجتمع الدولي بدوله وشعوبه ومنظمات مجتمعاته المدنية هو مواجهة كل ذلك ومنع حدوثه واتخاذ مواقف وإجراءات عقابية رادعة في حال حدوثه. التردد في المواجهة الجدية لكل ذلك هو أمر معيب سيكون له تبعاته على المنطقة

وعلى النظام الدولي وسيكون التقاعس خيانة للقيم والمبادئ وتراجعاً عن الحل التفاوضي وإقامة السلام في المنطقة على قاعدة التقسيم إلى دولتين.

بناءً على ما سبق فإننا، قيادات فلسطينية من كافة مناحي الحياة، بما في ذلك أكاديميون ومسئولون سابقون ومنظمات مجتمع مدني، نوجه نداءً للمجتمع الدولي، باتخاذ المواقف والإجراءات اللازمة لوقف ما يجري ولمواجهته من أجل المحافظة على هدف إقامة السلام وعلى مستقبل شعوب المنطقة بما في ذلك الشعبان الفلسطيني والإسرائيلي كل منهما في دولته المستقلة، وتحديداً للقيام بما يلي:

١. تأكيد الموقف، وبأشكال مختلفة، ضد أي ضم من قبل إسرائيل للأرض الفلسطينية، باعتباره انتهاكاً جسيماً لمبادئ القانون الدولي وميثاق الأمم المتحدة، بالإضافة لما يشكله من انتهاك خطير لقرارات مجلس الأمن ذات الصلة.

٢. ضرورة التزام جميع الدول بقرارات مجلس الأمن ذات الصلة بما في ذلك القرار ٢٣٣٤ (٢٠١٦) وتحديداً بعدم الاعتراف بأي تغيير على حدود ١٩٦٧، وضرورة التزام جميع الدول التي لها علاقات أو اتفاقات تعاون مع إسرائيل بمبدأ التمييز بين أراضي إسرائيل والأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس الشرقية، ورفض أي محاولة من قبل إسرائيل لتجاوز هذا المبدأ.

٣. ضرورة قيام دول العالم باتخاذ إجراءات محددة ضد المستعمرات والمستعمرين ومنتجات المستعمرات، بما في ذلك منع الأخيرة من دخول أسواقها، تنفيذاً للالتزامات القانونية التعاقدية للدول (الأطراف الثالثة) وفقاً لاتفاقيات جينيف للعام ١٩٤٩.

٤. ضرورة قيام القوى السياسية ومنظمات المجتمع المدني بالتصدي لمحاولة عدد قليل من الحكومات تجريم ما سبق، باعتبار ذلك التجريم انتهاكاً للقانون الدولي، أو تجريم مقاطعة إسرائيل لاعتبارات سياسية و أخلاقية، باعتبار أن ذلك التجريم

يخل بقيم الديمقراطية والحقوق الأساسية للمواطن في تلك الدول.

٥. ضرورة قيام دول العالم التي لها علاقات أو اتفاقيات تعاون مع إسرائيل باتخاذ إجراءات عقابية ضدها على قاعدة هذه الاتفاقيات، في حال قيام إسرائيل بتنفيذ أية خطوة للضم.

٦. ضرورة قيام دول العالم والتي لم تعترف بدولة فلسطين، بالاعتراف بدولة فلسطين على حدود١٩٦٧عاصمتها القدس الشرقية، وذلك التزاماً بمبدأ التقسيم لدولتين وإقراراً بوجود دولتين وحفاظاً على حل الدولتين السياسي، باعتبار تلك الخطوة هي التي تضمن ما سبق.

٧. تأييد الخطوات التي تقوم بها دولة فلسطين ودول أخرى أمام المحكمة الجنائية الدولية والمحاكم الوطنية في دول العالم التي تسمح بذلك، ضد المسؤولين الإسرائيليين عن جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية بما في ذلك الضم.

٨. دعم التحرك الفلسطيني والعربي والدولي في مجلس الأمن والجمعية العمومية والهيئات الدولية الأخرى المضاد لأي خطوة ضم إسرائيلية في حال اتخاذها. وإدانة الخطوة واعتبارها غير شرعية وباطلة ولا قيمة قانونية لها ومطالبة جميع دول العالم بعدم قبولها أو الاعتراف بها وكذلك اعتبار إسرائيل دولة خارجة عن القانون.

٩. يتم تأكيد الموقف ضد ما يسمى رؤية ترامب، ورفض مواقف اليمين الإسرائيلي المتطرف والمستعمرين و غلاة المسيحيين الصهاينة. والتي تهدف لتحقيق إسرائيل الكبرى وإنكار الحقوق الوطنية وحتى الوجود الوطني للشعب الفلسطيني.

١٠. تقديم الدعم للشعب الفلسطيني والسلطة الفلسطينية ومساعدتهم على الاستمرار في مواجهة الضم ورؤية ترامب ومن أجل تحقيق أهدافه الوطنية في الحرية والاستقلال.

نحن الموقعين أدناه، وبينما ندرك جيداً المسؤوليات الكبيرة الملقاة على عاتقنا وعلى

عاتق الشعب الفلسطيني لتعزيز قدراتنا وفي مقدمتها وحدة الشعب ومؤسساته في مواجهة ما سبق، فإننا نوجه هذا النداء لمكونات المجتمع الدولي كافة لتحمل مسؤولياتهم واتخاذ المواقف والإجراءات اللازمة في هذا المنعطف التاريخي.

أوراق فلسطينية

قراءة في رؤية الرئيس ترامب المعلنة في واشنطن.دي.سي يوم ٢٠٢٠/١/٢٨ والمعنونة بـ :

سلام نحو الازدهار
رؤية لتحسين حياة الشعبين الفلسطيني والإسرائيلي

PEACE TO PROSPERITY
A Vision to Improve the Lives of the Palestinian and the Israeli people

د.ناصر القدوة*

في الثامن والعشرين من كانون الثاني/يناير ٢٠٢٠، وفي حفل في البيت الأبيض بالعاصمة الأميركية واشنطن دي.سي، كشف الرئيس الأميركي)دونالد ترامب) والى جانبه رئيس وزراء إسرائيل) بنيامين نتنياهو(عن ما اعتاد لفترة طويلة سابقا على تسميته (صفقة القرن)، ولكن تم طرحها تحت عنوان:

سلام نحو الازدهار رؤية لتحسين حياة الشعبين الفلسطيني والإسرائيلي.

ولا بدّ من القول هنا أنّ الترجمة قد لا تكون دقيقة، فمثلا في العنوان): النّص الإنجليزي

* رئيس مجلس ادارة مؤسسة ياسر عرفات

يستخدم صيغة المفرد people مع أن الحديث يفترض أنّه يتعلق بالشعبين الفلسطيني والإسرائيلي.

و تشتمل رؤية ترامب على جزأين وملاحق، الجزء الأول :إطار سياسي يتكون من ٣٩ صفحة تضم ٢٢ قسما .والثاني: إطار اقتصادي من ٣٨ صفحة .ثم خرائط مفاهيمية وملاحق أخرى طويلة.

وفيما يلي قراءة أولية لهذه الرؤية:

نلاحظ أنّ التسمية لم تعد صفقة، أصبحت الآن رؤية. وهي لا تقدم مشروع حل نهائي بخطوات واضحة ضمن جداول زمنية مفهومة، بغض النظر عن فهمنا لجوهرها المنحرف.

كنت قد أشرت في ندوة عقدت في متحف ياسر عرفات في ٢٠١٩/٥/٧، الى ما يتأكد لنا الآن: لا توجد صفقة، لا توجد خطة سلام، لا يوجد مقترح لحل النزاع، إنما هناك سياسة أميركية شرق أوسطية تجلت في مجموعة من المواقف والإجراءات، رأينا معظمها منفذا على أرض الواقع مثل رفض تأييد حل الدولتين، محاولة شرعنة المستعمرات، الاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل ونقل السفارة الأميركية إليها، محاربة الأونروا، إنهاء التمثيل الفلسطيني في الولايات المتحدة وقطع المساعدات.

حينها قلنا أننا لا نحتاج لرؤية الصفقة وأنها ستكون منسجمة مع السياسات. كنا مصيبين جزئياً فقط، لأن ما رأيناه جاء منسجماً نعم ولكنه أسوأ، كما سنرى. سأقدم فيما يلي قراءة، ليست بهدف النقاش أو التفاوض فهذا غير ممكن، وانما بهدف معرفة التفاصيل وشرحها لأهلنا وأصدقائنا واظهار مدى بشاعة النصوص :

أولا): لابد من ملاحظة أن مصطلح "دولة فلسطين"...عبر كل الرؤية، يشير إلى دولة في المستقبل، ليست موجودة حالياً ولن يتم الاعتراف بها من طرف الولايات المتحدة إلا وفقط إلا إذا تم تنفيذ الشروط والمواصفات والمعايير الموجودة في هذه الرؤية.

الجزء الأول: الإطار السياسي

القسم الأول بعنوان: مقدمة وتشمل خمسة مواضيع: الموضوع الأول خلفية: تشير الرؤية إلى أنّ :

للفلسطينيين طموحات لم يتم تحقيقها، بما في ذلك تقرير المصير، تحسين مستوى المعيشة...“ وتتحدث عن أنّ ”المشكلة معقدة لأن هناك تشابكا بين صراعين منفصلين): نزاع على الأرض، والأمن واللاجئين بين إسرائيل والفلسطينيين، ونزاع ديني بين إسرائيل والعالم الإسلامي حول السيطرة على الأماكن ذات الأهمية الدينية. ونلاحظ أنّ هذا الطرح يعتبر أنّه ليس هناك قضية وحقوق وظلم تاريخي.

وفي الخلفية أيضا: نحن نعتقد أنه إذا قام مزيد من الدول العربية والإسلامية بتطبيع علاقاتهم مع إسرائيل فسوف يساعد هذا في تحقيق حل عادل ومعقول للصراع بين الفلسطينيين وإسرائيل.

الموضوع الثاني: أوسلو. في هذا الموضوع تقدم الرؤية مفهوما غريبا، ويتم إيراد اقتباس لرئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق)إسحق رابين) خارج السياق. ولا يوجد أي ذكر لماذا قتل وكيف؟.

الموضوع الثالث: حل دولتين واقعي.

وفقا للرؤية: هذا الحل الواقع ” يُمكن الفلسطينيين من حكم أنفسهم ولكن لا يُمكنهم من تهديد إسرائيل.“ وتشترط الرؤية على القيادة الفلسطينية أن تعترف بيهودية الدولة، وأن ترفض الإرهاب بجميع أشكاله، وأن تقبل ترتيبات خاصة لتلبية الاحتياجات الأمنية لإسرائيل وللمنطقة، وأن تقوم ببناء مؤسسات واختيار حلول براغماتية. عندها ستدعم الولايات المتحدة قيام الدولة الفلسطينية. وهنا لا توضح الرؤية متى وكيف يتم ذلك؟

الموضوع الرابع يتحدث عن ”فرص للتعاون الإقليمي“ والخامس يتناول ”رؤية اقتصادية لمستقبل زاهر“

القسم الثاني: المقاربة

ويشمل المواضيع التّالية:

أولا :مراجعة لجهود الأمم المتحدة وقراراتها. وهذه المراجعة تحتوي هجوما عاما على القرارات والجهود، واستنتاجا بأن: هذه القرارات لم تحل ولن تحل النزاع.

وهذا صحيح، ولكن السبب هو رفض إسرائيل وحماية الولايات المتحدة الأميركية لها. وهذه الصيغة الجديدة في الرؤية "لم ولن" تمثل عملياً رفضا للقانون الدولي ولقواعد العمل الدولي.

ثانيا :الحقائق الحالية: تتطرق الرؤية إلى ما أسمته الحقائق الحالية. وأرى أن هذا هو الموضوع الجوهري الذي يريده أصحاب الرؤية: الإقرار بالواقع القائم وإجراءات إسرائيل غير القانونية ومحاولة شرعنتها كبديل عن الشرعية الدولية والقانون الدولي.

ثالثا: الطموحات المشروعة للأطراف :

تبدأ الرؤية بالقول: الفلسطينيون لم يكن لديهم قط دولة. وهنا أقول أنّ هذه هي المظلمة التاريخية، وكأن إسرائيل كانت من القدم، أين قرار التقسيم ١٨١؟

ثم تتحدث الرؤية عن أنّ الفلسطينيين لديهم طموح ليحكموا أنفسهم ويقرروا مستقبلهم" و"إسرائيل لديها الطموح لكي تكون الوطن القومي لليهود.

رابعاً: الأهمية المطلقة للأمن: سيتم تناول هذا لاحقا.

خامسا: الأرض، حق تقرير المصير والسيادة:

تعتبر الرؤية أنّ: الانسحاب من أراضٍ تم السيطرة عليها في حروب دفاعية أمر نادر في التاريخ. يجب الإقرار أن إسرائيل انسحبت من ٨٨٪ من الأرض التي احتلتها وسيطرت عليها عام ١٩٦٧- الرؤية تتضمن نقل أراضي لإسرائيل بمساحة هامة من دولة إسرائيل. أراضٍ

لإسرائيل مطالب قانونية وتاريخية مشروعة تجاهها والتي هي جزء من وطن الآباء للشعب اليهودي.

يعني ذلك أنّه لا توجد أرض فلسطينية. ولا تقسيم ولا قرار ١٨١ الذي قسم فلسطين إلى دولتين وقدس دولية.

وتواصل الرؤية: السلام لا يتطلب اقتلاع أي أحد عرب أو يهود من بيوتهم" وأنّ "تقرير المصير هو للأمم.

ستحاول الرؤية تنفيذ تقرير المصير بحد أقصى بينما تأخذ العوامل ذات الصلة بعين الاعتبار.

وهذا يفترض انه لا يوجد شعب فلسطيني له حق تقرير المصير أي انهم يسقطون حق تقرير المصير، ولا توجد أرض فلسطينية، أو أرض لدولة فلسطين.

سادسا: اللاجئون

ما تقدمه الرؤية هنا هو أنّ: النزاع العربي - الإسرائيلي خلق مشكلة لاجئين فلسطينية ويهودية. مطلوب حل عادل ونزيه وواقعي للاجئين الفلسطينيين وحل عادل للاجئين اليهود عبر آلية دولية مناسبة.

سابعا: القدس

تعتبر الرؤية أنّ: دولة إسرائيل كانت راعياً جيداً للأماكن المقدسة. ليس كما غيرها.

طبعا هذا كلام فارغ في ضوء الانتهاكات والاعتداءات اليومية على المساجد والكنائس وإحراق المسجد الأقصى والحفريات ....الخ.

ثامنا: مشكلة غزة

إذا توصل الجانبان لاتفاق سلام، فإن دولة إسرائيل يتوقع منها أن تنفذ التزامها فقط إذا

حققت السلطة سيطرة كاملة على غزة ونزعت سلاح المنظمات الإرهابية وحققت نزع سلاح شامل في القطاع.

تاسعا: المساعدة الدولية

وفقا للرؤية: الدول التي تبرعت تريد أن تتناقص مساعداتها تدريجيا...

القسم الثالث: رؤية للسلام بين دولة إسرائيل والفلسطينيين والمنطقة

الرؤية تطرح: أمل الولايات المتحدة أن تبدأ الدول العربية فورا تطبيع علاقاتها مع إسرائيل.

القسم الرابع: الحدود

تدعو الرؤية إلى إعادة رسم الحدود بروح قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٢٤٢ بطريقة تحقق .. وهنا تورد الرؤية تسعة بنود تتعلق بشروط لإعادة رسم الحدود أولها تلبية الاحتياجات الأمنية لإسرائيل. ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ الرؤية لا تحدد أي حدود كنقطة انطلاق.

وتقول الرؤية:

الأراضي التي ستعطى لدولة فلسطين ستكون في المساحة مساوية (مقاربة) لمساحة الضفة الغربية.

نتساءل كيف؟ ربما بإضافة مساحة منطقة المثلث.

لا تحتاج دولة إسرائيل لاقتلاع أية مستعمرة وستستوعب معظم المستعمرات في الأرض الإسرائيلية المتواصلة.

٩٧٪ من الإسرائيليين (المستعمرين) سيكونون جزءا من الأرض الإسرائيلية.

٩٧٪ من الفلسطينيين في الضفة الغربية سيكونون جزءاً من الأرض الفلسطينية المتصلة.

هناك حديث عن جيوب على الجانبين.

- وادي الأردن سيكون تحت السيادة الإسرائيلية.
- سيكون هناك سيادة لدولة إسرائيل على المياه الإقليمية.
- الأراضي المتبادلة من قبل دولة إسرائيل ستكون مأهولة وغير مأهولة.
- إمكانية ضم المثلث لأراضي الدولة الفلسطينية. وهذا يعني التخلص من ٢٠٠ ألف عربي إسرائيلي، هذا تطهير عرقي.

تتحدث الرؤية عن طرق وجسور ...الخ.

- سيتم تغيير مسار الجدار ليتوافق مع الحدود الجديدة.
- حق الوصول للأماكن المقدسة في الدولتين.
- صندوق دولي لتنمية الأراضي المتبادلة

القسم الخامس: القدس

تقدم الرؤية هنا كلاما معقولا عن حساسية هذا الموضوع، لكن لا يؤخذ هذا بعين الاعتبار في كلّ الرؤية.

مثلا: القدس، عبر التاريخ، كانت مثار الحروب والفتوح. ثم تخلص إلى أن: مقاربة هذه الرؤية هي الإبقاء على القدس موحدة وجعلها يمكن الوصول لها للجميع...

الجوانب الدينية لمسألة القدس:

- تدعي الرؤية الفهم الثيولوجي (اللاهوتي) للأديان الثلاثة،(هذا غير أمين - على الأقل بالنسبة للإسلام .مثلا تقول الرؤية: محمد وصل إلى جبل الهيكل/الحرم الشريف حيث صعد إلى السماء.

هذا غير صحيح وتحريف عن النصّ القرآني.

الأماكن المقدسة في القدس :

- تعتبر الرؤية أنّه: على غير القوى السابقة التي دمرت الأماكن المقدسة حافظت عليها دولة إسرائيل. هنا لا بد من القول أنّ هذا كذب واضح، لم يتم أي تدمير في العهد الأردني ولا في كل العهود التاريخية التي تلت الفتح الإسلامي للمدينة قبل أكثر من أربعة عشر قرنا.

- لا بد من استمرار الوضع القائم Status Quo

- الناس من جميع الأديان يجب أن يسمح لهم بالصلاة في جبل الهيكل /الحرم الشريف بطريقة تحترم ديانتهم ومع الأخذ بعين الاعتبار أوقات الصلوات والأعياد.

نلاحظ هنا أنّ هذا يعني عمليا تغيير الوضع القائم وعمل تقسيم مكاني وزماني للمسجد الأقصى.

المكانة السياسية للقدس:

في الرؤية استعراض لتطورات الموقف الأميركي /الكونغرس و الرئيس ترامب - هنا لا بد من القول أنّ آلية قانون الكونغرس تسمح للرؤساء بعدم تنفيذ القانون الخاص بالقدس / فقط ترامب فعل ذلك.

- يجب ابقاء الجدار مكانه ويجب أن)يخدم) كحدود بين عاصمتي الجهتين.

- ستبقى القدس العاصمة ذات السيادة لدولة إسرائيل.

- العاصمة ذات السيادة لدولة فلسطين ستكون خارج الجدار واسمها ALQUDS

- لمستقبل المقدسيين الفلسطينيين أمامهم ثلاثة خيارات: أن يصبحوا مواطنين في دولة إسرائيل، أو أن يصبحوا مواطنين في دولة فلسطين، أو الحفاظ على المكانة الحالية كمقيمين دائمين في إسرائيل.

وعند التفكير في هذه الخيارات نجد أنها خيارات كاذبة تهدف إلى التخلص من أكثر من ١٤٠ ألف فلسطيني. فلم يأخذ الجنسية الإسرائيلية عبر السنين سوى ٦٪ من المقدسيين، وغالبية هذه الحالات مرتبطة بقرى قسمتها خطوط الهدنة أو بسبب إجراءات إسرائيلية.

- ستقام منطقة سياحية في عطاروت مع طرق للوصول إلى الأماكن المقدسة .

- تتحدث الرؤية عن بعض الأمور المتعلقة بالسياحة في البلدة القديمة القدس/ (معظمها) وانشاء هيئة مشتركة بين العاصمتين Jerusalem-Alquds لتطوير السياحة .

الاعتراف بالعاصمتين:

تتحدث الرؤية عن اعتراف دولي بالقدس Jerusalem عاصمة لدولة إسرائيل و Alquds عاصمة لدولة فلسطين.

القسم السادس: خطة ترامب الاقتصادية

سوف تمكن الشعب الفلسطيني من بناء مجتمع فلسطيني نابض بالحياة ومزدهر. تتكون من ثلاث مبادرات: الاقتصاد، الشعب، الحكومة.

نتساءل هنا كيف يمكن أن يحدث هذا في ظل هذه الرؤية؟

إضافة الى متطلبات التزام دولة فلسطين بكل متطلبات الاتفاق الإسرائيلي- الفلسطيني، فإن السلام نحو الازدهار سيكون مشروطاً على: إقامة دولة فلسطين لنظام مالي... إقامة حكومة ملائمة .... إقامة نظام قانوني...

القسم السابع: الأمن

هدف هذه الرؤية هو تمكين الأطراف من معالجة التحديات الأمنية وتمكين دولة فلسطين من تحمل أكبر قدر من مسؤولياتها الأمنية بأسرع ما يمكن في كل دولة فلسطين.

كل دولة تنفق كمية كبيرة من المال على الدفاع ضد التهديدات الخارجية. دولة فلسطين لن تتحمل هذا العبء، لأن دولة إسرائيل سوف تتحمل ذلك. فائدة ذلك ستعود على الاقتصاد الفلسطيني.

عند توقيع الاتفاق الإسرائيلي - الفلسطيني، سوف تحتفظ دولة إسرائيل بالمسؤولية العليا للأمن لدولة فلسطين، مع الطموح أن الفلسطينيين سيكونون المسؤولين عن قدر من الأمن حسب الممكن وفقاً لأحكام هذه الرؤية. ستعمل دولة إسرائيل بجدية لتقليص وجودها الأمني في دولة فلسطين، ستساعد الأردن وهناك معايير أمنية.

سوف تعمل دولة إسرائيل على زيادة القدرة ل(القوات الأمنية للسلطة الفلسطينية)PASF لبناء قدرتها في منع الإرهاب. تحقيق هذا الهدف بطريقة تعزز أمن البلدين يقتضي:

دولة فلسطين سوف تكون منزوعة السلاح تماماً.

سيكون لدى فلسطين قوات أمن مسؤولة عن: الأمن الداخلي، ومنع الهجمات الإرهابية، النظام العام، تنفيذ القانون، أمن الحدود، حماية المسؤولين والضيوف، الكوارث الطبيعية...

- تتحدث الرؤية عن منطقة تجربة pilot project وعن لجنة المراجعة ولجنة للأمن الإقليمي.

- دولة إسرائيل سوف تحتفظ على الأقل بمحطة واحدة للإنذار المبكر في دولة فلسطين-، تديرها قوات الجيش الإسرائيلي وستكون حرية الوصول والحركة من والى محطة الإنذار المبكر مضمونة للقوات الإسرائيلية.

- ستحاول دولة إسرائيل الاعتماد على التكنولوجيا لتخفف من وجودها وتأثيرها المباشر.

القسم الثامن: المعابر (عبور الحدود)

- ستعمل دولة إسرائيل عن كثب مع الأردن ومصر ودولة فلسطين لتحسين نظام عبور الحدود.

- كلّ الأشخاص والبضائع الداخلة لدولة فلسطين عبر المعابر المعتمدة ستخضع للمراقبة من قبل دولة إسرائيل. السلع مزدوجة الاستخدام يجب أن يتم ضمان عدم استخدامها لصناعة السلاح.

القسم التاسع: مواصفات (معايير) غزة

ستنفذ دولة إسرائيل التزاماتها وفق الاتفاق الإسرائيلي- الفلسطيني فقط، إذا :السلطة أو جسم آخر مقبول لإسرائيل مسيطر على الوضع في القطاع.

- نزع سلاح حماس والجهاد وكل الميليشيات والمجموعات الإرهابية الأخرى.
- غزة منطقة منزوعة السلاح كليا.
- يجب إعادة الأسرى الإسرائيليين والجثامين)الرفات) عند توقيع الاتفاق.

نلاحظ هنا أن المطلوب من الجانب الفلسطيني يتم فورا عند التوقيع أما الجانب الآخر فله كل الوقت الذي يريده لتقرير ما إذا كان سينفذ أي التزامات مترتبة عليه وفق معاييره، وهي بالمناسبة كلها صياغات فضفاضة غير محددة وغير مؤكدة مرتبطة باشتراطات دائمة.

تضع الرؤية شروطاً لقبول مشاركة حماس في حكومة فلسطينية، وهي معروفة تشمل :" الالتزام بالمسار السلمي مع دولة إسرائيل بتبني مبادئ الرباعية الدولية.

بعد تطبيق هذه المواصفات (المعايير) سيتم تنفيذ الرؤية الاقتصادية في غزة عبر مراحل.

القسم العاشر: منطقة التجارة الحرة

تتحدث الرؤية فقط عن منطقة تجارة حرة بين دولة فلسطين والمملكة الأردنية الهاشمية...

القسم الحادي عشر: اتفاق تجاري مع الولايات المتحدة

استمرار الإعفاءات الحالية والتفاوض مع دولة فلسطين على اتفاق تجاري.

القسم الثاني عشر: الميناء والتسهيلات

بالرغم من أن دولة فلسطين سوف تشمل غزة، التحديات الأمنية تجعل بناء ميناء في غزة أمرا إشكاليا في المدى الزمني المنظور.

دولة إسرائيل ستمنح تسهيلات بحرية في مينائي حيفا وأسدود - السيادة الإسرائيلية، مع تسهيلات ..طرق وسرعة...إلخ.

تتحدث الرؤية عن ميناء العقبة في الأردن بنفس الطريقة.

احتمالات ميناء غزة ومطار بغزة

تتحدث الرؤية عن انّه: بعد خمس سنوات من توقيع الاتفاق، وبافتراض الرضى الكامل عن مواصفات غزة... يمكن إقامة جزيرة اصطناعية مقابل ساحل غزة لتطوير)ميناء غزة).. كذلك مطار للطائرات الصغيرة.

القسم الثالث عشر: المنطقة السياحية عند البحر الميت

ستسمح دولة إسرائيل لدولة فلسطين بتطوير منطقة سياحية شمال البحر الميت دون الإجحاف بسيادة إسرائيل.

تدعي الرؤية أنّ: هذا لن يغير ترتيبات توزيع الثروات الطبيعية للبحر الميت بين الأردن وإسرائيل.

وهنا لا بد لنا من التذكير انّه كان ثلاثياً.

القسم الرابع عشر :المياه والمياه العادمة

الأطراف تعترف بالحقوق المائية المتبادلة وتوافق على التشارك في المصادر العابرة للحدود.

توفير مصادر جديدة.

لا بدّ من القول هنا أن المياه الفلسطينية اختفت أو(راحت).

- توافق الأطراف على تركيز الاستثمار على مشاريع معالجة المياه العادمة.

القسم الخامس عشر: الأسرى

الاتفاق الإسرائيلي- الفلسطيني سوف يوفر إطلاق سراح الأسرى الفلسطينيين والمعتقلين الإداريين في السجون الإسرائيلية باستثناء:

أولئك المدانون بالقتل أو الشروع في القتل. أولئك المدانون بالتآمر لارتكاب قتل المواطنين الإسرائيليين.

- كل الذين يطلق سراحهم سوف يصبحوا مواطنين في دولة فلسطين. لتجنب الشك."

- المرحلة الأولى مباشرة بعد الاتفاق سوف تشمل القصّر والنساء والذين هم أكثر من ٥٠ عاماً والذين قضوا أكثر من ثلثي محكوميتهم.

- الأطراف سوف تتفق على موعد المرحلة الثانية للذين قضوا أكثر من نصف محكوميتهم.

- أي إطلاق سراح إضافي سوف يكون على أساس الموافقة الإسرائيلية.

- كل أسير سوف يوقع تعهداً..

- لن يتم إطلاق سراح أي أحد وفقاً لهذا الجزء إذا لم يتم إعادة كل المحجوزين والجثامين الإسرائيلية لدولة إسرائيل.

معنى ذلك كلّه أنه لن يتم إطلاق سراح لأي أسير، والأسرى من القدس ومن حملة الجنسية الإسرائيلية سيبعدون عن بيوتهم وقراهم ومدنهم. ومنهم عضو اللحنة المركزية لحركة فتح الأسير كريم يونس.

الجزء السادس عشر: اللاجئون

- الصراع العربي- الإسرائيلي خلق مشكلة لاجئين فلسطينيين ولاجئين يهود.

- الاقتراحات التي تطالب دولة إسرائيل بقبول اللاجئين الفلسطينيين أو التي تعد بعشرات مليارات الدولارات تعويضات للاجئين لم تكن أبدا واقعية أو ذات مصداقية.

- الولايات المتحدة ساهمت ب ٦,١٥ مليار دولار للأونروا منذ عام ١٩٥٠ وحتى عام ٢٠١٧.

- لا بد من إيجاد حل عادل، منصف وواقعي للاجئين الفلسطينيين حتى نحل النزاع الفلسطيني- الإسرائيلي.

- موضوع اللاجئين اليهود، بما في ذلك التعويض عن الأملاك المفقودة يجب أن يتم تناوله. بالإضافة إلى أن دولة إسرائيل تستحق التعويض عن تكلفة استيعاب اللاجئين اليهود من باقي الدول. حل عادل ومنصف وواقعي للأمور المتعلقة باللاجئين اليهود ويجب أن ينفذ عبر آلية دولية مناسبة بشكل منفصل عن الاتفاق الإسرائيلي- الفلسطيني.

يعني هذا مطالبة مصر واليمن والعراق وغيرها من الدول العربية بدفع التعويضات لليهود الذين تركوها والتكاليف لإسرائيل مقابل استيعابهم !!!

الرؤية تطرح أنه يجب حل مسألة اللاجئين وفقا للخطوط التالية:

إطار عام

الاتفاق الفلسطيني- الإسرائيلي يجب أن يوفر نهاية كاملة لكل المتطلبات المتعلقة باللاجئين أو وضع المهاجرين. لن يكون هناك حق عودة، أو استيعاب لأي لاجئ فلسطيني في دولة إسرائيل.

- مقاربة الأونروا وتعريفها المتعدد الأجيال للاجئين فاقم مشكلة اللاجئين.

- تحت كل الظروف، الأشخاص الذين استقروا في أماكن دائمة لن يكونوا مؤهلين للاستقرار في مكان جديد ويمكن لهم الحصول على تعويضات كما هو وارد أدناه.

-الرؤية تحدد ثلاثة خيارات لأولئك الذين يريدون مكانا دائما للإقامة: الاستيعاب في دولة فلسطين (وفقاً للمحددات الواردة)، الاستيعاب المحلي في البلد المضيف، وقبول خمسة آلاف لاجئ كل عام لعشرة سنوات في الدول الإسلامية.

التعويضات

الخطة الاقتصادية ستنعكس إيجابياً على اللاجئين الموجودين في دولة فلسطين أو الذين سيحضرون اليها.

مع ذلك سنحاول الحصول على تمويل لتعويض اللاجئين يوضع في palst.ref.trust وسيتم ادارته من قبل مديرين Trustees٢.

حق اللاجئين الفلسطينيين للهجرة إلى دولة فلسطين سيكون محدداً وفقاً لاتفاقات أمنية يتفق عليها.

سيتم تشكيل لجنة للنظر في دخول اللاجئين من دول عانت الحروب مثل سوريا.

إضافة إلى ذلك سرعة دخول اللاجئين من خارج الضفة الغربية وغزة سوف يتم الاتفاق عليها بين الأطراف.

عند توقيع الاتفاق الفلسطيني- الإسرائيلي المركز القانوني للاجئي فلسطين سوف ينتهي وسوف يتم إنهاء الأونروا.

إزالة المخيمات واقامة مساكن دائمة.

القسم السابع عشر: أساس الدولة الفلسطينية

- الانتقال إلى الدولة أمر معقد ومليء بالصعوبات. نتساءل هنا لماذا فقط في حالة الدولة الفلسطينية؟

- المواصفات (المعايير) التالية لا بد منها لإقامة دولة فلسطينية:

* نظام حوكمة، أحكام حقوق الإنسان، حماية حرية الأديان.

* الأنظمة البنكية.

* إنهاء كل برامج التحريض بما في ذلك في المدارس.

* تحقق السيطرة الكاملة على كل الأرض الفلسطينية ونزع السلاح فيها كلها.

المقصود هنا غزة.

* الانصياع لكل الشروط الأخرى.

- عندما يتم تحقيق كل هذه الإجراءات الولايات المتحدة ستشجع الدول الأخرى للترحيب بدولة فلسطين. دولة فلسطين لن تتمكن الدولة من الالتحاق بأي منظمة دولية إذا كانت تلك العضوية تعارض التزامها في نزع السلاح أو جزءا من الحرب السياسية والقانونية على إسرائيل.

القسم الثامن عشر: التعليم وثقافة السلام

تتحدث الرؤية عن -ثقافة السلام - إنهاء التحريض- لجنة مشتركة.

و نلاحظ هنا عودة للقصة القديمة العقيمة.

القسم التاسع عشر :العلاقة الإسرائيلية - العربية

الشراكة الإقليمية الاقتصادية

هدف هذه الرؤية هو أن تقوم الدول العربية بالتعاون الكامل مع دولة إسرائيل لما فيه صالح كافة الدول في المنطقة.

الولايات المتحدة سوف تشجع بقوة الدول العربية لتطبيع علاقاتها مع دولة إسرائيل والتعاون على اتفاقات سلام دائمة.

- العلاقات الاقتصادية يجب توسيعها بين ....

- الدول العربية، بما في ذلك دولة فلسطين يجب أن تتوقف عن دعم أية مبادرات معادية لإسرائيل في الأمم المتحدة والهيئات متعددة الأطراف.

- إنهاء المقاطعة ومعارضة BDS .

- فرص جديدة لمبادرات أمنية إقليمية .

- دولة فلسطين ودولة إسرائيل ستعملان معا ضد حزب الله وإيران، وحماس إذا لم تتقيد بالشروط والمعايير المطلوبة، وضد تنظيم الدولة الإسلامية وكل المجموعات الإرهابية الأخرى.

- دولة إسرائيل لا تشكل تهديد اً للمنطقة على الإطلاق.

- المصالح المشتركة في مواجهة المنظمات الإرهابية وإيران.

- إنشاء منظمة الأمن والتعاون في الشرق الأوسط تشمل: إسرائيل، دولة فلسطين، مصر، الأردن، دول مجلس التعاون الخليجي ومن يرغب.

القسم العشرون :الاعتراف المتبادل بين الدول

- الاتفاق الإسرائيلي- الفلسطيني سوف يوفر أمناً لكل الأطراف وسيعترف بدولة فلسطين كدولة للشعب الفلسطيني ودولة إسرائيل كدولة للشعب اليهودي.

- الاتفاق سوف ينهي الصراع وكل المطالبات. سوف يطرح في مجلس الأمن والجمعية العامة.

القسم الحادي والعشرون : نهاية المطالبات

اتفاق السلام الإسرائيلي - الفلسطيني سوف ينهي الصراع بين الإسرائيليين والفلسطينيين، وينهي كافة المطالبات بين الأطراف. سوف يتم إقتراح ذلك في قرار لمجلس الأمن وقرار جديد للجمعية العامة.

القسم الثاني والعشرون: السلوك خلال المفاوضات

خلال مفاوضات السلام يتوقع من الأطراف أن تقوم بما يلي:

دولة إسرائيل

لن تقوم بـ :

في الأراضي التي لن تكون جزءا من دولة إسرائيل ببناء مستعمرات جديدة. توسيع القائمة.

توسيع الجيوب.

هدم أية مباني ولا يشمل هذا المباني غير القانونية، التي تهدد السلامة كما تقدرها دولة

إسرائيل أو العقاب بعد أعمال إرهابية.

هذا يعني عمليا استمرار عمليات الهدم تماما وفق ما تم ويتم باستمرار وفق ما تقرره سلطات الاحتلال الإسرائيلي.

الفلسطينيون على م.ت.ف والسلطة الفلسطينية:

- الامتناع عن الالتحاق بأية منظمة دون موافقة دولة إسرائيل.
- عدم القيام بأي عمل مع الجنائية الدولية.
- عدم اتخاذ أي إجراء ضد أي مواطن أميركي أو إسرائيلي أمام الانتربول أو أي نظام قانوني آخر عدا الإسرائيلي والأميركي.
- إنهاء رواتب الإرهابيين في سجون إسرائيل وعائلات الإرهابيين الذين قضوا)الدفعات للأسرى والشهداء).

الولايات المتحدة

تتحدث الرؤية عن العودة عن الإجراءات التي اتخذتها الإدارة الأميركية مؤخرا ضد ا لفلسطينيين .

الجزء الثاني: الإطار الاقتصادي

المقدم في الرؤية في هذا الجانب هو ما قدم لمؤتمر البحرين. يتحدث عن ٥٠ مليار دولار لا أحد يعلم بدقة من أين ستأتي ويمكن معظمها من العرب. هناك أهداف نظرية حول خلق فرص عمل وتخفيض البطالة وتخفيض نسب الفقر.

هنا لا بد من القول: بعد التجربة الفلسطينية كيف يمكن حدوث هذا من حيث المبدأ وأنت تخضع للجانب الإسرائيلي؟

ثم تتحدث الرؤية عن:

- إطلاق الإمكانات الاقتصادية.
- انفتاح الضفة الغربية وغزة .أتساءل هنا: كيف في ظل الإطار السياسي؟
- بناء الميناء. ولكن ما هو الثمن اللازم وشروطه؟
- تنمية القطاع الخاص.
- تعزيز التعاون الاقتصادي الإقليمي والاندماج .

ملاحظات بالنسبة للخارطة المفاهيمية:

- المستعمرات: ١٥ مستعمرة داخل الأرض التي من المفترض أن تصبح دولة فلسطين.
- الرابطة بين الضفة والقطاع، لا شيء، توجد على الخارطة خطوط متقطعة بينهما، ولا يوجد في متن نّص الرؤية ما يشير إلى ما تم نشره مسبقا عن نفق يربط الضفة بقطاع غزة.
- شكل دولة فلسطين المقترحة في الرؤية سخيف ومضحك.

هناك كتلتان تشكلان كارثتين... خطة ايجال آلون، ويؤخذ من الضفة الغربية ما يبدو أنه ٣٠٪ أو أكثر (تؤخذ القدس والغور والمستعمرات)، هذه ليست حدود الجدار حتى - هذه كذبة أخرى.

طبعاً بالإضافة إلى البعجتين جنوب غزة في النقب- نتيجة رفض مصر القاطع لتوسيع القطاع في سيناء. ولا يعلم أحد عن البعجتين شيء.

هناك نقطة جديرة بالاهتمام والانتباه في الخارطة المفاهيمية، وهي أن خارطة إسرائيل حددت بحدود واضحة متصلة فيما يتعلق بالحدود مع الأردن ومع مصر، ومع سوريا بعد قضم هضبة الجولان السورية المحتلة، أما عند الحدود اللبنانية فقد رسم الخط متقطعاً، ما يشير إلى أن إسرائيل قد تُغير ما تراه مناسباً لها (إن استطاعت) في حدودها مع لبنان.

فيما يتعلق بالملاحق: اعتبرها مجرد كلام فارغ (طق حنك).

ما هي الاستنتاجات؟

هذه ليست صفقة قرن، وليست صفقة صغيرة، وليست خطة سلام، وليست مبادرة لإنهاء الصراع وقطعاً ليست حل الدولتين. هذه مجموعة مواقف لليمين الإسرائيلي المتطرف بما في ذلك المستعمرون وللمتطرفين الافنجيليون، تنسجم وتكمل المواقف السابقة للإدارة الأميركية وفقاً لسياساتها الشرق أوسطية.

النص هراء كتبه حاخامون متطرفون ومستعمرون أصحاب رؤية أيديولوجية مجنونة (أو على الأقل أثروا فيه بشكل ملموس). وتوقيت طرحه لا علاقة له بإقامة السلام في الشرق الأوسط، وانما لاعتبارات أخرى تخص الجانبين الأميركي والإسرائيلي.

المعنى الحقيقي لهذه الرؤية هو الانطلاق من أن كل فلسطين الانتدابية لإسرائيل)إسرائيل الكبرى) و من إنكار وجود الشعب الفلسطيني وحقوقه الوطنية، ولكن مع محاولة إيجاد حل للسكان الفلسطينيين ضمن (داخل) إسرائيل في كيان ممزق غير سيادي يمكن للفلسطينيين أن يسموه دولة. بالطبع فإن نقطة الانطلاق تعني أيضاً أنه لا يوجد احتلال وأن كل الانتهاكات التي قامت بها إسرائيل في القدس وفي مجال بناء المستعمرات يجب شرعنتها. أخشى أن مثل هذه الرؤية إذا تم التعامل معها، ستقود على الأرجح، بغض النظر عن نوايا الجانب الأميركي، إلى سياسات طاردة للفلسطينيين قد تصل إلى حد محاولة التهجير القسري (الترانسفير).

جوهر ما يسمى بالرؤية ينتهك أحكام القانون الدولي وأسس النظام الدولي متعدد الأطراف، وينتهك التوافق الدولي على أسس التسوية. ويخالف السياسات الأميركية المعتمدة حول الشرق الأوسط والاتفاقات المعقودة. في إطار عملية السلام. وهي هكذا تشجع مزيداً من الانتهاكات الجسيمة وتدفع باتجاه الابتعاد عن السلام.

الشعب الفلسطيني والقيادة الفلسطينية لا تستطيع قبول الرؤية أو التفاوض على أساسها أو التعامل معها وتأمل من جميع الأطراف الداعمة للقضية الفلسطينية الحريصة على تحقيق السلام والعدالة والحريصة على القانون الدولي وأسس النظام العالمي أن تتخذ نفس الموقف وأن تطرح بدائل لهذه الرؤية وآليات تساعد على تحقيق التسوية.

ماذا يتوجب علينا كشعب فلسطيني عمله؟

- موقف القيادة الفلسطينية واضح للغاية بشأن رفض هذه الرؤية وهذا أمر هام وايجابي.

- يحتاج الأمر أضافة لذلك إلى استراتيجية عمل وإجراءات محددة وربما طواقم جديدة لمواجهة الوضع بشكل جدي. ونكرر في هذا المجال الاقتراحات التالية:

· العمل الجاد لاستعادة الوحدة السياسية والجغرافية.

· إعادة هيكلة السلطة الفلسطينية وتحويلها لسلطة خدماتية فقط، وليس تغيير الدور الوظيفي بل بما يشمل تحديداً إعادة هيكلة الأجهزة الأمنية وتغيير عقيدتها وتغيير قدراتها ومهامها.

· الإعلان عن أن أي خطوة إسرائيلية لضم أي جزء من الأرض الفلسطينية المحتلة سوف تعني إعلاناً رسمياً إسرائيلياً بإنهاء التسوية التفاوضية.

· تأكيد هدفنا الوطني المركزي باعتباره تحقيق الاستقلال الوطني في دولة فلسطين القائمة على حدود ١٩٦٧ عاصمتها القدس، والنضال من أجل تحقيق ذلك بدون تسوية تفاوضية على ضوء الموقف الإسرائيلي ومطالبة المجتمع الدولي بدعم ذلك واتخاذ خطوات محددة من أجل تحقيقه.

· نحن الشعب الفلسطيني قادرون على إنهاء الرؤية وآثارها السلبية وقادرون على الاستمرار في النضال حتى نحقق الاستقلال الوطني في دولة فلسطينية على حدود ١٩٦٧ وعاصمتها القدس.

الهوامش:

١ قدمت هذه القراءة في ندوة سياسية في متحف ياسر عرفات في ٢٠٢٠/٢/٣، ولا بد من الإشارة إلى أنّ الترجمة ليست رسمية، و لأن النص الأصلي باللغة الانجليزية كتب بطريقة تحتمل أكثر من تفسير أو أنها كتبت بصيغ غير محددة وقاطعة في بعض الأحيان.

فريدريك مايتون: كهربة فلسطين
كيف صارت الكهرباء قوة استعمارية في فلسطين؟

د. فيصل درّاج *

أسس القائد الصهيوني ثيودور هرتسل، مسلّحاً بعناصر استعمارية عدّة، في كتابه: الدولة اليهودية، عام ١٨٩٦، ما عُرف بالصهيونية السياسية. لكن سبقه إلى الفكرة ليو بنسكر، المفكّر الصهيوني الحداثي الأول، صاحب كتاب: التحرّر الذاتي، حيث نشط الاثنان قبل وعد بلفور ووفود اليهود إلى فلسطين، وأطلقا، بلا تأخير، تصوّراً لبناء دولتهما المقبلة.

جاء الأستاذ الجامعي الأميركي فريدريك مايتون في كتابه المنشور حديثاً: «فلسطين الكهربائية» بأطروحة فكرية أصلية مرجعها بنحاس روتنبرغ، الذي جاء حاملاً معه من روسيا مشروع «كهربة فلسطين»، وعجّل بتحقّق الحلم الصهيوني، مستلهماً شعار لينين: الاشتراكية هي: «السوفيتات» وكهربة روسيا في أرجائها كلها؛ لذا كتب مايتون: «الثورة هي أول ما أدخله روتنبرغ إلى فلسطين». كان هذا المهندس، المتعدّد المعارف، قد أصدر عام ١٩١٥ كتابه: «بعث الشعب اليهودي في أرضه». كتبه باللغة الروسية وترجم إلى لغة «اليديش» – لغة يهود أوربا الشرقية، وترجم لاحقاً إلى العبرية. بيد أن «الثورة الوليدة» لم تأتِ من منشوره التحريضي، بل من مشروعه الاقتصادي والسياسي

---

* ناقد وباحث فلسطيني

والعلمي والتقني الخاص «بكهرباء فلسطين»، الذي كان يعني فعلياً وضع الكهرباء في خدمة المشروع الصهيوني «كتحديث» للفعل الاستيطاني اليهودي في فلسطين، وإلحاق الحركة الصهيونية بمراكز الحداثة في القرن العشرين.

بدا روتنبرغ لعارفيه، كما لمتابعيه، شخصية مبدعة عالية الكفاءة، يحجب السياسي وراء العلمي ويوهم، وهو الصهيوني الثابت العقيدة، أنه رجل علم، لا يتدخّل في السياسة، يعمل لصالح جميع المقيمين في فلسطين، ولا يميّز بين العرب واليهود، وأنه حريص شديد الحرص على احترام «وعد بلفور»، ما جعله يحظى بدعم استعماري إنجليزي لا تحفّظ فيه، ذلك أن سياسة «الحياد الزائف»، الذي يقول بشيء ويفعل نقيضه، كانت سياسة الانتداب الإنجليزي في مراحله الأولى على الأقل.

وصف تشرشل روتنبرغ فقال: «إنه إنسان استثنائي المقدرة والقوة الشخصية»، وأثنى كثيرون منهم حاييم وايزمان، الرئيس الطويل العهد للمنظمة الصهيونية وأول رئيس لدولة إسرائيل»، على شجاعة المهندس الروسي الأصل واتساع بصيرته وطاقته التي لا تنفد.. (الفصل الأول من الكتاب عنوانه: الثوري الخبير"). واعتبره المهتمون بمآل فلسطين قبل الاحتلال أنه "قصّر المسافة الزمنية بين الفكرة الصهيونية وتحقّقها السياسي العملي...».

جمع مؤلف الكتاب بين أصول البحث العلمي الدقيق، فاعتمد على وثائق متعددة باللغتين الإنجليزية والعربية، ورجع إلى دوريات فلسطينية من ذاك الزمان «جريدة الدفاع وجريدة فلسطين»، واستعان بأرشيف الخارجية الإنجليزية وبمواد موزعة على دوريات متنوعة،... وإضافة إلى دقة البحث الموضوعي، اتسم، بداهة، بنزاهة المعالجة والتحليل، ذلك أن أخلاقية المقارنة عنصر إلزامي في كل بحث موضوعي. ومع أن مايتون قام بعمله مؤرخاً محترفاً، أكاديمياً صرفاً كما يقال، تحرّر منذ البداية، من «الأكاديمية الزائفة»، وقرأ ما هو سياسي في العلاقات جميعها، وقدّم درساً لامعاً في استخراج النتائج السياسية من وقائع تبدو «غير سياسية». ولهذا احتفت بكتابه

أوساط أميركية علمية عربية، أو قريبة من العرب احتفى منظروها، ذات مرة، بوضوح الراحل إدوارد سعيد وجرأته. تعيّن تجديد مايتون البحثي في فكرة جديدة لم يسبقه إليها أحد.

روسي حداثي المعرفة ومقاتل صهيوني:

في الصفحات الأولى من الكتاب، نرى رسماً لإنسان واقف فوق مرتفع ينظر مرتاحاً إلى الأفق، يحمل بيده اليمنى المرفوعة أوراقاً كتب عليها: «اتفاقيات كهربائية»، ويده اليسرى ترفع حقيبة تدلّت منها بطاقة نقرأ عليها: «مستر روتنبرغ، روسيا إلى فلسطين». إنسان ينظر إلى الفضاء العريض بحركة لا تخلو من استعراض وفرح، وموقع مرتفع يسيطر على مكان خفيض كتب عليه بخط «واهٍ» كلمة فلسطين.. الرسم يعود إلى عام ١٩٢٢ – ٧ تموز – كانت نسبة اليهود آنذاك في فلسطين لا تتجاوز عشرة بالمائة. بيد أن طريقة وقوف القادم من روسيا تشعر أنه انتصر، أو أنه ذاهب إلى الانتصار، وتخبر الناظر أن الرجل الذي يدير له ظهره امتلك فلسطين، وأنه انتهى من مهمة صعبة.

ولد روتنبرغ عام ١٨٧٩ في بولتافا من أقاليم الإمبراطورية الروسية. انحدر من عائلة عنيت بالتجارة ألحقته، صبياً، بمدرسة تقليدية. تعلّم القضايا اليهودية الدينية، إلى أن أظهر نبوغاً في الرياضيات وذهب إلى معهد للنخبة في سانت بطرسبورغ ليدرّس العلوم التقنية، المؤسسة على تعليم حديث، على المستويين النظري والعملي، ويتميّز، أساساً، باهتمام بالعلوم التطبيقية وبالتطبيق العملي الذي تحتاجه الصناعات الحديثة، مروراً بالإدارة «العلمية»، وكل ما يندرج في حقليّ الهندسة والاقتصاد.

انتمى مبكراً إلى نخبة علمية واسعة التقدير مرحّب بها على المستوى الرسمي، ومحتفى بها في عالم الأعمال والمشاريع، ولها دورها في الحكم القيصري وفي النظام الشيوعي الذي تلاه، خاصة أن الشاب الواعد كان متأثراً بالأفكار الشيوعية. كان للكهرباء في روسيا أهمية خاصة، دفعها إلى الأمام شعار لينين الشهير عن وحدة

الشيوعية والكهرباء، تتضمن شكلاً من التثقيف الجماهيري حوّل الاهتمام بالكهرباء إلى معتقد جديد. ومع أن روتنبرغ ترك روسيا البلشفية مبكراً، فقد حمل معه ما تعلّمه في سان بطرسبرغ، وكذلك المنظور السوفيتي عن وحدة التكنولوجيا والاقتصاد والسياسة، وخبرة تطبيقية عالية المستوى. كان مهندساً ماهراً متكامل المنظور، شغوفاً بالمشاريع الكبيرة، لا يحتاج إلى الجديد والاختراع، يطبّق مفاهيم وأدوات اختبرها. وإذا كان اندفاعه إلى «العمل الكهربائي» في روسيا يعود إلى تعاطفه الشيوعي فقد عوّضه، لاحقاً، بصهيونية معلنة، مع فرق كبير: كان في روسيا عضواً في «مافيا المهندسين الكهربائيين»، كما كان يقال، بينما غدا في فلسطين المسؤول الأول والأخير في المشروع الكبير. كانت الكهرباء، في الحالين، وفي الفترة التي تلت الحرب العالمية الأولى بخاصة، ذات أهمية خاصة في التصنيع والارتقاء بالحياة الاجتماعية في العالم أجمع.

أدرك روتنبرغ أن العلم سلطة، تحتاج أداةً سياسية لتوطيدها، فكان صهيونياً يحضّ اليهود على إنشاء وطن خاص بهم، ويسارياً مندفعاً قاد العمّال في الهجوم على قصر الشتاء عام ١٩١٧ لإسقاط النظام القيصري، وكان مع الذين قادوا القيصر إلى ساحة الإعدام أيضاً. كان في الحالين مع «يهوديته»: ثائراً عماليّاً و«عميلاً للنظام القيصري». ولهذا قيل إنه أجبر على مغادرة روسيا، حيث استقر في إيطاليا وأشرف على مشاريع واسعة لريّ الأراضي، أشهرته وأقامت بينه وبين الإنجليز، لاحقاً، علاقات وطيدة، بعد أن عُرف بقدرته العالمية في ميدان بناء السدود المائية. ووعياً منه بالعلاقة المتبادلة بين العلم والسلطة السياسية، وطّد في تلك الفترة، علاقة مع فلاديمير جابوتنسكي، القائد القادم «للجناح الصهيوني اليميني»، وأسهم معه في تأسيس «القوة اليهودية للحماية الذاتية». كان قد صحبه عام ١٩١٥ في رحلة إلى الولايات المتحدة بحثاً عن دعم مالي، أتاحت له التعاون مع الصهيوني الاشتراكي بوروخوف، ولعب دوراً نشطاً في المؤتمر اليهودي الأميركي.

جمع روتنبرغ بين الاختصاص العلمي والفضول السياسي، محتفظاً بفسحة ذاتية

واسعة للتطلّع السلطوي، ما جعله ينسحب من نشاطه الصهيوني في أميركا والعودة سريعاً إلى روسيا لتسلّم منصب «رئيس البوليس في سان بطرسبورغ»، الذي عرضه عليه ألكسندر كيرنسكي، ممثل البرجوازية – الديمقراطية، بعد ثورة شباط عام ١٩١٧. ولأنه كان مع حسبانه الذاتي أساء معاملة البلاشفة على نحو كبير، إلى أن أخذوا السلطة وسجن مؤقتاً، وذهب ثانية إلى المنفى ليكرّس طاقته لسلطة جديدة فائضة، ستأتي من «كهربة فلسطين».

الكهرباء وصهيونية حديثة:

لبّى مشروع روتنبرغ طموحاً شخصياً يوائم بين الغاية والوسيلة، وصهيونية تحتفي بالوسائل التي تسرّع تحقيق «مشروعها القومي»، وانتداباً إنجليزياً أدمن الكلام المريح الذي يحجب الحقيقة. قال جون شوكبيري رئيس دائرة الشرق الأوسط عام ١٩٢٢، الذي أعقب وصول روتنبرغ إلى فلسطين: «في جميع الأمور التي تخصّ فلسطين نقف تحت مظلة وعد بلفور. لقد اعتُبرت اتفاقية روتنبرغ دائماً كنموذج عملي مثالي لسياسة بناء الوطن القومي لليهود. وهكذا اعتبرها الصهاينة أنفسهم. لقد حاولنا دائماً أن نجذب اهتمام الصهاينة من السياسي المباشر إلى الأنشطة الصناعية، وأن نقنعهم بأن أفضل فرصة لمصالحة العرب مع السياسات الصهيونية تتأتّى من تعرّف العرب على الفوائد التي تأتي بها لبلدهم المشاريع الصهيونية.... ولهذا دعمنا وشجعنا مشاريع السيد روتنبرغ، ويجب علينا الاستمرار في دعمها وتشجيعها، طالما سمحت الظروف بذلك. ص: ٥١». تمثّلت السياسة الإنجليزية مع الشعوب التي استعمرتها في قاعدة لا أخلاقية: أن تقول شيئاً وأن تفعل نقيضه، أو ما يحجب حقيقته على الأقل، حال مشروع روتنبرغ التقني المظهر والسياسي الجوهر، الذي يمدّ الصهيونية بطاقة هائلة جديدة. فبعد مروره على مؤتمر السلام في باريس الذي أعقب الحرب العالمية الأولى، وعمله على إنجاز اتفاقيات تخص مشروعه، وصل روتنبرغ إلى فلسطين في خريف ١٩١٩،

وقصد بلا تأخير بيسان مع فريق من مساعديه، وقاموا بمسح شامل وتفصيلي للمنطقة. وبذريعة البحث العلمي، الذي يأتي بفوائد للجميع، أطلق يده في اختبار وتفحّص جغرافية فلسطين، ملبيّاً، في الوقت ذاته، أغراضاً صهيونية وكاشفاً، كما رأى مراقبوه، عن «مهندس حديدي الإرادة». امتدحه تشرتشل، سكرتير السياسة الاستعمارية، داعماً مشروعه، منوّهاً بما أنتجه من «خطط ورسومات بيانية وتقديرات لا نقص فيها».

قصد روتنبرغ والصهاينة الملتفون حول تحديث «فلسطين»، إلى إعطاء هوية يهودية لـ«فلسطين المقبلة»، فلم يكن في القدس، الأولى بين المدن التي أضاءتها الكهرباء، إلا مجموعة صغيرة من «المولّدات» الخاصة بنخبة اجتماعية محدودة. وكان الحال أكثر تواضعاً في الناصرة، المضاءة بطرق تقليدية، خلافاً لمدينة تل أبيب الأكثر حظاً.

اجتهد الصهاينة في الاستفادة من تجارب وخبرات الشعوب المتقدّمة. فعشرينات المجتمعات الغربية كانت فترة المنشآت الكهربائية الكبرى، التي غدت معياراً للتقدّم والحضارة. فلينين، على سبيل المثال، جعل من كهربة روسيا شرطاً لبناء الشيوعية، وأكّد الكهرباء عنصراً في ازدهار الثقافة وتطوير المناطق المتخلّفة من روسيا. وصعد في الولايات المتحدة مجاز «الثورة في مواجهة الظلام». وتمّ الربط في أكثر من مكان بين الحضارة والتكنولوجيا وبين التقدّم والفكر التكنولوجي، الذي اعتمده المدافعون عن الرأسمالية والاشتراكية والعقلانية في آن.

اعتماداً على خبرة «روسية» مدعومة إنجليزياً، أراد الصهاينة أن يكونوا في مركز العالم الحديث، المنتسب إلى «عصر التنوير الأوروبي»، مقصّرين المسافة بين أحلام الفرنسي ديكارت، فارس الأزمنة الحديثة، كما يقال، ومشروعهم «اللاهوتي» الذي سوّق فكرة أن فلسطين «عطاء إلهي حصري لليهود». وواقع الأمر أنهم، بحذق كبير، تمثّلوا أفكار روتنبرغ، التي رأت في العلم قوة منتجة، وفي وحدة السياسة «القوية» والتخطيط العلمي مرشداً لمشروعهم الاستيطاني – الاستعماري. أدركوا، كما أدرك، «مهندسهم الروسي»، أن العلم قوة ومدخل لبناء نمط جديد من الحياة، يقتصد في استعمال

الزمن، ويمدّ الإنسان بثقافة اجتماعية راقية.

ارتاح بعض المؤرخين إلى مفهوم «شعوب بلا تاريخ»، وقسّموا الشعوب، عنصرياً إلى متقدمة «حارّة الزمن» ومراوحة، لا زمن لها، فيها مكان للفلسطينيين، الذين لم يرَ مارك توين، حين زار أرضهم، خضرة أو زراعة. أراد الصهاينة أن يكونوا من الفئة الأولى، متوسلين الكهرباء أداة لترويض الطبيعة، وتحويل الأرض إلى «قيمة تجارية»، فهي سلعة «مقتنصة» تصيّرها الكهرباء مصدراً مالياً. استولدوا إرادتهم، التي أضاءتها الكهرباء والتعرّف على تجارب الشعوب «المتحضّرة»، من «التخطيط الاقتصادي الشامل»، الذي كان روتنبرغ مرجعاً لامعاً فيه: كَهْربَ البيوت والقطارات والمصانع، وعمل على بناء السدود..... أتاحت الكهرباء للصهاينة «إنتاجاً يهودياً» يعود بالفائدة على اليهود وينتج لهم فرص عمل متعددة.

ومثلما أن الاستعمار وقف، بعامة، وراء «التطوّر اللامتكافئ» للشعوب، مكتفياً بقسمة مجردة بين «المتقدّم والمتخلّف»، فقد كان في مشروع روتنبرغ، الذي عثر على دعم إنجليزي وما يتجاوزه، ما وسّع الهوة بين أحوال المجتمع الفلسطيني والمجتمع اليهودي الوافد، وما خلق شعاراً إيديولوجياً عن «عبقرية شعب الله المختار». تلك «العبقرية الإلهية التي رفدتها خبرة روسية» و«مافيا مهندسين متميّزة» ودعم مالي أميركي، ومباركة إنجليزية «مستترة» في فترة، ومسلحة الكشف في فترة لاحقة. كان للفلسطينيين موروثهم العثماني ونظام جباية ظالم، لم يغيّر الإنجليز فيه شيئاً، بل أضافوا إليه مظالم جديدة.

كان للفلسطينيين الخارجين من فقر عثماني فقرهم، و«أرض جبلية، شحيحة المردود»، ونفوذ إنجليزي مكّن اليهود من امتلاك الأرض الخصبة. ومع أن مجيء الكهرباء في فلسطين «أحدث ثورة في الزراعة»، فإن مجال الثورة والآثار الناتجة عنها كانت خاصة باليهود، كان روتنبرغ – المنصاع إلى قرارات وعد بلفور – سيد القرار. بقي الفلاح الفلسطيني وأرضه كما كانا، بل ازداد تدهوراً في زمن الانتداب. ظهر «التطوّر اللا

متكافئ»، فلسطينياً، في زراعة يهودية مزدهرة وزراعة عربية شحيحة المردود، وفي شكلين من الحياة مختلفين.

كشف مايتون في بحثه العامر بالتفاصيل عن منظور جديد للصراع بين الفلسطينيين واليهود، اتخذ من «التقنية الحديثة» مرجعاً له. اكتفت الدراسات التقليدية بقراءة المشروع الصهيوني «المنتصر» في عوامل سياسية وعسكرية واستعمارية؛ التخلّف العثماني، ومؤازرة القوى الإنجليزية المتصهينة منها بخاصة، والدعم الأميركي والرأسمالي بعامة، وأموال اليهود والخبرة اليهودية، والتباين في التعليم، وفقر الدور العربي، والعتاد الإنجليزي الذي دمّر الثورة الشعبية الكبرى ١٩٣٦ – ١٩٣٩، وتقليدية وجمود القيادة الفلسطينية،.... لم يتطرّق أحد إلى «العامل الحاسم للتقنية»، الذي درسه مايتون دراسة مستفيضة، واعتبر «ثورة روتنبرغ» ثورة كبرى أسعفت العناصر السابقة جميعاً، أدرج فيها تعابير غير مألوفة: «الثقة الحضارية، رجال العلم، الإمبريالية البنائية، انتصار الخبير التقني،....».

كتب مايتون، وهو يشير إلى الاستعمار الإنجليزي في إفريقيا: «كشفت الإمبريالية البنائية، في إفريقيا الإنجليزية، عن ذاتها كتدخّل فاعل لصالح جماعات المستوطنين البيض. فوفقاً لهذا المنطق فإن تقوية الفاعليات الاقتصادية للمستوطنين يعزّز دورهم كوسائل للتطور ونماذج يحاكيها السكان الأصليون. ص: ٢٩». ما يجعل من المستوطن طليعة في ذاته ولغيره، «عطف عليها» الإنجليز مباشرة المستوطنات الصهيونية في فلسطين، ناسين أو متناسين، أن دور الصهاينة كحليف وشريك يصادر إمكانية «المحاكاة» بشكل كلي تقريباً؛ لذا لم يقتنع الفلسطينيون، من البداية، بوعود روتنبرغ عن «خيرات الكهرباء المرتقبة»، التي ستتوزّع على العرب واليهود.

واجه الفلسطينيون الخديعة ولم يرفضوا الكهرباء

"المتخلفون يعشقون الظلام وينفرون من النور". قد تكون هذه الجملة أول ما هجس

به الإنجليز بعد تظاهر الفلسطينيين ضد مشروع روتنبرغ. استهل مايتون مقدمة كتابه بالسطور التالية: "في يوم من أيام أيّار عام ١٩٢٣، نزل أكثر من ألف شخص من سكان طولكرم، مجموعة تعدادها أربعة آلاف،...، تبعهم لاحقاً آخرون من يافا وحيفا والقدس ونابلس، ومن جميع أنحاء فلسطين، حتى صاروا جمعاً غير مسبوق، جاء ليتبادل الرأي حول «كهربة فلسطين». قبل هذا التاريخ بأربع سنوات، عام ١٩١٩، كان المهندس اليهودي الشهير بنحاس روتنبرغ قد جاء إلى فلسطين، حاملاً «تصاميم» عن نظام كهربائي للبلاد، واعداً بالرخاء وبصناعة حديثة».

تعامل الفلسطينيون، منذ البداية، مع المشروع بحدس شعبي أدرك أن ما يأتي به اليهود، المدعومون إنجليزياً، لا يكون إلا لمصالحهم، وما تعبير «مصالح للجميع» إلا حجاب لتضليلهم. أظهرت الوقائع لاحقاً صدق حدسهم، فقد بيّن تقرير نشرته الوكالة اليهودية عام ١٩٤٥ أن كهرباء روتنبرغ لبّت حاجات ثلث اليهود، ولم يستفد منها إلا سبعة ونصف بالمائة من العرب. وواقع الأمر أن البنية التحتية التي ظفرت بها إسرائيل، حين ولادتها في ١٤ أيار عام ١٩٤٨، توفّرت بفضل مشروع «كهربة فلسطين»، ذلك أن المشروع بنى دولة يهودية وحرم الفلسطينيين، إضافة إلى عناصر أخرى، من بناء دولة، ومن تحويل اجتماعي حداثي يمكنهم من الدفاع عن حقوقهم بشكل أفضل.

لم يستطع الحدس الشعبي – الوطني، المشار إليه، أن يفضي إلى موقف فلسطيني وطني موحّد، لا بسبب ولاءات سياسية متفرقة ميّزت «محترفي العمل السياسي»، بل جاء أيضاً من ممارسات جمعت بين الإنجليز والمهندس القوي الإرادة عنوانها: سياسة اللّا سياسة، أو الممارسة السياسية بلا سياسة، أكّدت أن الكهرباء أداة محايدة توزّع، بشكل محايد، فوائدها على الجميع. أوحت هذه السياسة بأن المشروع لا يميّز بين العرب واليهود، فالتقنيات لا سياسة فيها، وأربكت مواقف الفلسطينيين، إذ بدا رفضهم للكهرباء تمسّكاً بالتخلّف. بل إن هذه الكهرباء، التي جاءت لخدمة المشروع الصهيوني، ظهرت بلغة صهيونية – إنجليزية مدخلاً إلى تصالح العرب واليهود، ومنع

الفلسطينيين من القيام «بتخريب التمديدات التي يحتاجها المشروع..».

ما بدا تجاوزاً لخلاف سياسي تقليدي بين العرب واليهود لم يغيّر من الأمر شيئاً. لم تغب السياسة عن ناظريّ الصهاينة والإنجليز، بل استمرت بأدوات غير سياسية، مطبقة قاعدة: «سياسة اللّا سياسة»، التي تمنح «الهدوء» لروتنبرغ والصهاينة والإنجليز. تابع الأول عمله في خدمة المشروع الصهيوني، موحياً للعرب أنه «يقاسمهم أرباحه»، ساعد على ذلك «اللغة التقنية» التي لا يحسنها الفلسطينيون، وتعامل الصهاينة مع الأرض وتقسيمها وفقاً لمصالحهم، آخذين بمنطق «الرأسمالية التقنية»، التي تعيّن العلم أداة اقتصادية – سياسية، وتقاسم الإنجليز والصهاينة لعبة الأرقام والإحصائيات، التي لا تلزمهم باستشارة الفلسطينيين. أتاحت هذه الأبعاد الثلاثة لروتنبرغ أن يقتطع من الأراضي الفلسطينية ما يشاء، باسم «المصلحة العامة»، وهو ما فعله مع مناطق مجاورة لـ«نهر العوجا»، الذي استخدمت مياهه لبناء سدّ ضروري للمشروع، كانت ملكية لقرية مجاورة.

عالج روتنبرغ احتجاج الأهالي على سرقة أراضيهم بالنقود، بأسعار بدت لهم عالية، مثّلت فعلياً «القيمة السياسية للأرض»، أرضت فلاحين بسطاء وقيادة متأرجحة الموقف.

وأوحت «القيمة السياسية للأرض» التشكيل الصهيوني لفلسطين، وهندستها وفقاً لاستراتيجية تعرف الأراضي التي يحتاجها، واعتبر روتنبرغ القيمة برهاناً عن «امتلاكها الذاتي»، ما أتاح له أن يتصرّف بها كما التصرّف «بتوزيع الكهرباء»، طالما أنها مرتبطة بأرض تعود، قانونياً، إليه.

صيّر روتنبرغ «كهربة فلسطين» إلى مشروع لبيع الأرض وشرائها، بعد أن طلب «البائعون» أسعاراً مرتفعة «غير مألوفة». خسر «البعض» أرضهم ولم يحصلوا على كهرباء، «فمالك الأرض» يبيعها لمن يشاء، ولم يعد لسكان «منطقة العوجا» حق استعمال مياه النهر لريّ أراضيهم. في مقابل الماء والكهرباء تبقّى للفلسطينيين

أرض عطشى، تقابلها «أرض صهيونية» تنعم بالماء والكهرباء. كان هذا أحد وجوه «ممارسة السياسة بلا سياسة»؛ إذ صار تمرّد أصحاب الأرض على روتنبرغ فعلاً مخالفاً للقانون!! ولعل راحة المهندس الصهيوني، الصادرة عن أسباب عدة، خالطتها رخاوة بعض المتزعّمين الفلسطينيين، منهم راغب النشاشيبي، كما جاء في الكتاب، أسهمت في تسريع مشروعه، فبدأ العمل في أيلول ١٩٢٢ وقطع شوطاً فيه بعد عام.

تراءى اضطراب بعض المسؤولين الفلسطينيين، الذين لا يميّزون سريعاً بين الوجه والقناع، في موقف عمر البيطار رئيس جمعية المسلمين والمسيحيين في يافا، فبعد أن أقرّ المشروع في خريف ١٩٢١، عاد وغيّر موقفه في الصيف الذي تلاه، إثر معرفته بما حصل في «نهر العوجا»، وغدا قائداً في الحملة المناهضة «لكهربة فلسطين»، ونشر جملة مقالات في جريدة «فلسطين» اتهم فيها «رئيس البلدية» في القدس ويافا «بإلحاق الأذى في مصالح البلاد». وأجابه عصام السيد - يافا «أنه مقيد إلى الأمر الواقع»، علماً أن أهل بلديته خرجوا إلى الشوارع مردّدين شعارات ضدّ ما قبل به، شاركهم فيها، عام ١٩٢٣ أهالي طولكرم والناصرة والقدس وطبريا.. أكّدوا أمرين: الخطر الواسع الواقع على البلاد، والطبيعة السياسية للمشروع الكهربائي.

والسؤال: لماذا لم تستطع جموع الفلسطينيين في مدن رئيسية أن «تعوّق» حركة المشروع، كي لا نقول إسقاطه، وأن تحاصر حركة روتنبرغ، الذي كان يستقبل بالعداء في مدن فلسطين جميعاً؟ يعود ذلك إلى غياب قيادة وطنية حازمة، وإلى «جهل المجموع» شعباً وقيادة بتفاصيل المشروع، كما لو كان خطراً بين أخطار أخرى، هو الذي رسم مساراً منتصراً سائراً إلى ١٩٤٨، وأبقى وحدة العلم والسياسة والاقتصاد منهجاً لدولة إسرائيل بعد قيامها، كما جاء على لسان مسؤول إسرائيلي، لاحقاً.

يتمثّل المأساوي في الوضع الفلسطيني بعدم القدرة على المناورة، وفي غياب وضوح وطني يوحّد القوى المختلفة. مارس الصهاينة وروتنبرغ السياسة وهما يقولان بغيابها، ومارس المتزعّمون الفلسطينيون كلاماً سياسياً عاماً لا سياسة فيه، عبّرت عنه

«المؤتمرات الوطنية» المتوالية قبل مجيء روتنبرغ وبعده. آمن المهندس بما يؤمن به، وآمن المتزعّمون بعمومية الوعود الصهيونية ـ الإنجليزية، واجتهد الطرفان الأخيران في تأسيس قاعدة اقتصادية لدولة قادمة، وتصرّفا بأرض الفلسطينيين الموزّعين على الخديعة والانتظار والمقاومة.

أراد الصهاينة إنتاجاً بأيد يهودية يفيد اليهود، وأخطأ الفلسطينيون حقوقهم بحسبان يقوم على الخطأ، أسهم فيه «مسؤولون» لا يفرّقون بين السياسة والتجارة. كتب روتنبرغ رسالة إلى صديق له عن مشاكل واجهها في منطقة بيسان، جاء فيها: «قادة عرب واسعو النفوذ يسألون بإلحاح عن تعويضات مجزية، لست مستعداً لتلبيتها. ص: ٩٢». طالب «القادة» بأسعار مبالغ فيها، انطلاقاً من وعي فقير يعتبر الأرض سلعة، واستجاب المهندس لمطالبهم، مدركاً أنه بصدد «مشروع وطني كبير»، يحتاج إلى الهدوء والعمل السريع، هذا الهدوء الذي يشرف «القادة» على تحقيقه، من دون أن يدركوا الفرق بين السلعة والوطن، وأن روتنبرغ، الذي يقول شيئاً ويفعل غيره، سيبيعهم الكهرباء وبالسعر الذي يريد. احتفظ الإنجليز، والحال هذه، بمنطق مزدوج: يقبلون بمنطق التجارة إن لبّت مطالب روتنبرغ العاجلة، ويتصرّفون كسلطة انتداب خارجها، كأن لا يكترثون بريّ أراضي «العوجا»، التي صادر المهندس المياه التي تحتاجها. انتبهت جريدة «فلسطين» إلى هذا الوضع عام ١٩٢٣ وكتبت بلغة حازمة: «يجب علينا أن نسأل كيف تقوم الحكومة، واليهود أيضاً، بتجفيف المصادر اللازمة لتطوّر البلاد». والسؤال صحيح لو حدّد معنى «البلاد»، ذلك أن ازدواجية الانتداب، الموزّعة على الإنجليز واليهود، تقصر «البلاد» على ما يخصّ اليهود، ولا تكترث بما يخص «سكان البلاد الأصليين»، أي «الأكثريّة المسلمة»، أكانوا من بيسان أو من مدينتيّ حيفا ويافا.

كان على جماهير الفلسطينيين أن تواجه «قيادة بلا قيادة» تنشد رضى الإنجليز، وانتداباً يعترف بحقوق الصهيونية وحيدة. ولهذا هاجم المحامي وديع البستاني رئيس

بلدية حيفا لتفريطه في أمور لا يجوز التفريط بها، وأعاد كمال الدجاني، من حيفا، بأن مشروع روتنبرغ سياسي «لا خير ينتظر منه، لأنه يقوم بإرساء دعائم الوطن القومي اليهودي»، وكان موقف جمال الحسيني أكثر شدة «الشعب يكره ويحتقر الحكومة ويدعوها حكومة يهودية، ومن الطبيعي أن من يحتقر شخصاً لا يخاف منه».

ومع أن فلسطين في عشرينات القرن الماضي وثلاثيناته، لم تعرف «قائداً جماهيرياً»، باستثناء المفتي أمين الحسيني، الذي أتقن بدوره «عمومية الكلام الوطني»، فإنها عرفت مجموعة واسعة من «المقاتلين الوطنيين»، الذين نطقوا باسم المصلحة الوطنية، وعرفت أكثر ما دعاهم نجيب نصّار، مؤسس جريدة «الكرمل»، «المتزعمون»، الذين كانوا يبحثون عن مصالحهم الشخصية لا أكثر. والأرجح أن «المتزعمين» لعبوا دوراً في إحباط العمل الوطني الفلسطيني، تجاوزت آثاره الجهود التي بذلتها الشخصيات «الصادقة».

لم يكن الفلسطينيون قادرين، في التحديد الأخير، على إسقاط مشروع روتنبرغ، لا بسبب مهندس روسي الأصل لامع وسياسي خبير، بل لأنه كان جملة علاقات مجسّدة في فرد واحد: فهو صهيوني واسع النفوذ في المؤسسة الصهيونية، يقترح على غيره قبل أن يقترح الغير عليه، وإنجليزي – انتدابي يلبّي حاجات الإنجليز الذين يلبّون الحاجات الصهيونية، وعارف بالمنطقة العربية وقياداتها مثل نوري السعيد و»الأمير - آنذاك»، عبد الله بن الشريف حسين، وعرف فلسطين أرضاً وشعباً وقيادات، وملامح الدولة اليهودية التي ستقوم فوقها قبل أن تقوم.

السياسة في دلالتها الواسعة:

تُختصر السياسة في التصوّر التقليدي إلى قادة رفيعي الشأن يسيّرون أمور العباد، وأحياناً إلى شخص وحيد ينصاع إليه الذين «يقفون» تحته، نموذجه «مفتي فلسطين» الذي كان يكره المتعلّمين. وقد يوسّع البعض دلالة السياسة فيضيف إليها الأحزاب

وقياداتها، فإن أراد أن يكون متطوّراً تحدّث عن «الجبهة الوطنية» و«أهمية الجماهير».

يرى التصوّر الموضوعي، القريب من الحداثة، السياسة في جميع وجوه الحياة، وفي تجليّات السلطة الحاكمة، ويتحدّث عن السياسة الاقتصادية، والسياسة العلمية، والسياسة الثقافية والتعليمية....يعترف هذا التصرّف بتعدد المستويات الاجتماعية، التي يستلزم كل مستوى منها سياسة خاصة به.

ولعلّ تقليدية التصوّر الفلسطيني «المتزعّم» هي التي افترضت أن العلم محايد، وأن الكهرباء طاقة بلا سياسة تمسّ، لزوماً، التحوّلات الاجتماعية، ولا تشكّل بعداً في المشروع الصهيوني الذي استهدف، منذ أكثر من قرنين، احتلال فلسطين وبناء دولة يهودية. كان للفلسطينيين متخيّلهم الوطني الذي اعتقد، ولو لفترة، أن فلسطين محميّة بقدسيّتها، وأن «بلاد الأنبياء" تحرسها القدس المقدّسة.

أخذت الصهيونية، التي أضافت التعاليم الدينية إلى دعم إنجليزي غير مشروط، بمتخيّل آخر، لا يقرأ العلاقات فرادى، ويوائم بين «أرض الميعاد» وتجارب الدول الحديثة. ولهذا استلهمت برامج «الرأسمالية التقنوقراطية»، واعتبرت «الكهرباء» مجازاً حداثياً واسعاً، يضيء البيوت ويؤسس دولة لقلة يهودية، سيجعلها المجاز الحديث أكثرية مجازية أيضاً، تطرد الفلسطينيين وتنشئ دولة تحوّل الكهرباء إلى طاقة منتجة، تتكاثر في المصانع والمدارس وصناعة الأسلحة الجديدة.

جعلت الكهرباء من الصهيونية قوة منتجة تحقّق نمواً اقتصادياً، يترجم ذاته قوة سياسية في شكل جديد، تعيد بناء المجتمع. ذلك أن مواضيع التقنية تهندس المجتمع ثقافياً، تعلّمه الاختبار والتجريب، والانتقال من المعلوم إلى المجهول، وتأكيد الزمن قيمة تؤثر في القيم جميعاً.

يدور الموضوع، مهما تكن علاقاته، حول الأثر المتبادل بين التقنية والسياسة، وهو ما أنجزه الأستاذ فردريك مايتون بلمعان كبير، الذي قرأ دور التقنيات الحديثة في نجاح المشروع الصهيوني، في عقود قليلة، خلال سياق تاريخي – سياسي بالغ التحديد. فإذا

كانت ظلمات أربعة قرون من السيطرة العثمانية قذفت بالشعب الفلسطيني إلى هامش التاريخ، فإن كهرباء روتنبرغ جعلت إسرائيل واقعة تاريخية في عقود قليلة. واقعة أسهم في توليدها أفراد، لكنها قامت أولاً على جملة من المؤسسات والبرامج والمخططات الواضحة الوظيفة، ذلك أن الكهرباء لا تختصر في ثنائية النور والظلام، بل تمثّل سيرورة إنتاجية متعددة العلاقات، مركزية القرار ومحدّدة الوجوه، أفضت إلى بنية تحتية حديثة، تتدخل فيها الحقول الاجتماعية؛ إذ الصناعة تحتاج إلى سياسة اقتصادية، وإذ الأخيرة لا تستقيم من دون تصوّر يرى المجتمع جملة علاقات متفاعلة.

يسأل المؤلف في آخر كتابه الجدير بالقراءة والحوار: هل كان روتنبرغ رأسمالياً يبحث عن الربح، أم صهيونياً يبحث عن دولة يهودية؟ الجواب المتوقع: كان الأمرين معاً، كان يعرف الوسيلة والهدف، ويربط «عقلانياً» بين الاقتصاد والمجتمع والسياسة، ويعطف الربط العقلاني على الهدف الصهيوني. «كان منجذباً إلى الرأسمالية الصناعية، وإلى الصهيونية، اعتقاداً جازماً منه أن في كليهما ما يؤسس تنظيماً عقلانياً للحياة. ص: ٢٢١». فالسياسة تنظيم عقلاني، والعلم جملة من الوسائط العقلانية، والمجتمع وحدة من الترابط الاجتماعي – السياسي ... والمحصلة كانت، كما رأى مع مرافقي حياته، واضحة: «فلسطين المكهربة»، كما لو كان قد افترض «نموذجاً ذهنياً»، وجد له أرضاً تقبل التطبيق، وبرهن عن نجاحه في دولة غير متوقعة، هي محصلة لعقل حديث، وسياق ملائم، وفاعلية إنسانية بالغة الاجتهاد.

حين ذكر وعد بلفور اليهود واكتفى بذكر «غير اليهود»، كان يدرك المشرفون عليه أن «الفلسطينيين كمّ بشري لا شأن له»، وحين قرّر المؤتمر الصهيوني في مدينة بال عام ١٨٩٨ أن دولة اليهود قادمة بعد نصف قرن، كانوا يعرفون فاعلية القوى الداعمة لمشروعهم، وحين وصل روتنبرغ فلسطين «حاملاً وثائقه»، كان مؤمناً بأن أعظم قوة تقف منتصرة إذا عثرت على قوة سياسية تدعمها.

لم يكن الفلسطينيون، كما هم اليوم، قوة لا شأن لها، بل أجهدوا جيش الإنجليز في

ثورة ١٩٣٩ -١٩٣٦، وألجأوه إلى استعمال «البراميل المتفجّرة»، وسيلجؤون الدولة الإسرائيلية إلى وسائل تزوير وقمع متعددة، قبل أن تدرك أن فاعلية الإنسان الحر لا تصدر عن التقنية الحديثة وحدها، إنما تنبعث أولاً من الأرواح الحيّة التي تهزم القوة والخديعة.

Fredrik Meiton:

Electrical Palestine – capital and technology from empire to nation.

2019, university of California, 305 p.

يمكن الرجوع في هذا المجال إلى كتاب كارل بولانيي: «التحوّل الكبير» – الأصول السياسية والاقتصادية لزمننا المعاصر – الصادر عن مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت عام ٢٠٠٩.

بعد القرار الشجاع
المفروض تبديل السياسة الفلسطينية

فيصل حوراني *

الصحافي الأشهر في تاريخ الصحافة العربية، وربما العالمية، التقى صديقه الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتيران؛ التقى الصديقان، محمد حسنين هيكل وميتيران بعد الاحتفال المبهر الذي جرى في البيت الأبيض الأميركي احتفاءً بإبرام اتفاق المبادئ الفلسطيني - الإسرائيلي الذي أشتهر أيضا بأسم اتفاق أوسلو. وكان من الطبيعي أن يتطرق حديث هيكل وميتيران إلى هذا الاتفاق.

في السياق، روى الرئيس ميتيران للصحافي هيكل واقعة أتيح لي أن أسمع حكايتها من فم هيكل نفسه، وأن أصدّقها. فأنا، بوصفي الكاتب الفلسطيني المتفرّغ للكتابة، كنت قد استخلصت بشأن اتفاق أوسلو رأياً مطابقاً لمدلول رواية ميتيران.

قال ميتيران لرئيس تحرير «الأهرام» إنه أستقبل، بعد الإحتفال بإبرام اتفاق أوسلو، من كان آنذاك وزيراً للخارجية في حكومة إسرائيل، شمعون بيريس فوجه إليه هذا السؤال: «كيف وافقتْ إسرائيل على الإعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلةً للشعب الفلسطيني؛ وكيف عقدت مع هذه المنظمة، التي طالما وصفتها هي ذاتها بأنها منظمة إرهابية، اتفاقاً يجيز للمنظمة أن تتفاوض مع حكومة إسرائيل حول مستقبل الأرض الفلسطينية»؟

* كاتب وباحث فلسطيني

يهمّنا في مطلع هذه المقالة ردُّ شمعون بيريس على سؤال الرئيس الفرنسي. وها انا ذا أورده كما سجلته حين سمعته من فم هيكل ذي الذاكرة الموصوفة بالحديدية: «ما الذي ستخسره إسرائيل إذا إستدرجنا مشاغبي الشرق الأوسط إلى المجيء إلى أرض - إسرائيل ليصيروا تحت سيطرتنا فيصير بإمكاننا أن نروّضهم على تخفيض سقف مطاليبهم أولا بأول»؟

وفي واحد من مقالاتي التي خصّصتها لتسويغ معارضتي اتفاق أوسلو، رويت هذا الذي سمعته من هيكل عن الترويض لتخفيف سقف المطاليب، وأضفت تعقيبا من عندي عليه، وَصَفتُ فيه ما يضمره بيريس وأمثاله من حكام إسرائيل الصهيونيين: « إلى أن يتلاشى هذا السقف».

فهل أوصلَنا الولع القديم باتفاق أوسلو إلى مرحلة بداية التلاشي هذه؟

وجوابي على هذا السؤال توجزه اللفظة التي من حرفين: لا، كبيرة.

لقد مضى على إبرام الاتفاق الفلسطيني – الإسرائيلي حتى الآن قرابةُ سبع وعشرين سنة بالتمام والكمال. انقضى من هذه السنين الكثيرة كثيرٌ من سنينها عوّل فريق أوسلو الفلسطيني خلالها على حكومة الجنرال إسحق رابين، ثمّ على خلفه شمعون بيريس. ولم يكف هذا الفريق عن التعويل على حكومات إسرائيلية تعاقبت بعد رابين وبيريس، إلا بعد أن آل منصب رئاسة الحكومة الإسرائيلية الى بنيامين نتنياهو. حتى بوجود نتنياهو هذا، لم تسقط أوهام فريق أوسلو إلا بعد انعقاد مفاوضات آنّا بوليس، التي جهر نتنياهو بعدها ببعض ما أضمره بشأن مستقبل الأراضي الفلسطينية والأراضي العربية الأخرى، التي سيطر جيش إسرائيل عليها في العام ١٩٦٧.

بعد سقوط التعويل الفلسطيني على حكومات صهيونية، انتقل التعويل ذاته، فتحول الى إنشاء أوهام أخرى أرتبطت هذه المرة بالإدارات الأميركية، خصوصا في عهد الرئيس الأميركي باراك أوباما ووزير خارجيته جون كيري. وراحت هذه الأوهام الفلسطينية تتلاشى أولا بأول منذ خلف دونالد ترامب باراك أوباما في منصب رئيس الولايات المتحدة الأميركية. وقتها، تمّ تلاشي الأوهام الفلسطينية بشأن الفروق بين إدراة أميركية وإدارة أميركية أخرى،

وتكشف للفلسطينيين أن المصالح الأميركية، خصوصاً كما آل إليه تطورها بعد إنتهاء الحرب العالمية الباردة، هي التي تصوغ قرارات الإدارات الأميركية بشأن الصراع العربي – الصهيوني. والواقع أن إدارة دونالد ترامب أوغلت كثيراً في الجهر بما تنويه، أكثر مما أوغلت فيه أي إدارة أميركية سبقتها.

هذا الوضع الأميركي الذي قد لا يتكرر مرّة أخرى شجّع بنيامين نتنياهو وناس فريقه على التصرف وكأن أوان تلاشي سقف المطاليب الفلسطيني قد حان. فأمعن هؤلاء في الافصاح عن مضمرهم، فيما استمروا في توسيع الاستيطان لخلق وقائع على الأرض تهيء لهم تحقيق مضمرهم هذا. بل ان نتنياهو ذاته، وأكثر منه بعض مؤيديه، راحوا يمهدون الجو، ليس لتحقيق مضمرهم التوسعي في الأرض الفلسطينية وحدها، بل في الأراضي العربية الأخرى بما فيها أراضي سورية والمملكة الأردنية الهاشمية. وفي هذا الذي يجري إسرائيلياً التمهيد له ما يفسّر تشدّد سورية والمملكة الاردنية الهاشمية ضد صفقة القرن الترامبية وضد الضمّ الإسرائيلي الزاحف لما بقي بغير ضم الى إسرائيل من أرض الشعب الفلسطيني.

فهل سيقدّر لسياسة الضمّ التوسعي الزاحف هذا أن تحقق أهدافها المعلنة وأهدافها المضمرة، خصوصا هذه المضمرة؟ للإجابة على هذا السؤال الهام جداً، أجد من الضروري أن أوجز في ما يلي الأسس التي أصوغ في ضوئها الإجابة المطلوبة على سؤال الأسئلة هذا.

أول هذه الأسس، ولعله أن يكون أهمّها، أن المصالح الأميركية، كما قدّرتها الإدارات المتعاقبة منذ قرّرت الولايات المتحدة الخروج من عزلتها القارية للمشاركة في الحرب العالمية الأولى، أي في عهد الرئيس وودرو ويلسون، هي التي صارت تحدد السياسة الأميركية تجاه قضايا الشرق الأوسط، وبضمنها قضية الصراع العربي – الصهيوني. وهذه المصالح هي التي أطلقت الدعوات الأميركية لتأييد المشروع الصهيوني الطامع لتأسيس دولة لليهود في فلسطين منذ ما قبل ويلسون، وهي التي جعلت الرئيس الأميركي ويلسون يؤيد وعد بلفور البريطاني، وهي أيضا التي جعلت خلفاء ويلسون يؤيدون تحقيق هذا الوعد ويحتجون على أي إجراء بريطاني تشتمّ فيه رائحة أي تلكؤ في تحقيقه. وهذه المصالح هي التي حملت إدارة الرئيس

الأميركي ترومان الى ممارسة ضغوط شتى لإمرار قرار تقسيم فلسطين بين أهلها واليهود، وإلى ممارسة تطبيق القرار في نحو أباح لإسرائيل، حين تأسست، أن تستولي في توسعها الأول الكبير على أجزاء من الأرض التي خصّصها القرار ذاته للدولة الفلسطينية.

وقتها، حثت إدارة ترومان حليفتيها حكومة بريطانيا وحكومة فرنسا فشاركتهما إصدار البيان الثلاثي الذي ضمن لإسرائيل أن تظل خطوط الهدنة حدوداً دائمة لدولتها، بعد ان حققت هذه الدولة توسّعها الأول الكبير. وثابرت السياسة الأميركية منذ فك عزلتها القارية على مقاومة ايّ إجراء يبيح لشعب فلسطين ممارسة حقه في تقرير مصيره بحرّية، وحثت أتباعها العرب على مقاومة هذه الحق، في نحو يبيح لهؤلاء ان يزعموا أن مقاومتهم هذه تتم من أجل تحقيق السلام للشرق الأوسط، وأن يزعموا أيضا أن في السلام مصلحةً لشعب فلسطين، ليسوّغوا بهذا الزعم ضغوطهم على القيادة الفلسطينية لتأخذ الأمر الواقع المتحقق على الأرض بعين إعتبارها.

ثاني الأسس، وهو استطراد للأساس الأول، أن المصالح الأميركية هي التي صارت، منذ إنتهاء الحرب الباردة لصالح الإدارات الأميركية، ترسم سياسات إسرائيل، وليس العكس الذي ما زال يستقرّ في أذهان عدد من الفلسطينيين. فإسرائيل في رؤية كاتب هذه السطور لوضعها هي مجرد برغي هام في الماكينة الإمبريالية التي تقودها الولايات المتحدة؛ أو لأقل إنه برغي يُذكر بدور القاتل الماجور الكفؤ وقليل الكلفة الذي يخدم الماكينة. ولأن هذا البرغي هام بخدماته للماكينة، فقد تدرجت الإدارات الأميركية المتعاقبة في مكافأته، فسمّته تابعاً ثم شريكاً ثم حليفاً إستراتيجياً لها. أمّا الماكينة الإمبريالية ذاتها فيديرها من يمثلون مصالح الإمبرياليّة الأميركية في الإدارات المتعاقبة. وفي هذا ما يعزّز الرأي الذي يتبناه كاتب هذه السطور، الرأي الذي يؤكد أن إدارات الولايات المتحدة، هي والخاضعين لها وأتباعها في البلدان العربية ،هم الذين يقفون، منفردين ومجتمعين، حجر عثرةٍ رئيساً في مواجهة السعي الفلسطيني الى تأسيس دولة محترمة ذات سيادة كاملة على أرض فلسطين. وهناك كثيرون، كاتب هذه السطور واحد منهم، يرون أن الإدارة الأميركية، خصوصاً في عهد ترامب، هي

التي ضغطت على حلفائها وأتباعها العرب وغير العرب ليوائموا سياساتهم مع سياستها هي، الى أن تتلاشى المطاليب الفلسطينية او يُستكمل تاسيس الأمر الواقع المتحقق على الأرض فيحول دون تطبيق قرارات الشرعية الدولية، التي قبلتها القيادة الفلسطينية ورفضها حكام إسرائيل من بن غوريون الى نتنياهو.

وثالث الاسس تجسّد في أن حكام إسرائيل الصهيونيين، على إختلاف أحزابهم وتنوّع التسميات التي أطلقت على هذه الأحزاب، هؤلاء جميعهم بغير إستثناء، يعلمون أن ممارساتهم المستمرة ضدّ الشعب الفلسطيني لن تصير مقبولة من أي طرف نزيه في هذا العالم، لأنّ في هذه الممارسات ما يخالف كل قانون محلّي في أي بلد، وفيها ما يجافي القانون الدولي وقرارات الشرعية الدولية وقيم البشرية المعاصرة، المخالفة والمجافاة اللتان يعرفهما كل صهيوني. لهذا لم يأبه هؤلاء لأيّ موْقفْ سوى الموقف الذي يفرض ذاته بالقوة المهيمنة على العالم الإمبريالي كُلّه، قوة بريطانيا وفرنسا حين كانت هاتان الدولتان هما المهيمنتين وقوة الولايات المتحدة الأميركية بعد ذلك. أما مواجهة تأثير المصالح غير المواتية لتحقيق مشروع التوسع الإسرائيلي فحكام إسرائيل الصهيونيون مارسوا، كلّهم بغير إستثناء أيضاً، تكتيكات تضليل ومخادعة انتحلوها ممّا مارسه حكام الامبراطوريتين البريطانية والفرنسية، وطوّروها لتصير أكثر مواءمة لإسرائيل، ثم ممّا مارسه نظراؤهم في الإدارات الأميركية، منذ كرّست إدارة وودور ويلسون فك العزلة القارية الأميركية. ولأن حكام إسرائيل يشهدون بأمّهات أعينهم كيف يؤثر الرأي العام في دول الاتحاد الأوروبي على حكام هذه الدول، كما يشهدون إيضا كيف لا يؤثر الرأي العام الأميركي على حكامه، فإنها، إسرائيل، جارت الحكام الأميركيين في الإستهانة بالرأي العام الإسرائيلي وكذلك الأميركي، ومارست ما في وسعها لتضليل وتحويل غالبيتيهما الكبيرتين الى مؤيدين للصهيونية أو ما ماثلها من الآخرين.

رابع هذه الأسس، مما لا تقلّ أهميته عن الأسس الثلاثة السابقة، أن اتفاق أوسلو أعتُبر من قبل التابعين للإدارات الأميركية من العرب وغير العرب على أنه إجازةٌ تبيح لهم أن يهرولوا هرولة ويجروا جرياً في ميدان تطبيع علاقات دولهم مع إسرائيل، أي في ميدان خدمة

الأهداف التوسّعية لحكام إسرائيل. بدأ تطبيع العلاقات سريا قبل اتفاق أوسلو بسنوات كثيرة، وصار علنيا بعد أوسلو. ولم يتورع حكام التبعية العرب عن ترويج مزاعمهم الكثيرة التي أُورد أعلاه بعضها، مثل هذا التطبيع هو ما شجع حكام إسرائيل الصهيونيين على الجهر ببعض مضمرهم التوسّعي.

خامس الأسس التي أمهد بتعدادها لأبْسطَ إجابتي على سؤال الأسئلة الذي أوردته في بداية هذا المقال، أن إسرائيل لم تتورّع ولا تتورع الآن ولن تتورع في المستقبل عن إلحاق أذاها بمن قدّموا لها أجل الخدمات. فقد قلبت إسرائيل ظهر المجنّ لبريطانيا، ثم لفرنسا بعد كل الخدمات التي قدمتهما هاتان الدولتان لها؛ الم تقدّم لها بريطانيا وعد بلفور، والكثير مما ماثله في مجال دعم المشروع الصهيوني؟ الم تقدّم لها فرنسا الوسائل كلها التي مكنتها من إنتاج ما يكفي من القنابل الذرية لتدمير المدن العربية كلها؟ وإذا كان الدعم الأميركي، خصوصاً في عهد إدارة دونالد ترامب، هو الذي أجاز لإسرائيل أن تضم القدس الفلسطينية ومحيطها الفلسطيني كلّه، فمن الذي سيلجم إسرائيل عن قلب ظهر المجنّ للولايات المتحدة؟ الا تقوم إسرائيل الآن بتنويع علاقاتها بالتقرّب من دول مثل روسيا والهند والصين.. الخ. أي بالدول التي قد تشكل في المستقبل المحور الوحيد القادر على مناوأة الإدارة الأميركية؟ ألا يُشير سلوك إسرائيل هذا الى إستعداد إسرائيل لقلب ظهر المجنّ لحاميتها الأميركية؟ وممّا لا يندرج إلا في باب السذاجة ولا يرد إلا في معرض تسويغ التبعيّة الكاملة للإدارة الأميركية أن يظنّ حكام الأنظمة التابعة، خصوصا أولئك منهم الذين يشتطون في الجري لممالئة إسرائيل، أنّهم سيكونون مستثنين من إعتياد إسرائيل قلب ظهر المجنّ لمن وفّروا لها أجل الخدمات. وما يجري الآن من قبل حكام إسرائيل الصهونيين ضد المملكة الأردنية، لمجرد أن سلطاتها اتخذت موقفاً ينتقد صفقة القرن الترامبية ويعارض ضمّ إسرائيل منطقة الغور الفلسطيني، يوفّر العبرة اللازمة لمن هو مؤهل للاستفادة من العبر ساطعة الدلالات.

سادس الأسس أن إسرائيل ألِفتْ التصرّف منذ تأسيس الحركة الصهيونية، الذي تُوّج بتأسيسها هي ذاتها في العام ١٩٤٨، أن يُواجه تحقيق مشروعها الإستيطاني بمقاومة شعب

فلسطين وعرب آخرين له، وأن يتكبد يهودها خسران عدد من الضحايا. ومنذ إبرام اتفاق أوسلو الذي سبقته إنتفاضة فلسطينية استمرت من أواخر العام ١٩٨٧ الى أواسط العام ١٩٩٣، أدارت إسرائيل الصراع دون ان تعبأ بحقيقة أن من بين ضحاياه يهوداً إسرائيليين وغير إسرائيليين، ودون أن تتوقف عن إجراءاتها التي تحفز الجانب الفلسطيني على تشديد مقاومته لها وزيادة عدد الضحايا، وبضمنهم زيادة عدد ضحاياه من اليهود. ولكي تحصن إسرائيل ذاتها ضد الرضوخ لأيّ ضغوط تنصبّ عليها من الفلسطينيين ومن أيّ عرب آخرين، إسرائيل هذه أسهمت بدور حاسم الأهمية في فصل قطاع غزة عن الضفة الفلسطينية، واستكملت بناء الوضع الذي يخسر الجانب الفلسطيني فيه إن اعتدل وإن تطرف، إن مارس الكفاح المسلح وإن كفّ عن ممارسته، إن استمر في العمليات الاستشهادية وإن نبذها، وإن استمر في الإلتزامات التي فرضها عليه اتفاق أوسلو وإن نبذها، وإن ألزمت إسرائيل ذاتها ما يفرضه عليها هذا الاتفاق وإن تنصلت من أي التزامات .. إلخ.

وبالعودة الى السؤال الذي طرح منذ البداية، أود أن استطرد في التمهيد لإجابتي عليه بالتذكير بحقيقة يعرفها من ألمّوا بتجارب ثورات التحرر الوطني في البلدان التي تعرضت للاستعمار، خصوصا الإستعمار الإستيطاني. فهذه الحقيقة تؤكد عبرة أساسية هي هذه : «ليس كلّ ما يرسمه أو يتمنّاه مستعمرو الأوطان قابلاً للتحقيق». ولو لم تكن هذه الحقيقة شديدة الرسوخ لما تحرر أي وطن في العالم من الإستعمار.

مؤخراً أعلن رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، رئيس دولة فلسطين، وهو الذي وقع بإمضائه على اتفاق أوسلو، أن فلسطين صارت في حل من أي التزام أوجبه هذا الاتفاق عليها، كما أعلن أن فلسطين في حل من أي تفاهمات عقدتها القيادة الفلسطينية مع الإدارة الأميركية. وبهذا، نفذ الرئيس الفلسطيني ما تراكم من قرارات أصدرتها مؤسسات م.ت.ف. المجلسان الوطني والمركزي وغيرهما، ومؤسسات «فتح» ، فصيل م.ت.ف الأكبر، اللجنة المركزية والمجلس الثوري الذي يهتدي بتوصيات هذه اللجنة، وغيرهما.

كاتب هذه السطور واحد من كثيرين يعتقدون ان هذا القرار وما يترتب عليه من إجراءات

ليسا كافيين للجم حكومة بنيامين نتنياهو الأخيرة عن تنفيذ ما ورد في برنامجها عن ضمّ أراضي فلسطينية أخرى، ناهيكم بالنوايا المضمرة التي لم ترد في برنامج هذه الحكومة. وما زال مطلوبا من الجانب الفلسطيني الذي نبذ أيّ أوهام سابقة أن يُرمّم أي مظهر من مظاهر ضعفه التي سببتها سياسة إسرائيل، خصوصاً في السنوات الأخيرة التي ظل فيها اتفاق أسلو قائما.

ترميم مظاهر الخراب في الساحة الفلسطينية يوجب إتباع سياسة ناجعة تحمي القرار الشجاع الذي اتخذه الرئيس محمود عباس وتحصّن الجانب الفلسطيني من أي أوهام أو رهانات خاسرة في المستقبل. وهذا الترميم المطلوب بشكل سريع هو المرشح لاستنهاض معارضة فلسطينية حاسمة لما تعدّه حكومة إسرائيل. كما أن هذا الترميم هو المرشح للجم الجري العربي نحو إسرائيل، وهو المرشح لاستنهاض معارضة عالمية لسياسة إسرائيل التوسّعية، المعارضة التي يتوالى التعبير عنها منذ أعلن نتنياهو برنامج حكومته الجديدة ومنذ أعلن الرئيس الفلسطيني أن فلسطين صارت في حل من التزامات أوسلو.

إذاً، يوجد الآن ما يشير الى ان ضمّ الغور الفلسطيني إلى إسرائيل قد لا يتحقق. غير ان منع إسرائيل من تحقيق ما أعلنه برنامج حكومتها يقتضي إحداث تبدل جوهري في السياسة الفلسطينية الراهنة. وهذا التبدل يبدأ، نعم، يبدأ بإلغاء الانقسام الفلسطيني القائم حتى الآن بين الضفة الفلسطينية وبين قطاع غزة. وبأخذ عبرة ما جرى من محاولات إلغاء هذا الانقسام، لا بدّ من اتفاق جانبيه، «فتح» و «حماس» على برنامج مشترك، ولا بد من نبذ المحاولات السيزيفية لإرغام كل طرف الطرف الآخر على الانجرار الى برنامج هذا الطرف الآخر.

كاتب هذه السطور يقترح، مما يسّهل التوصل الى برنامج مشترك، أن يُنصّ في هذا البرنامج ذاته على أن كلّ إنجاز يتم تحقيقه من خلال الكفاح الموحّد سوف يفضي إلى تطوير أهداف ووسائل هذا الكفاح الموحد. تبدّل آخر سيحفز عليه إنهاء الانقسام هو التبدل المطلوب لإلغاء سياسة التعويل على عرب التبعية للإدارات الأميركية، وذلك دون معاداة هؤلاء العرب

ودون إستفزازهم، واستبدال هذا التعويل بالتحالف، أو بتعزيز التحالف مع القوى المحلية والعربية والإقليمية والعالمية التي تناوئ سياسة الولايات المتحدة الأميركية، سياستها المعلنة والمضمرة على حد سواء.

ولا غنى، بعد تبديل السياسة الراهنة، عن استكمال الإجراءات التي يفرضها هذا التبديل.

صفقة القرن ... بين الحق التاريخي والحق المتاح

شذى يحيى*

«إن الماضي القريب يحتوي على مفتاح الوقت الحاضر ،وكل أشكال التأثير تمر علينا كل في دوره ،وعلينا أن نصف التيارات المتحكمة وأن نفسر القوى الحاكمة التي لاتزال تقود العالم وتقسمه»

لورد آكتون – ناشر تاريخ كمبريدج الحديث ١٩١٨م

«كل الشعر ،كل لوحات الكتاب المقدس موجودة هناك كل إسم ينطوي على لغز، كل كهف يعلن المستقبل، وكل قمة تردد صدى بنبرات نبي، الله نفسه تكلم على هذه الضفاف، ومخرات السيول التي جفت والصخور المفلوقةوالقبور المفتوحة قليلاً إنما تشهد على المعجزة، الصحراء ماتزال خرساء من الرهبة ويمكن القول إنها لم تجرؤ على قطع صمتها مذ سمعت صوت الحي القيوم»

شتوبريان – رحلة من باريس لأورشليم

مثل شجرة زيتون اقتلعت من مزرعة فلسطيني عجوز رفض النزوح عن أرضه تعلقت جثة الشاب الغزاوي محمد الناعم في فك الجرافة الإسرائيلية بالقرب من سياج العزل

---

* باحثة من مصر

في خان يونس ،في مشهد لخص مأساة الفلسطينيين المحبوسين خلف قضبان قفص كبير يفصلهم عن أبسط مقومات الحياة الإنسانية ،هذه اللحظات التي تعلق فيها جثمان الناعم في فك الجرافة لخصت أيضاً مستقبل الفلسطينيين الذي يراد لهم بعد صفقة القرن التي أعلن عنها ترامب وصهره كوشنر كرؤية للحل في الشرق الأوسط ،إما أن تقتلع من أرضك أو تحبس في سجنك أو تموت وأنت تحاول الخروج منه ولتذهب كل شعارات التحضر والمساواة وحقوق الإنسان للجحيم فهي لم تخلق للمستضعفين كل المستضعفين وليس الفلسطينيين فقط .

«أن تطلب الحرية لنفسك وتنكرها على غيرك ،هذا هو تعريف الإستبداد»

لابولاي - ٤ديسمبر ١٨٧٤م

نفس الإستبداد الذي تعرض له محمد الناعم هو الإستبداد الذي أودى بحياة جورج فلويد تحت ركبة شرطي أبيض في مينيابوليس بالولايات المتحدة بعد إستشهاد الناعم بشهور قليلة ،وكما لم تكن حياة فقير أسود في الولايات المتحدة لاتساوي عشرين دولاراً فإن حياة الناعم لم تكن لتساوي ما هو أقل من ذلك في فلسطين .

وكما رفع ترامب الإنجيل أمام كنيسة سانت جون في واشنطن ليذكر الإنجيليين بأنه مبعوث السماء لحماية حضارتهم ،يرفع الصهاينة كل ما يثبت أنهم كهنة الرب والشعب المختار أمام الغرب ليذكروه بأنهم حماة الحضارة الغربية في شرق مليء بالمتوحشين الساعين لتدميرها .

في قصته المحاسب الأعظم رأى ديستوفسكي أن ما يحافظ على تماسك المجتمعات القديمة هو نفسه ما ينطبق عليه مفهوم إغراءات الشيطان التي يقدمها للبشر أي المعجزة الغموض والسلطة ،وأن فكرة رجل حر وعقل حر في مجتمع مفتوح هي روح الحضارة الغربية الحديثة ،من نفس وجهة النظر ظلت فكرة الدول القومية هي بمثابة الإحياء لقاعدة الشيطان أمام الفكر الغربي الذي من المفترض أنه يرفض وحدة الدم والعقيدة كأساس للحياة الثقافية والسياسية ،كما يرفض

الإعتقاد أن المجتمع القائم على الجنس والدين أو أحدهما هو مركبة الخلاص ،من المفترض بهذا المقياس أن يرفض الغرب الحركة الصهيونية إعتباراً أنها أنشأت دولة إسرائيل وهي مجتمع قائم على الدين أي ينتمي لهذا النوع الشيطاني للقوميات ،لكن إسرائيل استطاعت أن تقدم نفسها للعالم على أنها مجتمع غربي ومتحضر على عكس القومية العربية التي تمثل من وجهة نظر الغرب كل ماهو متخلف وديكتاتوري وهمجي .فما هو الفرق إذن ؟!!

منذ بداية حراك اليهود نحو ما أسموه بالأرض المقدسة إختار اليهود بأغلبيتهم تعريف نفسهم ضمنياً بإعتبارهم شعب تتضمن هويته مكونات قومية سياسية وأرضية بالإضافة إلى روابط حركة تسمى الصهيونية ،هم يرون أنفسهم جزءاً من أمة أو شعب يمثل أرضاً (إيريتز إسرائيل) أرض إسرائيل .

بالطبع يرفض العرب ذلك ،ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية في مادته العشرين ينفي هذه المسألة ويؤكد على أنها لا تتماشى مع حقائق التاريخ والمفهوم الحقيقي لما تعنيه الدولة ، «فاليهوديه بإعتبارها ديناً لا تمثل جنسية مستقلة واليهود لا يشكلون أمة واحدة لها هوية ذاتية».

أما عن تعريف العرب في المراجع الغربية والفلسطينيين من ضمن «أنهم جماعة عرقية قومية لها أصول وجذور ثقافية ولغوية مشتركة ترجع للقبائل القديمة في شبه الجزيرة العربية» ،وبقدر ما يرفض الفلسطينيون الهوية الإسرائيلية يرفض الإسرائيليين أي تشكيك أو فصل للهوية الفلسطينية عن هذا التعريف ، بالطبع فإن الأمر يتعلق بأنه إذا قبلوا التشكيك فيه فإنهم سيكونون مجبرين على تحمل المشكلة الفلسطينية وحدهم وهو ما يتنصلون منه ويرفضوه رفضاً باتاً بل ينظرون للفلسطينيين على أنهم مجرد فصل طائش في تاريخ فلسطين التاريخية ، الصهاينة يتصرفون في نطاق مقاربة كلية للعالم العربي يرون فيها أن العرب في عمومهم يشكلون شعباً محدداً على غرار الشعب اليهودي ،وأن حل المسألة العربية وليس الفلسطينية يتحقق بالتفاهم بين

الشعب اليهودي والشعب العربي بجملته ولا وجود للشعب الفلسطيني كان هذا منطق محاولاتهم التفاوضية مع الهاشميين والقوميين السوريين غداة الحرب الأولى ومازال هذا منطقهم حتى لحظتنا هذه ،فدائماً وعلى مدار عقود ورغم اختلاف الوجوه دائماً ما صرح المفاوضون الصهاينة لنظائرهم العرب أن سكان فلسطين كجماعة على حدة لابد من التضحية بجانب من مصالحهم حتى يعيش الجميع في سلام وازدهار .

في العموم تاريخ فلسطين المعاصر وتاريخ الاستعمار الصهيوني أو مايسمى «بالمقام الوطني اليهودي في أرض إسرائيل» هو موضوع شائك يتعلق بأحقية الوجود للأطراف المباشرة للصراع ،وأيضاً بحجم الرهانات الأيدولوجية والصراعات التاريخية والنزاعات على مفاهيم مثل «الأرض المقدسة – المسألة اليهودية – الهولوكست – الإمبريالية – الإستعمار – مابعد الكولونيالية – الإسلام السياسي « ،والتي امتدت منذ منتصف القرن التاسع عشر وكانت على استحياء حتى أصبحت تشكل مشكلة عالمية تؤرق العالم في القرن العشرين والقرن الواحد والعشرين ، فالصراع المستمر على تلك الرقعة الصغيرة والضيقة من الأرض والتي هي عملياً أصغر من أغلب الولايات الأميركية من الأهمية بحيث أن تداخلاته هي الأكثر تعقيداً وتلخيصاً لكل النزاعات والصراعات التي دارت في التاريخ المعاصر ، تاريخ العالم العربي وتاريخ العرق اليهودي وتاريخ الإمبراطورية البريطانية وصراع القوى الأوروبية وحتى ماتلاها من حروب الوريث الإمبريالي الأميركي انصهر في هذه البوتقة.

إختراع الأرض المقدسة في القرن التاسع عشر خير مثال لاختراع التراث ، وللعولمة هذا التاريخ الطويل بدءاً من حروب المغول واكتشاف الأميركتين ورحلة ماجلان حتى ثورة المواصلات والإتصالات وإختراع آلة البخار وإفتتاح قناة السويس ،هنا جرى ربط فلسطين وفي نفس اللحظة بدأ الإعداد لإختراع الأرض المقدسة بالمواكبة لصعود النزعات القومية في مختلف أرجاء العالم ،ففي كتابه المبكر جداً «روما والقدس» الذي صدر في العام١٨٦٢م وضع موزس هيس الأسس والقواعد التي سارت عليها

الحركة الصهيونية في ارتباطها بالغرب ،موزس كان يرى أن «اليهود هم جماعة وظيفية يجب إعادة إنتاجهم على هيئة شعب عضوي ليتلاءم مع المشروع الغربي ووضع حجر الأساس لأن تكون القومية العضوية للشعب اليهودي أسبق من الدين ،فالشعب هو المركز الوحيد للحلول (التقديس) وبطرح المشكلة بهذا الشكل يخلق الحل وهو نقل الشعب اليهودي إلى الشرق لخدمة المصالح الغربية « ،وبهذا أصبح لهذا الشعب وظيفة في النظام العالمي حيث سيذهب اليهود لأرض أجدادهم داخل إطار الحضارة الغربية لتحقيق الحلم الغربي شريطة أن يبقى اليهود الذين استطاعوا التأقلم مع مجتمعاتهم الأصلية للتلاحم مع المجتمع الغربي وخدمة مجتمعاتهم هناك ،هس تجاهل تماماًالحديث عن الفلسطينيين الموجودين فعلياً على الأرض في تلك الفترة كل ما ذكره عنهم هو جلب اليهود للقيم الغربية وللحضارة للعرب المتخلفين وصورة رومانتيكية عن كيفية أن هذا الطرح سيجعل القرآن والإنجيل يتحلقان حول التوراة ،إبراهام جاجر المفكر اليهودي وصف هذا الكتاب بأنه ليس مجرد رؤية لولادة عصر جديد بل هو قبر مفتوح لدفن عصر مضى ، وتبنى اللورد شافتسبري الرؤية التي كانت تخدم مصالح الإمبراطورية البريطانية من وجهة نظره وأطلق جملته الشهيرة « الأرض القديمة للشعوب القديمة «.

من البداية الأولى لقصة الأرض المقدسة كان الهدف هو إخلاء الأرض من سكانها والتصرف على أنهم غير موجودين أو أن وجودهم واقع مزعج لابد من التخلص منه أو على الأقل تحجيمه ، فالتحرير الذاتي الذي ارتأته الصهيونية كأساس لإنشاء دولتها بالعودة الجغرافية إلى الشرق كان يترافق مع رغبة في أن يكون وطن العودة الجغرافية إلى الشرق رغم موقعه الجغرافي غربياً ،لهذا كان من الطبيعي أن يتبنى المهاجرون اليهود نفس الخطاب الإمبريالي الإستعماري فيما يختص بأهل البلاد الأصليين ليتحول الصراع إلى صراع بين القوميتين العربية واليهودية بمثابة المرآة التي تعكس صراع الحضارات حتى اللحظة الطرح كله كان يصب على التخلص من الفلسطينيين.

ليون موتزكين في المؤتمر الصهيوني الثاني في العام ١٨٩٨م تحدث عن واقع مزعج تشكله كثافة مهمة لجماعة سكانية عربية تحوز الجانب الأعظم من الأراضي الخصبة ،وفي رواية هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية «تل الربيع « والتي كتبها العام ١٩٠٢م وأطلق إسمها على العاصمة الإسرائيلية « تل أبيب» تخيل هرتزل أن اليهود صنعوا في فلسطين مجتمعاً نموذجياً قائماً على نظام التعاون وأن اليهود والعرب يعيشون في انسجام ،والعرب الذين ذكروا في سبع صفحات من الرواية البالغ عدد صفحاتها ٣٠٠ صفحة يهنئون أنفسهم على الوجود الإسرائيلي الذي عاد عليهم بالثراء ، ربما ينطبق ذلك الآن على المشاريع المشتركة بين دول الجوار التي كانت مواجهة سابقاً وبعض دول الخليج مع إسرائيل برعاية غربية إضافة لبعض اللقيمات التي وفقاً لإتفاق القرن ستلقى لفلسطيني ١٩٤٨م لتحسين أوضاعهم ، في الرواية وصف هرتزل الفلسطينيين على أنهم مسلمون لابد لهم من الإندماج على أساس فردي مع مجتمع أغلبيته يهود يتمتعون بالمساواة وليس لهم أية حقوق جماعية أو قومية ، وللحق فإن ورثة هرتزل الحاليين مخلصين تماماً لرؤيته.

على نفس النهج نشر أوسيشكين في العام ١٩٠٤م «كراسة برنامجنا» التي تنص على أنه يجب وضع العمل السياسي والعمل الثقافي على مستوى واحد مع إخضاعهما معاً لهدف الإستيلاء على الأرض : «كيما يتسنى إنشاء دولة يهودية في بلد إسرائيل من الضروري بصورة مطلقة في المقام الأول أن تكون أرض فلسطين أو على الأقل جلها ملكاً للشعب اليهودي ،فإذا لم نصبح ملاكاً للأرض فلن تكون فلسطين يهودية أبداً ،أياً كانت ضخامة عدد اليهود في المدن أو في القرى ،ويتوجب بصورة مطلقة نزع ملكية الملاك الحاليين للأرض «.

وفي المؤتمر الصهيوني الذي عقد بنيويورك في مايو١٩٤٢م بلور سيلفر أبا هيليل رؤية الأرض المقدسة كما يراها الصهاينة أكثر بقوله «لن نتمكن من إنقاذ يهود أوروبا مالم تكن هناك هجرة حرة لفلسطين ،ولن نحصل على هجرة حرة لفلسطين مالم يتم

الإعتراف بحقوقنا السياسية هنالك ،ولن يعترف بحقوقنا مالم يتم الإعتراف بصلتنا التاريخية بهذا البلد والتأكيد على حقنا في إعادة بناء وطن قومي وكل هذه السلسلة سينفرط عقدها إذا فقدت حلقة واحدة «.

كانت أربعينات القرن العشرين بداية اضطهاد هتلر لليهود وظهور الأخبار الأولى عن المحرقة ،أو الذنب الأول كما أسماها إميل حبيبي الذي خاطب الصهاينة يوماً بقوله «إن لم يكن من أجل محرقتكم فإن الكارثة التي مازالت من نصيب شعبي ماكانت لتحدث» ،حبيبي كان مصيباً في جزء من كلامه ولكن ليس كل الصواب ،فإنه بالنسبة للفلسطينيين فإن القبول بآلام اليهود حول المحرقة هو قبول للأساس المعنوي لإنشاء دولة إسرائيل ،كما أنه بالنسبة للصهاينة فإن الإعتراف بمأساة اللاجئين هو قبول بالمسؤولية عن ما جرى للشعب الفلسطيني والقبول بحق العودة أي إنهيار الأساس الذي قامت عليه دولتهم ، لكن لم يكن الأمر يختص بتعويض اليهود عن الإضطهاد فقط بل كما ذكرنا في السابق كانت المصالح الإستعمارية هي المحرك الأساس لدعم كل الأطراف الغربية لإنشاء إسرائيل ،فالمشروع الصهيوني الموظف أساساً لخدمة الغرب كان مستحيلاً دون الأرض المقدسة وهنا تكمن العقدة التي جعلت إسرائيل لاتملك أن تتنازل ولو جزئياًعن مطالبها في الحرم القدسي ولا في القدس ،المزج في الخلط مابين القومي والديني عند الصهاينة هو الأساس ،وهذا المزج نفسه يتكرر عند الفلسطينيين ،وإضافة للنزعة الإنجيلية التوراتية عند الأميركيين يجعل المعادلة دائماً تميل لصالح مكسب الصهاينة وخسارة الفلسطينيين طالما بقيت أسطورة أرض الميعاد وجبل الهيكل وشعب إسرائيل هي أساس قيام الدولة الصهيونية.

الصراع العربي الإسرائيلي على مر العقود لم يكن أبداً مجرد مواجهات عسكرية وخلاف على أرض ومصالح بين دول وجماعات بل هو بمثابة جرح نازف بين قوميتين أحدهما عربية والأخرى يهودية مدعومة بإنحيازات قوى أخرى ،وكما يقول اللورد أكتون فإن «التاريخ العالمي هو ذلك الذي يتميز عن التاريخ المشترك لجميع الأمم وهو ليس جبلاً

من الرمل ،وإنما هو تطور مستمر ،وهو ليس عبئاً على الذاكرة ،ولكنه إضاءة للروح ،وهو يتحرك في تتابع تشارك فيه كل الأمم كعوامل ثانوية ،وقد تبرز فيه حيناً قصة حياتها لا من أجلها بالذات وإنما تتبعاً لتسلسل أسمى ،وما يقتضيه الزمان والعمق اللذان ساهمت بهما في تقرير المصير المشترك للنوع الإنساني»، والتاريخ هنا هو تاريخ النزعتين القوميتين اليهودية والعربية فالحقبة الزمنية لتطور النزعة القومية اليهودية يتوافق مع الحقبة الزمنية لإنبثاق الحركة القومية العربية كلا الحركتين قامتا على نفس الخلفية كنتاج لخلخلة وللإطاحة بالنظم السياسية القديمة على أثر تحولات أعادت صياغة العالم بدأت في أوروبا الغربية منذ نهايات القرن التاسع عشر ،كلا المجتمعين اليهودي والعربي كانا مجتمعين خارج إطار المركز لكن تحولات المركز أثرت عليهما من حيث الانتقال من الأنظمة الإستبدادية لشكل من التنظيم الإجتماعي الأكثر مساواة .

ففي نفس التوقيت الذي انطلقت فيه النزعة القومية اليهودية في أوروبا الشرقية من منطق اليقظة والتأكيد على الهوية ،كان عرب ولايات الشرق الأدنى العثمانية يتوصلون إلى كسب الوعي القومي ضمن سيرورة أليمة عبر الكفاح من أجل الإنفصال عن الدولة العثمانية وبدأ الصراع الفعلي بين النزعتين القوميتين العربية واليهودية على أرض فلسطين يأخذ شكلاً جدياً بدءاً من العام ١٩٠٨م ، وكان الأمر أكثر صعوبه عند االفلسطينيين منه عند اليهود ،فرغم الصراعات وحملات الإضطهاد المنظمة ضدهم في أوروبا الشرقية فإنهم لم يواجهوا ما واجهه الفلسطينيون حيث وصف الرحالة الذين زاروا فلسطين في فترة إنهيار السلطة العثمانية بأنها خراب كبير.

«ما كاد الباشا يختفي حتى بدا شر آخر مترتب على ما مارسه من إضطهاد فالقرى الخربة تنتفض ويهاجم بعضها البعض لممارسة الثارات الوراثية ،ويجري قطع كل سبل المواصلات فتهلك الزراعة وخلال الليل يخرج الفلاح لكي يتلف كرمة عدوه ويقطع

شجرة زيتونه ،ويرجع الباشا في العام التالي فيطالب بالإتاوة نفسها في بلد تضاءل سكانه ،ولابد له من مضاعفة ما يمارسه من اضطهاد وان يقضي على جماعة سكانية بأكملها ، وشيئاً فشيئاً تتسع الصحراء ولا نعود نرى من حين لآخر غير أكواخ خربة وعلى مداخل هذه الأكواخ جبانات متزايدة دوماً ..... وسرعان ما لا يبقى سوى الجبانة التي تصبح شاهداً على المكان الذي توجد به القرية»

شاتوبريان – رحلة من باريس إلى أورشليم

كان هذا الحال في القرى الفلسطينية حال يغفله التاريخ ويستغله اليهود في إثبات أن الأرض كانت بلا شعب ،صحراء جرداء وأنهم هم من عمروا هذه الصحراء وحولوها لمدن وغابات وحقول ، التاريخ الفلسطيني المهمل والمخفي أو على الأقل الذي عتم عليه على الأقل في الغرب في خضم الحديث المأساوي عن التاريخ اليهودي المعاصر وكيف حول اليهود الإضطهاد إلى مجد يغفل أن المنتصر حور التاريخ ليغفل أنه بنى مجده على حساب شعب مضطهد بزيادة إضطهاده ،وبالرغم من هذه المأساه فإن المقاربات التاريخية في تلك الفترة كانت تظهر أن الفلسطينيين كانوا الأكثر وعياً بهويتهم القومية في العشرينات من كل جيرانهم ومع ذلك فقد استطاع جميع الجيران الخارجين من ربقة الدولة العثمانية تحقيق قوميتهم ربما بإستثناء الكرد إلا الفلسطينيين حتى يهود اليشوف فعلوها وأنشأوا كيانهم القومي بينما لم يستطع الفلسطينيون ذلك .

بعد هزيمة العثمانيين ودخول الإنجليز إلى القدس بدأت الحياة السياسية العربية الفلسطينية تصاغ في المدن ومنذ العام١٩١٨م تركزت هذه الحياة حول جمعيات إسلامية – مسيحية تضم الأعيان من جميع المدن والأندية السياسية للشبيبة المتعلمة ، كانت سمة الإتحاد بين الفريقين هو الرفض التام لتصريح بلفور ،أما الخلاف فقد كان الأعيان من أمثال موسى كاظم الحسيني يميلون إلى هوية فلسطينية بشكل من كيان عربي بينما ينحاز الشباب لفكرة إقليم سوريا الجنوبية ،وقد توصل الفريقان لصيغة توفيقية تعرف نفسها بأنها «هوية فلسطينية عربية» ،بالطبع أسرع البريطانيون

بالتدخل لإجهاض أي سعي نحو تحقيق هذه الهوية على الأرض بالتسريع في التصديق على ميثاق الإنتداب العام ١٩٢٢م ،والذي استمد أسسه من إعلان بلفور ليصبح بوسع البريطانيين تثبيت فرضية أن الأمر الواقع سيفرض نفسه على السكان العرب في عالم يعاد بناؤه وفق صورة العولمة الأولى التي كانت لاحقة على العام١٩١٤م بداية الحرب العالمية الأولى.

ويثور تساؤل ماذا كان موقف القوميين العرب والسوريين من الخطر الصهيوني والإستيطان؟! على ما يبدو أن القوميين العرب كانوا لا يمانعون كثيراً في الإستيطان اليهودي ،بل كانوا لا يخفون إعجابهم بالحركة الصهيونية الوليدة ،رشيد رضا كتب في مجلة المنار الصادرة في القاهرة العام١٨٩٨م عن ظهور الحركة الصهيونية والمشروع الصهيوني وتحدث عن رغبة اليهود في الإستقرار فيما أطلق عليه «أراضي الدولة العثمانية» ورأى في ذلك دليلاً على التفوق الأخلاقي للبلدان الإسلامية على الغرب ،وقد ذكر المؤرخ الفرنسي هنري لورنس في موسوعته مسألة فلسطين أن رشيد رضا لم يدِن أو يستخدم نبرة ضد الصهيونية بل أشاد بتضامن ونشاط اليهود وفسر الحركة الصهيونية بأنها حركة توحد المؤمنين بديانة واحدة في طموح سياسي مشترك ،أيضاً كان الوضع مماثلاً بالنسبة للقوميين المصريين اللذين نظموا مؤتمراً للمنفيين في أوروبا العام ١٩١٤م أشادوا فيه بالنموذج الصهيوني ،رشيد رضا نفسه فيما بعد سوف يحاول الإتفاق مع اليشوف بعد إنهيار الدولة العثمانية على الإعتراف بحقوق لهم في سوريا الجنوبية (فلسطين) في مقابل عدم الموافقة على مشروع قرار الإنتداب فيما يختص بسوريا ولبنان.

الغرابة أن قومياً آخر هو الماروني أدمون عازوري والذي كان موظفاً في سنجق القدس العثماني تم الإستغناء عن خدماته حذر بشدة من الخطر الصهيوني السابق ،وقد سافر إلى باريس والقاهرة حيث معاقل القوميين العرب الجدد ودعاة إحياء الخلافة والوحدة الإسلامية ولم يجد آذاناً صاغية منهم جميعاً ،دق عازوري أجراس الخطر

وكتب ملخصاً المشكلة بالتالي «إن ظاهرتين مهمتين لهما طبيعة واحدة ،وإن كانتا متعارضتين تتجليان في تركيا الآسيوية : وهما يقظة الأمة العربية وسعي اليهود الكامن إلى إعادة تكوين مملكة إسرائيل على نطاق واسع جداً ،ومآل هاتين الحركتين هو أن تتحاربا فيما بينهما بشكل متواصل وذلك إلى أن تغلب أحدهما الأخرى ،وعلى النتيجة النهائية لهذا الصراع بين شعبين يمثلان مبدأين متعارضين سوف يتوقف مصير العالم بأسره « ، وكأن عازوري هو الآخر من أصحاب النبوءات التي لطالما أنجبتهم أرض فلسطين تحقق كل حرف من كلامه.

بالطبع كان الأمر يختلف في داخل فلسطين عن بقية القوميين العرب فهم كانوا في قلب بؤرة الخطر، ولذلك وبعد إعلان عصبة الأمم فرض الإنتداب على فلسطين مباشرة، وجه عمر بيطار خطاباً لعصبة الأمم بإسم اللجنة التنفيذية فحواه أن قرارات الدول العظمى لو تعارضت مع حقوق الأمة الفلسطينية فلن يكون من شأنها سوى زيادة تمسكنا بهذه الحقوق التي لن نحيد عنها قيد شعرة ،وبمطالبنا القومية المتمثلة في حماية تراثنا الأدبي وممتلكاتنا وحريتنا الفردية إلى جانب وجودنا القومي».

كذلك توجه البيطار برسالة أخرى لجموع الشعب الفلسطيني قال فيها : «فليقف كل واحد منا بهذه المسؤولية في هذه الفترة الحرجة نازعاً من قلبه كل تردد ومؤمناً راسخ الإيمان بأن هذا البلد بلدنا وحدنا وبأن الإصرار هو الشيء الوحيد الذي من شأنه أن يحقق لهذه الأمة الإعتراف بحقوقها المهضومة» .

بقرار الإنتداب وقبله إعلان بلفور ١٩١٧م كان قرار قيام إسرائيل قد أصل له قانونياً ودولياً بعد أصل له شعبياً منذ منتصف القرن التاسع عشر ،وأصبح بوسع ديفيد بن جوريون ان يقف أمام حضور المؤتمر الأول لفلسطين العمالية والذي عقد في برلين العام١٩٣٠م ليتحدث عن مجتمع يهودي مختلف في فلسطين ،بل أن يتحدث عن فلسطين على أنها الموطن الأصلي وبقية العالم هو مهجر دياسبورا ، قال بن جوريون «لا أقصد أن اليشوف في بلد إسرائيل مماثل لجميع الطوائف اليهودية في العالم ،فهناك

إختلاف عميق – إقتصادي – إجتماعي – سياسي – وبشري ،والهيكل الإجتماعي والجوهر الثقافي للجماعة اليهودية الفلسطينية على حد سواء مختلفان عن الهياكل الإجتماعية والثقافية التي نجدها في الدياسبورا « ، التأصيل السياسي أصبح أيضاً له بعد إجتماعي وثقافي وبدأت ملامح مايسمى بالأمة اليهودية في أرض الميعاد بالتكون ، وبمجرد خروج هذه الدولة إلى الواقع الفعلي بدأت في التنصل من مشكلة الآخر الفلسطيني الذي أجبر على النزوح من أرضه في أواخر يوليو١٩٤٨م ، حيث كتب وزير خارجية الكيان الوليد موشيه شاريت لمفوض الأمم المتحدة الكونت فولك برنادوت موضحاً له موقف الحكومة الإسرائيلية من عودة اللاجئين العرب كتب شاريت قائلاً : « إن الهجرة الجماعية للفلسطينيين العرب بعد حرب ١٩٤٨م هي واحدة من الظواهر العنيفة التي وفقاً لخبرة الدول الأخرى غيرت مجرى التاريخ ..... وهذه النقطة ستكون وثيقة الصلة بالسؤال الخاص بهل وإلى أي مدى وتحت أية ظروف يمكن السماح للسكان العرب السابقين في إقليم إسرائيل بالعودة ،إن حكومة إسرائيل المؤقته مستعدة دائماً لمثل هذا السلام الشامل والدائم ولكنها تتمسك بأنه ليس من العدل أن يطلب منها أن تقوم بشكل منفرد وتدريجي بإجراءات السلام بينما الجانب الآخر مازال يميل للحرب «.

في العموم دائماً ماتبنى الطرف الإسرائيلي وجهة النظر التي تؤكد أنهم ضحايا الصراع ، ودائماً ما كانوا يشكلون الطرف الأكثر عقلانية في الصراع على فلسطين ،وما حركة المؤرخين الجدد في إسرائيل إلا بلورة لهذه الفكرة القديمة بالطبع في هذه الرواية يكون الفلسطينيون ليسوا فقط لا عقلانيين بل أيضاً لا أخلاقيين ، أما وجهة النظر الفلسطينية فترى اليهود قطعانا من شراذم الأرض ولصوص أراضي استغلوا حالة الضعف والتفتت التي نجمت عن الاحتلال العثماني واستقووا بالإمبرياليات المسيحية ليسلبوا أراضيهم ويطردوهم خارجها وأنه على العالم أن يفهم هذه الحقيقة وأن لهم حقوقاً لابد وأن يسترجعوها ، ومع هذا الميل من كل الأطراف لتحديد المذنبين والضحايا من وجهة نظر

كل طرف ومقتضيات مصالحه وتطلعاته أصبحت الحقائق والمدركات منذ العام١٩٤٩ جزءاً من القصص والروايات القومية المتضاربة للطرفين وشعورهم المتبادل بأن كلّا منهما هو الضحية ، وقد كان نصر إسرائيل العسكري لليهود بمثابة الإنعتاق والتحرر بعد سنوات الإضطهاد وبعد المحرقة ،وفي الوقت ذاته كان هذا النصر بمثابة النكبة التي أفقدت الفلسطينيين مقومات وجودهم قبل أن تفقدهم أملاكهم ، كلا الطرفين في روايته يشعر بأنه الضحية وهذا الشعور غير قابل حتى لمجرد تفهم دوافع الطرف الآخر لدى الطرف المعادي .

أما الوصاية العربية التي من المفترض أنها داعمة للطرح الفلسطيني في مقابل الطرح الصهيوني فهي كما رآها رشيد خالدي في كتابه الوكالة الخاسرة : «إذا ما تم الحديث عن الفلسطينيين على الإطلاق في المحافل الدولية فإن ذلك كان يتم من قبل الدول العربية ،وكل واحدة منها كان لها اعتباراتها وحساباتها وكلها كانت ضعيفة ..... ورغم ذلك اعتمدت كل جهود الفلسطينيين المحدودة في التعبير عن أنفسهم دولياً اعتمدت بشكل تام على تأييد الدول العربية» ، ماجعل إستعادة الدولة الفلسطينية ومشكلة عودة اللاجئين تقعان في شرك الدول العربية وحساباتها وتطلعاتها ، مالكولم كير المحلل السياسي البارز رأى أن السياسيين العرب والنظم العربيةفي الأعم استخدموا الموضوع الفلسطيني كمقياس اختبار لمدى قومية ووطنية مواقفهم ومدى استطاعتهم لتحقيق رغبتهم في زعامة الإقليم .

منذ هزيمة ١٩٦٧م تراجعت القضية الفلسطينية للوراء وبدأ التعامل معها كأمر ثانوي بالمقارنة للتغيرات التي حصلت في الصراع بين الدول وسادت فكرة أنه طالما لم تعد هناك حركة قومية فلسطينية لأنه لايوجد شعب فلسطيني منظم فإنه لاتوجد قضية فلسطينية بل قضية لاجئين في الخارج وأقلية في الداخل ،ربما كان الذين جاهروا بقناعتهم بحل الدولة الواحدة هم الأكثر صراحة وإتساقاً مع أنفسهم في هذا الشأن ،أيضاً الطرف الإسرائيلي كان صريحاً وواضحاً في أنه لن يتعامل مع هيئات أو منظمات

بل مع دول ذات سيادة تدخل في علاقات ثنائية مع الكيان الصهيوني وكانت هذه التسوية مريحة جداً للعديد من الأطراف ،أما عن مشكلة اللاجئين فقد اقتصر طرحها على المستوى الدولي في الإغاثة وإعادة التوطين والخدمات التي توفر لهم ، أما إسرائيل فمن وجهة نظرها أنها دائماً ورغم الخلاف العربي فتحت الفرصة للسلام ،وعلى حد قول أبا ايبان فإن « العرب لم يفقدوا أبداً الفرصة لفقد الفرصة «.

من الرؤية الإسرائيلية فإن القيادات الفلسطينية وبتشجيع عربي هي المسؤول الأول عن معاناة الشعب الفلسطيني وليست السياسات الإسرائيلية ،فالمعاناة عديمة الجدوى التي سببتها ومازالت تسببها القيادات والنخب الفلسطينية لشعبها وكل ما يواجهه هذا الشعب لهو نتاج مباشر لإستحواذ فكرة العدالة الكلية عليهم ،وعدم قدرتهم ولا شجاعتهم أو رغبتهم في قبول حل توفيقي تاريخي وحتمي تفرضه الظروف ولو كانت لديهم هذه الشجاعة لكانت لهم دولتهم الفلسطينية منذ ١٩٤٧م ،وأنهم لو كانوا بادلوا بحثهم غير الواقعي عن العدالة الكلية بحل وسط لكانوا منحوا لثلاثة أجيال من أبناء شعبهم مستقبلاً واعداً.

كثيرين إتفقوا مع هذا الرأي وقالوا أنه كان على القيادات التي عاصرت بدء النزاع السياسي القبول بإقتراح راغب نشاشيبي بقبول جزء من حقوق الفلسطينيين والتنازل عن بقية الحقوق والتعاون مع البريطانيين في إقامة مجلس تشريعي ووكالة فلسطينية على غرار الوكالة اليهودية ،الجميع يقول أن الفلسطينيين أخطأوا بطلب العدالة الكلية بدلاً من تلك العدالة التي يمكنهم الحصول عليها لذلك فإنهم فقدوا كل شيء في النهاية ،منازلهم وأراضيهم ووطنهم القومي ،وأنه بتجاهلهم للسياسة العملية والسماح فقط للأيدولوجيا والعواطف بتحديد سياساتهم وسلوكهم قد ضمنوا لأنفسهم الفشل ، الخلاصة وبوضوح أنه لكي يحصل الفلسطينيون على جزء من حقوقهم لابد من تقديم تنازلات عن حقوق أخرى ، هي نفسها الصورة التي لخصها ليفي أشكول بلغة بسيطة أنه للتخلص من الفلسطينيين لابد من التضحية عن جزء من الدوطه التي هي

هنا الأرض والإحتفاظ بالجزء الأهم والأكبر ،المشكلة بالطبع تكمن في أن الخطيبة الفلسطينية تطالب بكل دوطتهابينما أهلها من العرب سئموا ويبحثون عن مصالحهم والحكم في الخطبة وهو الدول الغربية ينحاز بكلية للخطيب الإسرائيلي ،وبالرغم من ذلك ففي أوسلوا إضطر المفاوض الفلسطيني للتخلي قسراً عن ٧٨٪ مما هو حقهم ومع ذلك لم يرض هذا الخطيب الإسرائيلي الجشع .

أحد مستشاري عرفات في مفاوضات أوسلوا قال يوماً أنه حتى لو كان عرفات قد ردد نشيد الليكود ،فإن ذلك لن يكون كافياً للإسرائيليين ،عرفات لم يردد نشيد الليكود لكنه فعل ماهو أكثر من ذلك ،ففي رسالته إلى رابين بعد الإعلان عن التوقيع على إعلان المبادئ الذي رأى أنه يرمز إلى عهد جديد في تاريخ الشرق الأوسط إلتزم عرفات بإسم منظمة التحرير بالإعتراف بحق دولة إسرائيل في الوجود والعيش بسلام وأمن وتعهد بحذف جميع المواد والنقاط التي تنفي حق إسرائيل في الوجود ،كما تعهد في رسالة أخرى أرسلها إلى هولست وزير الخارجية النرويجي بأن يشجع في تصريحاته الشعب الفلسطيني إلى التطبيع ونبذ العنف والإرهاب والإسهام في السلام والإستقرار والمشاركة بنشاط في إعادة البناء والتنمية الاقتصادية والتعاون .

وكان رد إسحاق رابين على تعهدات عرفات في ٩سبتمبر ١٩٩٣م بالإعتراف بمنظمة التحرير كممثل عن فلسطينيين وليس الشعب الفلسطيني طوال الوقت ،خطاب يفتقد للتوازن لأن منظمة التحرير طلب منها ونفذ عرفات الطلب بالفعل بالصيغة القانونية De Jure ،بينما ما قدمته إسرائيل في المقابل كان الإعتراف بوجود الفلسطينيين كأمر واقع بصيغة De Facto .

هذا الإعتراف ودخول إسرائيل ومسار المفاوضات لم يكن له علاقة باليد الممدودة بالفرص التي لطالما تحدث عنها الساسة الإسرائيليون بل كان بما ذكره رابين أمام الكنيست بعد إعلان المباديء بشهور في أبريل١٩٩٤م حيث قال : «منذ سبعة وعشرين عاماً سيطرنا على أناس آخرين لا يريدون سلطتنا ،منذ سبعة وعشرين عاماً يستيقظ

الفلسطينيون كل صباح والغضب في قلوبهم علينا بوصفنا إسرائيليين وبوصفنا يهود ،وكل صباح ينهضون من فراشهم ليواجهوا حياة شاقة ،وهذا ذنبنا جزئياً وليس كلياً ولا يمكن إنكار هذه الحقيقة» .

المفاوضات لم تكن يوماً من أجل السلام وبالتأكيد لم تكن لإعطاء الفلسطينيين جزءاً من الدوطة أو أي شيء آخر ،حقيقة تجاهلها أو أنكرها المفاوض العربي والمفاوض الفلسطيني في العشرينات وفي الأربعينات وفي أوسلو وحتى الآن وفي كل وقت ،وحقيقة أن الجانب الإسرائيلي المدعوم من الغرب يرى في نفسه مفاوضاً باسم شعب يملك حقاً تاريخياً في الأرض وأنه هو المعتدى عليه والمجبر على أمر واقع De Facto يتمثل في وجود غرباء هم جماعات من الإرهابيين الهمج الذين يهددون حضارته وقيمها ، وان ما يريده هذا المفاوض هو إيجاد سلطة ما يسائلها تسيطر على التجمعات الهمجية وتروضها للإستفادة منها ، فاليهودي الإسرائيلي يرى الفلسطينيين مجموعة من قطعان الرعيان ،هم ما تبقى من شراذم الجيش الغازي الذي طرد أجداده من أرضهم في القرن السابع واستولى عليها ولذلك فإن لديه الأحقية في طردهم كما فعل الأسبان مع العرب في الأندلس ،وحتى لو كان مستعمراً جديداً فبمنطق التحضر هو جاء بالمدنية ليصنع أمة وقومية جديدة على أرض شبه جرداء كما حدث من قبل في الأميركيتين.

إيهود باراك قال في العام ٢٠٠٢م رغم كل تنازلات عرفات أنه قد إختار الإرهاب عامداً ،وكل ماعدا ذلك هو محض هراء مادام يرفض قبول الشعب اليهودي بوصفه أمة تمتلك حقوقاً تاريخية والدليل على ذلك رفضه لوجود الهيكل في أورشليم!! باراك رأى أن عرفات ورفاقه نتاج ثقافة لا يؤدي قول كذبة فيها إلى إنعدام الإنسجام ،فهم لا يعانون من مشكلة قول الأكاذيب وهي المشكلة الموجودة في الثقافة اليهودية المسيحية ... لأنهم يعتبرون أنفسهم رسل حركة قومية كل شيء مباح في سبيلها وليس عندهم ألبته شيء أسمه الحقيقة ،أما عن اللاجئين الفلسطينيين فقد وصفهم باراك بأنهم يعانون من متلازمة السالمون Salmon Syndrome الذي دائماً مايريد العوده إلى مسقط رأسه

ليتكاثر وهو يرى أن الحل الوحيدلمشكلتهم هو الانتظار لثلاثة أو أربعة أجيال قادمة حتى يشفون من هذه الظاهرة متناسياً أنه إذا كانت المزاعم التي قامت عليها دولته صادقة فإن ألفي عام لم يشفوا ما يسمى بالشعب اليهودي من نفس المتلازمة ،هذه الأحداث إن أثبتت شيئاً فهي تثبت أنه حتى لو كان الشعب الفلسطيني قد استجاب لأية مرة طلب منه فيها تقديم تنازلات قبل أوسلوا فإن المحصلة ستكون ما يجري اليوم في صفقة القرن.

جاريد كوشنر أخرج صفقته للقرن بعد عامين من الإعداد إستشار فيها العديد من الأشخاص لم يكن من بينهم فلسطيني واحد وعندما انتقد في أن ذلك يقلل من مصداقيته كان رده « لست هنا لأكون مصدر ثقة « ،خطة كوشنر ليست خطة لإقامة دولة بل هي خطة لتحسين ظروف حياة الفلسطينيين في أقفاصهم والاستفادة القصوى منهم وفتح إسرائيل على جيرانها ،الحقيقة أن صفقة القرن في أغلبها منفذة فعلاً على الأرض مثلما حدث مع قيام إسرائيل المغزى الرئيسي من صفقة القرن هو فقط مباركة دولية لما هو حاصل فعلاً وكالعادة على الفلسطينيين القبول بالأمر الواقع حتى لو كان معناه البقاء في السجن وفقدان الهوية وأبسط الحقوق ، الحق الوحيد المسموح به في صفقة القرن هو حق الحياة المشروط بالانصياع لشروط ومقاييس الإسرائيليين ،ماحدث لمحمد الناعم سيصبح قانوناً ومصيره سيصبح جزاء لكل من تسول له نفسه أن ينظر إلى أرضه أو يطلب حقه في أن يكون موجوداً كصاحب هوية ،فما يريد ترامب وصهره كوشنر والكثيرون من الحالمين بالرفاه والرخاء على حساب المحبوسين خلف الأسوار هو الإعلان الأخير عن هزيمة القومية الفلسطينية ، التسليم الأخير بإنتهاء حلم الإستقلال الوطني لشعب بأكمله ،على شاشة التلفاز كانت صورة محمد الناعم تنطق بكلمات قصيدة الفردوس المفقود ليوسف الخطيب :

يقولون كان فتى لاجئاً

إلى خيمة في الربى مُشرعة

تطل بعيدا وراء الحدود

على الجنة الخصبة الممرعة

وكانت له ذكريات هناك

مُجنّحة حلوة ممتعة

يعيش على حلم أمس الذي مضى ويتمنى أن يرجعه

حتى يسقط اللاجئ وهو يعبر السور ممسكاً في قبضته حفنتي تراب تكونان ذكرى معه ولكن هيهات حتى أن ينول التراب ،لكن رغم هذا فإن الأجيال الثلاثة التي حددها باراك بل عشرات الأجيال ستخيب ظنه وسيجيء اليوم الذي تنبأ به ياسر عرفات بشاب أو فتاة ترفع علم فلسطين فوق أسوار القدس.

الصهيونية، والصهيونية الجديدة، وما بعد الصهيونية

عبد الغني سلامة*

مقدمة

زعمت الحركة الصهيونية أنها جاءت إنقاذا لليهود، أو لحل «المسألة اليهودية»؛ معتبرة أنَّ تشتت اليهود حول العالم نزع عنهم صفة الأمة، وحرمهم من إقامة كيان سياسي يضمن لهم التميز من الناحية الاجتماعية، ويبعد عنهم خطر الذوبان داخل المجتمعات الأوروبية التي كانوا يعيشون داخلها كأقليات تعاني التهميش. ومن هنا ادعت أنها خشبة الخلاص لليهود من محنتهم، من خلال إعادتهم إلى الأرض الموعودة.

ورأت الصهيونية أن العودة الموعودة لن تتم إلا بجهد يهودي صرف ليس له من ظهير إلا الدعم الإلهي، المنزع الغيبي الذي تبنته الصهيونية في بداياتها، رغم أنها ستنزع منزعا علمانيا في العقود اللاحقة، خاصة بعد قيام إسرائيل.

وقد ظهرت الصهيونية آنذاك في سياق التغيرات الأوروبية في القرن التاسع عشر التي اتسمت بنزعة قومية، سادت عموم أوروبا نتيجة لقيام الدول الوطنية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وما رافقها من حروب دموية، كان الانتماء القومي الركن الأساسي للتعبئة من أجلها.

* كاتب وباحث فلسطيني

نشوء ومبررات الصهيونية

بدأت القصة في أعقاب محاكمة النقيب «دريفوس» الضابط اليهودي في الجيش الفرنسي، المتهم بالخيانة، حيث أدرك هرتسل أنَّ معاداة السامية مترسخة في المجتمعات الأوروبية، ولا يمكن لفكرة اندماج اليهود أن تحلها. على هذا الأساس أخذ هرتسل يدرس فكرة السيادة اليهودية. وقال إن اليهود شعب واحد يمكن تحويل محنته الى قوة إيجابية، وذلك من خلال إقامة دولة يهودية بموافقة القوى العظمى؛ أي أنه نظر إلى القضية اليهودية كقضية سياسية دولية، يجب التعامل معها في سياق السياسة الدولية. وفي العام ١٩٠٢ نشر هرتسل كتابه «الأرض القديمة الجديدة»، الذي وصف فيه الدولة اليهودية الموعودة بالمجتمع الأمثل.

وبعد زيارته لروسيا في العام ١٩٠٣ ووقوفه عن كثب على مذبحة كيشينييف والظروف الصعبة التي كان يعيشها اليهود في روسيا آنذاك، ترسخت قناعة هرتسل بضرورة حل المشكلة اليهودية.

وفي العام ذاته عرض على المؤتمر الصهيوني السادس المبادرة البريطانية لإنشاء منطقة حكم ذاتي لليهود في أوغندا. ورغم محاولاته لإقناع الحضور بأن المبادرة البريطانية لن تؤثر سلبًا على الهدف الرئيسي الذي حددته لها الحركة الصهيونية وهو إنشاء كيان يهودي في أرض إسرائيل، إلا أن المبادرة أثارت عاصفة في المؤتمر وكادت أن تقود إلى انقسامات وانشقاقات داخل الحركة الصهيونية. ولكن في نهاية المطاف رفضت الحركة الصهيونية خطة أوغندا في مؤتمرها السابع في العام ١٩٠٥.

وللاطلاع على الصهيونية من وجهة نظر أصحابها، نقتبس فصلا من كتاب «الصهيونية» للبروفسور بنيامين نويبرغير، (١٩٩٥)، حسب ما جاء على الصفحة الرسمية لوزارة الخارجية الإسرائيلية:

«الصهيونية هي الحركة الوطنية التي تتمسك بفكرة استرداد الشعب اليهودي

لوطنه (أرض إسرائيل) وعودة الحياة اليهودية السيادية فيها.. فقد استمر تطلع اليهود إلى عودتهم إلى صهيون في أعقاب الاحتلال الروماني.. وفي القرن التاسع عشر بدأ يأخذ التطلع الى صهيون شكلا جديدا مع ظهور الوطنية المعاصرة والليبرالية في أوروبا، وكانت حركة «محبة صهيون» التي نشأت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تنادي بعودة الحياة اليهودية في أرض إسرائيل بإقامة تجمعات زراعية فيها. ولكن في فترة لاحقة بذل هرتسل جهودا لتحويل الصهيونية إلى حركة سياسية.

ويشتق اسم «الصهيونية» من كلمة «صهيون»، وهي الاسم المرادف للقدس، والصهيونية أيديولوجية سياسية تمثل التطلع المستمر لليهود في أنحاء العالم إلى استرداد وطنهم القومي التاريخي (أرض إسرائيل).

وجوهر الفكرة الصهيونية أنَّ أرض إسرائيل هي المنشأ التاريخي للشعب اليهودي، والإيمان بأن تواجد الشعب اليهودي في أي مكان آخر يعني العيش في المنفى. وقد عبر عن هذه الفكرة موشيه هيس في كتابه «روما والقدس» (١٨٨٤).

ورغم أن الصهيونية تعبير عن الرابطة التاريخية بين الشعب اليهودي وأرض إسرائيل، غير أنَّه لم يكن لها أن تظهر كحركة وطنية ناشطة في القرن التاسع عشر دون ظاهرة معاداة السامية وحالة الاضطهاد المستمرة طوال قرون التي تعرض لها اليهود في المهاجر. هكذا أصبح موشيه هيس الذي أصيب بصدمة من فرية الدم التي كانت تلفق ضد اليهود في دمشق (١٨٤٤) أصبح مؤسس الصهيونية الاشتراكية. وليؤون بينسكير الذي هزته المجازر ضد اليهود (١٨٨١-١٨٨٢) التي أعقبت اغتيال القيصر الروسي، تولى قيادة حركة «محبة صهيون». وتيودور هرتسل والذي تعرض لحملة تحريض لاسامية نُظمت على خلفية قضية درايفوس هو الذي حوّل الصهيونية إلى حركة سياسية».

ويضيف موقع الخارجية الإسرائيلية: «دمجت الصهيونية بين ركني القومية الليبرالية

(التحرير والوحدة) وذلك من خلال سعيها الى تحرير اليهود من قبضة الأنظمة الأجنبية القمعية والمعادية من جهة، ومن جهة أخرى إعادة الوحدة اليهودية من خلال تنظيم عملية قدوم اليهود في المهاجر، من أنحاء العالم الأربع، إلى الوطن اليهودي.

كان ظهور الصهيونية كحركة سياسية يشكل أيضًا ردًا على فشل حركة التنوير اليهودية في حل «القضية اليهودية». وحسب مبادئ الصهيونية يعود هذا الفشل إلى كون الانعتاق الفردي والمساواة مستحيلا بالنسبة لليهود دون الانعتاق والمساوة على المستوى القومي، ذلك لأن القضايا القومية تتطلب حلولا قومية. والحل القومي الصهيوني تمثل في إقامة دولة قومية يهودية يتمتع فيها اليهود بالأغلبية في وطنهم التاريخي، مُنجزا بذلك حق الشعب اليهودي في تقرير مصيره. ولم تعتبر الصهيونية أن تحقيق أهدافها بإقامة دولة لليهود على أرض فلسطين مخالف للأهداف والقيم الإنسانية؛ فالصهيونية تؤيد حق أي شعب في العالم في الحصول على وطنه، قائلة إن الشعوب التي تتمتع بالسيادة والاستقلال فقط هي التي يمكن لها أن تتحول إلى عضو كباقي الأعضاء في الأسرة الدولية».

ملخص القول: المبادئ الثلاثة التي قامت عليها الصهيونية، هي نفي المنفى، وتجميع اليهود، وإقامة دولة إسرائيل باعتبارها الواحة التي سينعُم فيها اليهود بالأمن والرخاء.

في نقد الصهيونية

ليس صعبا نقد الصهيونية، حتى من داخل نصوصها وبنيانها الفكري، ليس من منطلق وطني أو قومي أو ديني، بل من منطلقات إنسانية وبمعايير الحضارة والقيم الإنسانية. فالصهيونية قامت أساسا على تصورات غيبية وأطروحات دينية أسطورية

مبنية على رواية تاريخية متهافتة، وتأسست بناء على معايير عنصرية وفكرة شوفينية، تلخصها شعارات «شعب الله المختار»، و«الأرض الموعودة»، ومصطلحات إقصائية استعلائية مثل «الجوييم» أو «الأغيار».. ومستمدة من نصوص تلمودية مغرقة في الدموية جسدتها الممارسات الإسرائيلية على أرض الواقع على امتداد قرن كامل، اتسمت بالقسوة والبطش والدموية.

من ناحية ثانية، تزعم الصهيونية أنها حركة تحرير وطني، بيد أنها تأتي في عكس المسار الطبيعي الذي سلكته كل حركات التحرر الوطنية على امتداد العالم، إذ كانت حركات التحرر تناضل ضد الاحتلال الأجنبي، لتحرير شعوبها من ربقة الاستعمار؛ في حين أن الصهيونية تحالفت مع القوى الاستعمارية، وتلقت كل الدعم منها، من أجل احتلال أرض لشعب آخر. أي أنها لم تكن سوى شكلا آخر للاستعمار، ولكن بأكثر صوره وحشية: الاستعمار الإحلالي الكولونيالي.

الأمر الآخر، أن حركات التحرر يجب وبالضرورة أن تلتزم بالمعايير الإنسانية والقيم الأخلاقية، وأن تحمل رسالة ذات قيمة إنسانية وحضارية، ما يعني أنها ترفض الظلم والعدوان والعنصرية واحتلال أراضي الغير بالقوة والاعتداء على حياة الآخرين دون وجه حق.. الأمر الذي مارست الصهيونية عكسه تماما، بل إن أيديولوجيتها تدعم هذه الممارسات وتبررها.

وإذا كانت الصهيونية قد نجحت في إقامة دولة إسرائيل، إلا أنها أخفقت في تمثيل يهود العالم، فعدد اليهود المقيمين خارج إسرائيل يفوق عدد المقيمين فيها، رغم الإغراءات والتسهيلات التي تقدمها إسرائيل لجلب اليهود إليها، ونسبة كبيرة منهم رافضين للأيديولوجيا الصهيونية، ورافضين للممارسات والسياسات الإسرائيلية.

أما مقولة «الانعتاق الفردي والمساواة مستحيلان بالنسبة لليهود دون الانعتاق والمساوة على المستوى القومي، ذلك لأن القضايا القومية تتطلب حلولا قومية»؛ فقد

أثبتت الأحداث تهافتها؛ فالجماعات اليهودية التي ظلت مقيمة في أوطانها في أمريكا وأوروبا وروسيا وغيرها، تعيش ظروفا طبيعية، ولا تتعرض لأي نوع من الاضطهاد، ويحظون بالمساواة التامة مع سائر مواطني دولهم.

أما عن محنة اليهود والمجازر التي تعرضوا لها، والظروف القاسية التي عانوا منها، وجرائم النازية بحقهم، فلا يجوز استغلالها، ولا تعطي مبررا لممارسة نفس الظلم الذي تعرض له اليهود على الفلسطينيين، أي إعادة إنتاج نفس الظلم على شعب آخر.

ومن ناحية أخرى، فإنَّ الصهيونية ومنذ لحظة ولادتها رافقتها أزمات عميقة؛ فاليهود أنفسهم أول من رفضها، وقد ظل التيار اليهودي الأرثوذوكسي معارضا للصهيونية، حتى اليوم، وبدرجات وصور متباينة. إذ اعتبرها تحدياً لإرادة الله، ورفض الدولة العبرية لأنها ستؤخر ظهور المسيح المخلّص (المسيانية)، واعتبر أن القومية اليهودية ستكون بديلا (إلحاديا) عن التوراة والشريعة كجامع لليهود، ومنذ البداية لم تفلح الصهيونية في تحديد شكل واضح ومحدد لهويتها، فظلت تتأرجح بين الديني والقومي والعلماني.

وتأكيدا لما سبق، وعندما كان النظام الدولي متعافيا إلى حد ما، صوتت الجمعية العامة في الأمم المتحدة لصالح القرار ٣٣٧٩، في العام ١٩٧٥، والذي اعتبر الصهيونية شكلا من العنصرية، والتمييز العنصري، وطالب القرار جميع دول العالم بمقاومة الأيديولوجية الصهيونية، باعتبارها تشكل خطرًا على الأمن والسلم العالميين. (تم التراجع عن القرار في العام ١٩٩١، بضغط من الولايات المتحدة).

الصهيونية الجديدة

منذ صعود اليمين الإسرائيلي لسدة الحكم (١٩٧٧)، دخلت الصهيونية في مرحلة

جديدة، تمثل حالة انقطاع عن المراحل السابقة، وذلك بتحويل إسرائيل (وعقيدتها الصهيونية) إلى دولة نيوليبرالية، وتجليات هذا التحول لا تقتصر على تفكيك دولة الرفاه والتحول إلى الخصخصة والنيوليبرالية، بل يشمل ذلك تغيرات في الخطاب الإعلامي وفي برامج الأحزاب، يمتد بتأثيراته وتداعياته ليطول بنية المجتمع ونظرته تجاه بعضه البعض.

أبرز تجليات هذا التحول تكثيف الاستيطان، والنزوع إلى المزيد من اليمينية، وهيمنة التيار الديني (بشقيه الصهيوني واللاصهيوني) على الدولة والمجتمع، وتهميش القطاع العام والهستدروت، وتقليص الخدمات العامة المقدمة للجمهور، واعتماد الخصخصة، التي أنتجت طبقة رأسمالية جديدة تسيطر على الاقتصاد، وتوجه المسارات السياسية للدولة، بدعم من جمهور المتدينين والمستوطنين.

أي أن المعسكر اليميني الحاكم أخذ يضع بصماته على المشروع الصهيوني ويغير في تصميمه بشكل أكثر وضوحا في دمويته وعنصريته من المشروع الصهيوني التقليدي الذي أنتجه المعسكر العمالي. ويرتكز المشروع الحالي على الاستمرار في انتهاج الاقتصاد النيوليبرالي، بكل معانيه وتبعاته، وعلى «قيم» اليهودية، كونها الرابط الأساسي للمجتمع، وعلى استمرار الاستيطان، ويتجلى ذلك بكل وضوح في قانون القومية اليهودي، الذي أقره الكنيست في العام ٢٠١٨، وعلى تعظيم وزيادة قوة إسرائيل واستمرار تفوقها في الإقليم، كما تحتم عقيدة «الجدار الحديدي».. فهل هذا تغير وتطور في الصهيونية، أم تطبيق أمين وحرفي لمبادئها الأصلية، المستمدة من التلمود والتوراة؟

وزيرة القضاء الإسرائيلية، أييلت شاكيد، من حزب «البيت اليهودي» اليميني المتطرف، ترسم ملامح ما يسمى «الصهيونية الجديدة» التي تقوم على أرضية الصهيونية الدينية، التي توفر لها زخم الرواية الدينية التاريخية، وتضع بشكل

مكشوف «الديموغرافيا»، و«الحفاظ على الأغلبية اليهودية»، وفكرة تفوق اليهود، فوق منظومة حقوق الإنسان، وفوق القانون الدولي، وهي بهذا المعنى، تستبدل تفوّق العرق الأبيض الذي ميز الحقبة الاستعمارية العنصرية في القرن الماضي بتفوق اليهود.

وهذا يضعنا أمام سؤال ملح: هل هذا تغيير في الأيديولوجيا الصهيونية، أم أنها تكشفت على حقيقتها، دون رتوش؟ إذا كانت الإجابة بالنفي، فأين هي تلك المضامين الإنسانية والتحررية والاشتراكية التي طالما تحدثت عنها أدبيات الحركة الصهيونية، خاصة في فترتي اليشوف، وبدايات تأسيس إسرائيل.

ما بعد الصهيونية

اليوم، تتعرض الصهيونية لأزمة شديدة، نتيجة للنقد الذي تتلقاه من قِبَل المعسكر اليميني الديني المتطرف الذي رفض الصهيونية من بدايتها. فالأصولية اليهودية رفضتها من منطلقات دينية، وحتى اليمين الديني الصهيوني، المؤمن بفكرة الخلاص (المسيانية) يتساءل عن أي خلاص تسعى إليه الصهيونية، بعد أن قامت دولة إسرائيل، وصارت متاحة ليهود العالم ليأتوا إليها! أما الأرثوذوكسية اليهودية غير المتصهينة، فهي لا ترى في الصهيونية، ولا في إسرائيل أي شكل من الخلاص، بل تراهما عائقين أمام الخلاص الحقيقي، المتمثل بعودة المسيا.

ومن جهة ثانية، تتعرض الصهيونية لنقد التيار اليساري (رغم ضعفه وخفوت صوته) الذي يرفض ممارسات إسرائيل تجاه الفلسطينيين، ويرى أنها تسيء لصورة إسرائيل «الديمقراطية»، وتجرح مقولة «طهارة سلاح، وأخلاقيات جيش الدفاع»، وتتعارض مع القيم الإنسانية والحضارية التي اعتقد أنها من صميم الصهيونية. إضافة لنقد فريق من العلماء والمؤرخين، والمثقفين، برؤية ذاتية وثورية، الذين يطلق عليهم تيار

ما بعد الصهيونية، فقد أثار هؤلاء تساؤلات حول مستقبل المشروع الصهيوني، وهل هناك ضرورة لاستمرار الصهيونية بعد قيام إسرائيل؟

وقد تزايد النقد لمشروعية الصهيونية، ومبررات استمرارها باعتبار أن الصهيونية قد حققت هدفها الرئيس، وهو أنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، وبهذا تكون قد أدركت غايتها ووصلت إلي نهايتها، ولم يعد مبررا ادعاؤها بإنقاذ يهود العالم، فالجماعات اليهودية في مختلف الدول لا تتعرض الآن لأي نوع من الاضطهاد، وبالتالي حان الوقت للنظر والتفكير فيما بعد الصهيونية، أو ما يسمي بالصهيونية الجديدة .

ويرى المؤرخون الجدد أن الدولة والمجتمع الإسرائيلي يجب أن يتحررا من وصاية وهيمنة الصهيونية، التي انتهى دورها وأكملت مهمتها، وحسب هؤلاء فإن جوهر «ما بعد الصهيونية» يتضمن ضرورة إعادة كتابة تاريخ إسرائيل والحركة الصهيونية، وتاريخ الصراع العربي الإسرائيلي بصورة محايدة وموضوعية، وبالذات تاريخ النكبة، والإقرار بأن الصهيونية فشلت في تحقيق الدمج والصهر لشتات اليهود في أنحاء العالم، وأنّ إسرائيل لم تستوعب غالبية اليهود (نسبة اليهود المقيمين في إسرائيل تشكل ٤٣٪ من مجموع اليهود في العالم)، وأنَّ دولة إسرائيل قامت على أساس غير طبيعي (في سياق المشروع الإمبريالي الاستعماري)، وليس علي أساس العقد الاجتماعي، أو نتيجة تطور طبيعي. وهؤلاء لا يدعون لتدمير إسرائيل، بل ينادون بضرورة إقامة المجتمع الإسرائيلي الجديد علي أساس العدل والمساواة وعدم التمييز، فالتوسع والاستيطان، وتهجير السكان (الفلسطينيين) إجراءات تعسفية لا تتفق مع مفاهيم العدل والحرية، ولا تقوم علي أساس أخلاقي؛ لأنها تطرد السكان الأصليين من أرضهم. ويرى هؤلاء أيضا أن إسرائيل مشروع استعماري تغيب عنه الأخلاق، وأن إسرائيل ولدت منغمسة في الخطيئة، ولابد أن تتخلي إسرائيل عن طابعها القومي اليهودي العنصري، وأن تصبح دولة ذات قوميتين، يهودية وعربية، على

أساس المواطَنة، تنتمي لثقافة حوض البحر المتوسط، وتبنى علي قاعدة أخلاقية وتتخلي عن القوة كقاعدة للدولة، وتتحرر من السياسية الاستعمارية، التي ورثتها عن الغرب، ويرون أيضا أن قيام إسرائيل مثل كارثة ونكبة للفلسطينيين.

على أرض الواقع، هذا التيار (ما بعد الصهيونية) محدود العدد والتأثير داخل إسرائيل وخارجها، بينما تظل الصهيونية بكل ما فيها من عنصرية مشروع إسرائيل الكبير، الذي يحظى بدعم الغرب الاستعماري.

في واقع الأمر، مصطلح «ما بعد الصهيونية» ظهر لأول مرة عام ١٩٩٣، حين تداعت نخبة من المؤرخين والباحثين من مجالات متعددة بما فيها العلوم الاجتماعية، وأخذت تتساءل عن الممارسات الصهيونية والسياسات الإسرائيلية، ومدى أخلاقيتها. ويبدو أن ظهور هؤلاء الكتاب قد وسع من آفاق المؤرخين الجدد وقادهم إلى مجالات أوسع، لا تتعلق فقط بنقد التاريخ السياسي الإسرائيلي ونكبة العام ١٩٤٨، بل تعداه ليتضمن مجموعة أكبر من الكتاب والعلماء في مجالات أوسع.

ثم تبلور مصطلح «ما بعد الصهيونية» بشكل أوضح في كتابات مجموعة من العلماء والكتاب الذين تصدوا للرواية الرسمية فيما يتعلق بنشوء المجتمع الإسرائيلي وعلاقته بالفلسطينيين والعالم تاريخياً. هذه الكتابات طعنت في الافتراضات التي وضعتها الصهيونية وحاولت إعادة محاكمتها تاريخياً واجتماعياً. أي من منظور علمي وتاريخي وإنساني.

تلك الكتابات أتت في سياق جدل ثقافي سياسي واسع في مسألة ما بعد الحداثة في إسرائيل، ولكن بشكل ثوري جديد، فانتقاد جوهر الصهيونية كان يتم تحت عناوين حقوق الإنسان، وليس ضمن أسس أيديولوجية معارضة للصهيونية، أو ضمن مواقف سياسية داعمة للفلسطينيين.

ولذلك فإن هذه المجموعة أثارت غضب الصهاينة على الرغم من غموض توجهاتها

وانطلاقاتها الأيديولوجية، وحسب إدوارد سعيد فإن مجموعة «ما بعد الصهيونية» هي مجموعة غير متجانسة في مواجهة الصهيونية، فهؤلاء المؤرخون التصحيحيون والعلماء يعملون على تحدي الرواية الصهيونية فيما يتعلق بالنكبة، وباقي المسلمات الصهيونية، ويعيدون النظر فيها من جديد دون أن يكون لهم تيار موحد أو مجموعة منظمة تجمعهم أو تضعهم في إطار واحد.

المساهم الأول هو إيلان بابيه صاحب الكتاب التوثيقي «التطهير العرقي في فلسطين»، الذي اضطر إلى ترك عمله في جامعة حيفا والانتقال للعمل في إحدى الجامعات البريطانية. المساهم الثاني هو جون ميرزهايمر صاحب الكتاب الشهير «اللوبي الإسرائيلي والسياسة الخارجية للولايات المتحدة»، الذي ألفه بالتعاون مع زميله ستفن وُلت، جون كتب مقالة «اليهود المستقيمون في مواجهة الأفارقة الجدد»، والمقصود بالأفارقة هنا إقامة تطابق بين الصهاينة وسكان جنوب أفريقيا من الأوروبيين البيض الذين أقاموا نظام الفصل العنصري هناك.

المساهمة الثالثة للأستاذة الباحثة في جامعة هارفارد سارة روي، التي ألفت كتاب «إعادة صياغة فلسطين، هل هو الطريق إلى الأمام؟». كما كتبت سارة روي كتاب «حماس والمجتمع المدني في قطاع غزة».

ويمكن إضافة عدد من المؤرخين الإسرائيليين الذين نقضوا الرواية التوراتية برمتها، منهم: شلومو ساند، في كتابيه: اختراع الشعب اليهودي، واختراع أرض إسرائيل. وميخائيل هرسيغور، وموريس سترون، في كتاب إسرائيل/ فلسطين الواقع وما وراء الأساطير. وإسرائيل شاحاك، في كتاب التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية، وطأة ثلاثة آلاف سنة. وإسرائيل فنكلشتاين، ونيل إشر سيلبرمان، في كتاب التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها.. إضافة لإسهامات أخرى لمجموعة من الأكاديميين والصحفيين الغربيين والعرب المقيمين في خارج العالم العربي.

ومع الإقرار بمحدودية تأثير هذا التيار، واقتصاره على النخب، إلا أن واقع الأمر يحتم تعمق النقاشات على مديات أوسع، خاصة في ظل تعثر التسوية أو بمعنى أدق موتها سريريا، فهذا سيقود إلى جدل أوسع عن احتمالات تطور الصراع، وإمكانية قيام دولة واحدة بعد ضم إسرائيل للضفة الغربية. هذا الخيار سيؤدي بالضرورة إلى عواقب مختلفة أهمها فقدان الدولة طبيعتها اليهودية، وتحولها إلى دولة ثنائية «القومية»، وانتهاء مشروع الدولة اليهودية التي تشكل حجر الزاوية في الفكر الصهيوني.

هذا ما لن يقبل به المجتمع الصهيوني، وبالتالي القوى السياسية الممثلة في المؤسسة الحاكمة. الخيار هنا تحول الكيان الصهيوني إلى «جنوب أفريقيا» ثانية، أي دولة عنصرية «أبارتهايد»، وهو ما عبر عنه بمصطلح «الأفارقة الجدد»، في إشارة إلى طبيعة المجتمع اليهودي في ظل مثل هذا الخيار. دون أن نغفل حقيقة أن الكيان الصهيوني في جوهره عنصري لأنه قائم على «دولة لليهود/ دولة يهودية».

الخيار الآخر المتوقع، والمستبعد في الوقت نفسه، هو تحول اليهود إلى أقلية، انطلاقًا من حقيقة فشل مشروع «الأسرلة» الذي حاولت الأحزاب الصهيونية فرضه على الفلسطينيين منذ اغتصاب فلسطين.

الهوامش

<?> هرتسل والحركة الصهيونية، موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية،
https://mfa.gov.il/MFAAR/InformationaboutIsrael/TheHistoryOfTheJewishPeople/TheHistoryInBrief/Pages/herzl%20and%20zionism.aspx

<?> هرتسل والحركة الصهيونية، نفس المصدر السابق.

<?> هرتسل والحركة الصهيونية، نفس المصدر السابق.

<?> أمينة سالم، الصهيونية الجديدة، جريدة الشرق المغربية، ٢١-١-٢٠١٠.

<?> زياد منى، ما بعد الصهيونية، الجزيرة نت، ١٩-٩-٢٠١٢.
https://www.aljazeera.net/knowledgegate/books/2012/9/19/

<?> زياد منى، ما بعد الصهيونية، الجزيرة نت، ١٩-٩-٢٠١٢.
https://www.aljazeera.net/knowledgegate/books/2012/9/19/

<?> زياد منى، ما بعد الصهيونية، الجزيرة نت، ١٩-٩-٢٠١٢.
https://www.aljazeera.net/knowledgegate/books/2012/9/19/

أوراق مقدسية

أوقاف القدس: تحمي المدينة وتدافع عن عروبتها

عزيز العصا*

مقدمة

تمرّ القضية الفلسطينية، بشكل عام، إلى اعتداءات سافرة تمسّ بالحقوق الثّابتة للشعب الفلسطيني في العيش الكريم على أرضه في ظلّ دولة مستقلّة كاملة السّيادة، وعاصمتها القدس، وحقّه في العودة وتقرير المصير. ولعلّ ذروة هذه الاعتداءات وأكثرها بشاعة وغطرسة ما يتعلّق بالقدس؛ هذه المدينة المقدّسة للمسلمين والمسيحيّين، التي يسعى اللوبي الصهيوني، من خلال البيت الأبيض، إلى تهويدها بالكامل وجعلها عاصمة للدولة العبريّة، دون أي اعتبار للحقوق الشرعيّة والدّينيّة والوطنيّة للشعب الفلسطيني، بمسلميه ومسيحيّيه، الذي عمر هذه المدينة على مدى خمسة عشر قرنًا، بتواصل ودون انقطاع.

وإنّ ما ورد فيما أطلق عليه «صفقة القرن» هو تتويج لحالة «المحو» الكامل والشّامل لمفهوم الدّولة والحرية والاستقلال للشعب الفلسطيني، وحرمانه التّام من أي إمكانيّة للوصول إلى عاصمته الروحيّة والسياسية.

سوف نتطرق في هذا المقال إلى الملامح والسّمات العربيّة الثابتة لمدينة القدس، الّتي تمكّننا من مواجهة الزحف التّهويدي المستند إلى العنجهية والقوّة والغطرسة، ضاربًا بعرض الحائط أي وجود للآخر (الإسلامي والمسيحي). وقد وجدنا، من خلال البحث، أن هناك حقوقًا ثابتة

* باحث فلسطيني

من خلال الأوقاف، تحمل الملامح الشّرعيّة والقانونيّة، وتمنح هذه المدينة المقدّسة ملامح هويتها العربية العصيّة على التهويد أو العبرنة، كما تشكّل عائقًا شاهقًا أمام الاستحواذ على القدس وجعلها عاصمة لدولة الاحتلال.

الأوقاف: المفهوم والتأصيل الشرعي

لقد عُرِّفَ الوقف قبل الإسلام على أنّه نوع من أنواع الصّدقة وفعل الخير الّذي مارسته المجتمعات عبر العصور. وقد جاءت الأديان السّماويّة كلّها ترغّب في بذل المعروف، وفعل القربات وإن اختلفت التّشريعات، وانحرف النّاس في أخذهم لتعاليم تلك الشّرائع وتطبيقاتها(١).

أمّا الإسلام فقد نظر إلى الوقف على أنّه أفضل أشكال الصّدقات أو البرّ أو الإحسان، الّتي يبقى أثرها ويدوم وينتقل عبر الأجيال المتعاقبة. وقد اجتهد العلماء في تعريف الوقف، ومن بين هذه تعريفات: الوقف هو حبس العيْن وتسبيل ثمرتها، أو حبس عين التّصدّق بمنفعتها، وقوام الوقف حبس العين، فلا يُتصرّف فيها بالبيع والرّهن والهبة، ولا تنتقل بالميراث، والمنفعة تُصرف لجهات الوقف على مقتضى شروط الواقفين(٢).

يستمدّ الوقف في الإسلام، بأنواعه الخيريّة والذّرّية (والمشترك بينهما)، مشروعيّته وأدلّته القاطعة من القرآن والسّنّة، ومن إجماع العديد من الصّحابة واتّفاقهم، رجالًا ونساءً، بخاصّة نساء النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- قولًا وفعلًا باعتباره صدقة تتّصف بالدّيمومة والثّبات، وضمان ريعها للموقوف عليهم. ولقد كان من أعظم الصّدقات الأوقاف الخيريّة بأنواعها المتعدّدة وأشكالها المتنوّعة من عقار وسلاح ودرهم ودينار ومصحف وكتب علميّة وبساتين وأنهار ومياه لذّة للشّاربين(٣)، وذلك كلّه ما يفسرّ الانتشار الواسع للوقف في أقطار العالم الإسلاميّ؛ فحيثما كان هناك مسلمون فإنّك تجد أوقافًا من مختلف الأنواع، وموقوفة على شتّى مناحي حياة المجتمع.

وقد انطبق على مدينة القدس ومحيطها ما انطبق على غيرها من مدن وعواصم وأرياف من انتشار الوقف فيها، حتى أنّها تميزت عن غيرها من المدن لما تمتّعت به من قدسيّة عند الديانتيْن الإسلاميّة والمسيحيّة. وسنتناول، فيما يأتي تطور الأوقاف والممتلكات الإسلامية والمسيحيّة في القدس عبر الـ (١٥) قرنًا الماضية (١٥هـ/٦٣٨م-تاريخه).

أوقاف القدس: التطوّر والنموّ

كانت القدس قبلة الموقفين المسلمين، وعلى أرضها كانت ذروة جهودهم. فمنذ الفتح الإسلاميّ وتسلّم الخليفة عمر بن الخطّاب لمفاتيحها في العام ٦٣٨م، حظيت باهتمام كبير من قبل المسلمين على المستويات الرّسميّة والشّعبيّة؛ فالحكام والميسورون وعموم النّاس وجّهوا اهتمامهم لهذه المدينة المقدسة، فأوقفوا فيها أوقافًا خيريّة وذرّيّة(٤). وقد ترافقت المؤسّسات الوقفيّة في القدس مع تكوين المجتمع الإسلاميّ فيها، وتطوّرت الأوقاف الخيريّة في القدس كما يأتي:

بنى الخليفة عمر بن الخطّاب أوّل مسجد في القدس، وهو أساس المسجد الأقصى الحالي. وأوّل وقف إسلاميّ في القدس قام به الخليفة عثمان بن عفّان (٦٤٤م-٦٥٦م) بوقفه بركة سلوان على فقراء المدينة وضعفائها. إذ يقول المقدسي: «وسلوان محلّة في ربض المدينة تحتها عين عذيبيَّة تسقي جنانًا عظيمة أوقفها عثمان بن عفّان على ضعفاء البلد تحتها بئر أيّوب»(٥).

في بداية العصر الأمويّ شاد الخليفة عبد الملك بن مروان (خلافته: ٦٨٥م-٧٠٧م) أبنية وقفيّة عظيمة في القدس تمثّلت في قبّة الصخرة المشرّفة، وإعادة بناء الجامع القبليّ، وغير ذلك من المعالم، وصولًا إلى القصور الأمويّة.

ومن جاء بعد الأمويين من العباسيين والفاطميين والسلاجقة، استمر في ترميم وتجديد ما بناه الأمويون وأضاف إليها العديد من الأوقاف.

مع فتح صلاح الدّين للقدس وطرد الصّليبّيين منها عام ١١٨٧م، أعاد صياغة الملامح العمرانيّة الإسلاميّة للمدينة بعد أن تمكّن الصليبيون من تغيير جوانب منها خلال مدّة حكمهم.

استمرّ سلاطين الأيوبيين (حتّى العام ١٢٥٠م) في ذلك، وقام الملك الأفضل (الابن الأكبر لصلاح الدّين) بوقف حارة (المغاربة) لصالح المهاجرين المغاربة، ثمّ توالت الوقفيّات في هذه الحارة الّتي وصلت في العام ١٩٦٧م إلى (١٤٠) عقارًا(٦).

في العهد المملوكيّ (٦٤٨هـ-٩٢٢هـ / ١٢٥٠-١٥١٦م) ونتيجة لاستقرار الأوضاع السّياسيّة، وتصفية الوجود الصّليبيّ في بلاد الشّام، نشطت الحياة بمختلف أشكالها، وبلغت مبلغًا عظيمًا من الحضارة والعمارة والفكر والثّقافة، فأصبحت من أولى حواضر العالم الإسلاميّ. فقد عمل سلاطين المماليك على تشجيع الحركة العلمية والثّقافيّة، والإنفاق عليهما، وتشييد المؤسّسات المختلفة الّتي لا زال بعضها قائمًا حتّى يومنا هذا؛ ممّا ترك آثارًا عظيمة في ازدهار الحركة العلمية والثّقافيّة الّتي نشطت بشكل واضح في المدينة في تلك الفترة، وأصبحت المؤسّسات التّعليميّة المختلفة عامرة بالعلم وأهله من العلماء والمتعلّمين، وتنوّعت العلوم، وغدت المدينة مقصدًا للعلماء وطلبة العلم، الّذين وفدوا إليها من المشرق والمغرب(٧).

وأمّا بشأن المؤسّسات الوقفيّة فقد سار السّلاطين المماليك على نفس الاستراتيجيّة في إنشائها في المجالات التّعليميّة والاقتصاديّة، والأسواق، والخانات والحمّامات... الخ)، ووقف مئات الدّكاكين والكثير من القرى والمزارع والأراضي الزّراعيّة في فلسطين للصّرف على الوقفيّات المقدسيّة.

ورثت القدس من زمن المماليك والأيوبيين عددًا كبيرًا من الأوقاف، لقيت الرعاية في الفترة العثمانية وزاد عددها. وتقدم دفاتر التحرير العثمانيّة وسجلّات المحكمة الشرعية في القدس معلومات غزيرة عن تلك الأوقاف(٨).

كما تركت اوقاف السّلطان سليمان القانونيّ (١٥٢٠م-١٥٦٦م) أثرًا كبيرًا في القدس وجوارها، فهو الّذي أعاد بناء سور القدس بشكله الحاليّ، ووفرّ المياه للقدس من خلال البرك والقنوات. كما قامت زوجته بإنشاء (تكيّة خاصكي سلطان)(٩) الّتي كانت أهمّ مجمع معماريّ بعد المسجد الأقصى المبارك(١٠).

من جانبٍ آخر، اتخذت الدولة العثمانية (١٥١٦م-١٩١٧م) عددًا من الإجراءات الّتي سهلت

على رجال الحكم وعامّة الناس عمليّة تحبيس الأوقاف الخيريّة، مثل: الإعفاء من ضريبة العشر، وترك الفلّاحين يعيشون في قراهم بأمن وطمأنينة؛ لتمكينهم من استغلال الأراضي الموقوفة. كما لم تقتصر الأوقاف على الأراضي، وإنما شملت مجالات أخرى كوقف الكتب وأوقاف النقود(١١).

عام ١٨٢٦ م وحتى مغادرة الدولة العثمانية عام ١٩١٧م، عهدت بإدارة أوقاف القدس لـ «مديريّة عموم الأوقاف»، يقوم على إدارتها شخصيات محلية على قدر كبير من التعليم والخبرة الإدارية في أمور الأوقاف، وحازوا على ذلك من خلال مستويات التعليم الرفيعة التي تلقوها في أروقة المسجد الأقصى والمدارس المحيطة به والأزهر في القاهرة وغير ذلك من الخبرات في مجال الأوقاف(١٢).

F١٣

الأوقاف المسيحيّة المقدسية

كما أن القدس قبلة المسلمين الأولى، وأرض الإسراء والمعراج، فإنها كانت موطن ظهور المسيح عيسى ابن مريم مبشّرًا بمعتقده؛ فقد هبطها مرة في نعومة أظفاره، وثلاث مرّات بعد نشر رسالته: الأولى في ٢٨/١٠/٢٨م، والثانية بعد ذلك بشهرين، وفي الثالثة اعتقل وسيق إلى المحاكمة وحُكم عليه بالموت(١٣). وعليه، فإن ما ذُكِر أعلاه حول الأوقاف الإسلامية، يوازيه تطور ونموّ الأوقاف والممتلكات المسيحية خلال نفس الحقب الزمنية، وفق الإيجاز الآتي:

أولًا: في أجواء ظهور الإسلام في الجزيرة العربية وبدء انتشاره خارجها، كانت الدولتان العظميان في ذلك العصر الروم والفرس تتصارعان على القدس؛ ففي سنة ٦١٤م، وبتحريض وتوجيه من اليهود غزا الفرس مدينة القدس فهدموا كنيسة القيامة، كما هدموا معظم الكنائس والأديرة التي كانت فيها، وأمر كسرى أن يؤخذ رخام هذه الكنائس ويُنقل إلى بلاده، وفي سنة (٦٢٥م) انتصر هرقل (ملك الروم) على كسرى (ملك الفرس) فراحت أعلام بيزنظة تخفق على فلسطين، ففرح المسلمون بانتصار المسيحيين على المجوس(١٤).

ثانيًا: تنبّأ القرآن الكريم بما هو مذكور أعلاه صادقًا في السورة التي سُمِّيت بالروم، حيث قال الله تعالى: «غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ» (الروم: ٢-٣). كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم وصاحبه الأمين «أبو بكر الصدّيق» أول من تنبّأ بانتصار هرقل(١٥).

ثالثًا: كان في القدس وجوارها قبل الفتح الإسلاميّ ما يزيد عن (٢٠) كنيسة وديرًا من زمن الرومان، منها: كنيسة القيامة، وكنيسة بيت لحم (كنيسة المهد)، والكنيسة بطور زيتا بمصعد سيدنا عيسى عليه السلام، وكنيسة الجثمانية، وكنيسة صهيون وكنيسة مار يعقوب، وكنيسة المصلّبيّة، وكنيسة القدّيسة مريم، ودير مار يوحنا المعمدان، ودير العذراء(١٦)، وبطريركية ودير الروم الأرثوذكس، ودير مار الياس، ودير أبينا إبراهيم، وكنيسة ستنا مريم، ودير مار سابا، ودير القديس ثيودوسيوس، والدير الكبير١٧، ودير القطمون (دير سمعان)، وكنيسة القديسة حنه، وكنيسة قوزمو داميانوس، وكنيسة السيدة، وكنيسة القديسة صوفيا، وكنيسة مار سرابيون، ودير البنات، وكنيسة الخضر(١٨).

رابعًا: بعد عقد من الزّمن، عام (١٥هـ/٦٣٨م)، جاء العرب المسلمون إلى مدينة القدس وهي عامرة بالمسيحية سكانًا ومقدسات وأسواق وعمران. ومن أبهج الصور التي يسجّلها التاريخ تلك الصورة من التصالح بين المتحاربين من المسلمين وسكان «إيلياء» الّتي أبى أهلها الخروج والتّسليم، قائلين للقائد المسلم أبي عبيدة: «أرسل إلى خليفتكم، فيكون هو الذي يعطينا العهد ويكتب لنا الأمان»، ولما تيقّن أبو عبيدة من صدق مطلبهم كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب، الذي حضر سنة (١٥هـ/٦٣٨م)(١٩)، وكتبَ لأهل إيلياء صُلحًا وعهدًا يطلق عليه «العهدة العمرية» (انظر نصّها في الملحق ٢).

لقد تميزَّت الفتوح الاسلامية عن غيرها من قوى الاحتلال، بميزة إنسانية قَلَّما نجدها في ذاك الزمن، والمقصود بذلك هو سياسة المسلمين في الفتوح، والتي تجلَّت في خيارات ثلاثة: إما الإسلام، وإمّا الصلح والجزية، وإمّا الحرب. وفي هذا اختلاف بين من سبق من القوى التي كانت تقدَّم فقط خيار الحرب والأسر والتدمير، ولذا حُقَّ للتوسُّع العربي الإسلامي أنْ يُسمَّى

فتحًا وليس احتلالًا. فعندما جاء الإسلام حفظ هذه الأماكن المقدسة وحافظ عليها، ولم يفعل ما فعله الفرس من تدمير وحرق وقتل في النصارى الذين لم تحمهم الكنائس والأديرة ودور العبادة من السيف الفارسي. وسنقوم فيما يأتي بمتابعة وضع الأماكن الدينيّة ودور العبادة المسيحية في القدس وصولًا إلى واقعنا الحالي.

وقد شكّلت العهدة العمريّة مفصلًا مهمًّا في تاريخ الدّولة الإسلاميّة، كما أنّها رسمت ملامح العلاقة الإسلاميّة المسيحيّة، القائمة على الأمن والأمان الذي أعطاه المسلمون الفاتحون للمسيحيّين من سكان البلاد الأصليين.

ومن أبرز ما يمكن استنتاجه من هذه العهدة-الوثيقة أنها تعدّ من أعظم الوثائق السّياسيّة الّتي تمثّل أعدل وأوضح وثيقة في التّاريخ وأشهرها، فمن خلالها ظهر عدل الإسلام الذي منح العدل والاستقرار والأمن والأمان للمسلمين وغيرهم. كما أنها أصبحت محلّ الرّعاية والعناية والاهتمام من جانب المسلمين وحكّامهم كافّة وموضع التّنفيذ والتّطبيق منهم، ولم يعرف يومًا إساءة تطبيق أيّ بند من بنودها. فقد ضمنت حرّية العقيدة للنّاس، امتثالاً لأمر الله الذي لا يجيز أن يُكره أحد على تغيير دينه ومعتقده. وأثبت المسلمون أنّهم أحرص النّاس على شعائر الآخرين التّعبّدِيّة، وقد كفلوا لهم حرّية العبادة والوصول إلى أماكنها(٢٠).

وأما بشأن الملكيات في هذه المدينة المقدسة، فعندما دخل عمر بن الخطّاب، كان أول عمل قام به أن زار كنيسة القيامة، ولما كان في داخل الكنيسة وحان وقت الصلاة، رفض الصلاة داخل الكنيسة، وصلى في مكان قريب منها لجهة الجنوب، ثم قال للبطريرك صفرونيوس: «(...) إنني لو أقمت الصلاة في كنيسة القيامة لوضع المسلمون عليها الأيدي من بعدي في حجة إقامة الصلاة فيها، وإني لآبى أن أمهِّد السّبيل لحرمانكم منها، وأنتم لها أحق وأولى»(٢١).

كما أن عمرًا رضي الله عنه وقف على رأس السّوق في أعلاه، فقال: لمن هذا الصّف -يعني صف سوق البزازين-؟ فقالوا: للنّصارى. فقال: لمن الصّف الغربيّ الذي فيه حمّام السّوق؟ فقالوا للنّصارى. فقال بيده هكذا: هذا لهم وهذا لهم -يعني النصارى- وهذا لنا مباح -يعني السّوق الأوسط بين الصّفّين يعني السّوق الكبير الذي كان فيه قُبّة الرّصاص(٢٢).

هكذا، يكون الخليفة عمر بن الخطاب قد أرسى الملامح الاستراتيجية للعلاقة الدائمة والأبدية بين الديانتيْن الإسلامية والمسيحية على طول الأرض وعرضها، والعلاقة الاستراتيجية بين المسلمين والمسيحيين في المدينة المقدّسة لكلا الديانتيْن السماويّتين. فقام المسلمون، منذ الخليفة عمر بن الخطاب نفسه، بالشروع في الإعمار والعمران في المنطقة الفارغة؛ غير المأهولة بالسكن أو السكان، ولا بالمقدسات. كما احتفظ المسلمون بكل ما وقع بين أيديهم من أثر مسيحيّ، بالإضافة إلى تتبعهم لمسارات المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وأثره وآثاره في القدس، مثل: مهد عيسى عليه السلام الذي سوف نتطرق له لاحقًا.

بذلك، نجد أنه على مستوى العمران الإسلامي في القدس لم يكن – بأيٍّ حال- على حساب الآخرين، بدءًا من فاتح المدينة الخليفة عمرَ بنِ الخطاب، رضي الله عنه؛ الذي بنى للمسلمين المُصلّى في مكان حيث لا عُمرانَ، ولا منشآت. ولم يشهد أنْ هَدَمَ المسلمون مبنًى كان قائمًا في القدس، ولم يبنوا في مِنطقة كانت مشغولةً من قِبَلِ السّكّان، بل توجَّهوا إلى مِنطقة الإسراء والمعراج، وإلى المِنطقة التي كانت مهملة تمامًا لمدَّة خمسة قرون ونصف.

تميّزت العلاقات بين المسلمين والنصارى في القدس، في الحقب المختلفة بالتسامح وحسن الجوار والتعاون، رغم ما تخللها من الحروب الصليبيّة، ففي أواخر القرن الثامن عشر اتفق الطرفان في مواجهة الحملة الفرنسيّة على بلاد الشام (١٢١٣هـ/١٧٩٨م-١٢١٦هـ/١٨٠١م)؛ إذ قدّم المسيحيون مبلغًا من المال لشراء الأسلحة والذخائر، ولتعمير سور المدينة(٢٣).

لقد كان السلاطين على اتصال مباشر مع مسيحيي القدس بمختلف طوائفهم؛ يتابعون الترميمات والإعمار ويعالجون قضاياهم الخلافية. ولا يمكننا تجاهل الدور الأوروبي من خلال الإرساليات الدّينيّة، ذات الجوهر السياسي بما يخدم سياسات الدول التي تنتمي إليها تلك الإرساليات بهدف إضعاف الدولة العثمانية والهيمنة على إرثها بعد انهيارها. فكان التدخل المباشر في المجتمع المسيحيّ على مدى ما يزيد عن مائة عام.

بريطانيا تقيم الدولة العبريّة والأوقاف تحفظ للقدس عروبتها

منذ مغادرة العثمانيين استلم البريطانيون زمام الأمور في فلسطين، حتى عام (١٩٤٨م)، فيما أطلق عليه الانتداب البريطاني، علمًا بأن بريطانيا كانت أعلنت عن فلسطين وطنًا لليهود، وعلى هذه القاعدة شرعت بحكم فلسطين وتمهيدها لتكون وطنًا آمنًا مريحًا لليهود كما ورد في إعلان بلفور.

لقد أغلقت سلطات الانتداب البريطانية «مديرية عموم الأوقاف» المذكورة أعلاه لمدة ثلاث سنوات، إلى أن أعيد فتحها للمراجعين عام ١٩٢٠م(٢٤). وكان ذلك بإدارة بريطانيّة، إلى أن اعترض المسلمون على ذلك، فتمّ تأسيس المجلس الإسلامي الأعلى في ١٩٢٢/٠١/٠٩م برئاسة المفتي الحاج أمين الحسيني، واستمرّ هذا المجلس في إدارة شؤون أوقاف القدس حتى النكبة عام ١٩٤٨م(٢٥). وأما الأوقاف المسيحية فبقيت تُدار من قبل رؤساء الطوائف التي تتبعها تلك الأوقاف.

هنا برز دور الأوقاف، الإسلامية والمسيحيّة في المحافظة على عروبة المدينة؛ إذ كان كلّ جزء من أراضي القدس وقفًا محبسًا على مصالح العرب والمسلمين، وحقًا قانونيًا لا ينمحي بمرور الزّمن(٢٦)، وكان للأوقاف الإسلاميّة الدّور في تجسيد الهويّة العربيّة الإسلاميّة لمدينة القدس، إذ تتميّز البلدة القديمة من القدس عن جميع المدن العربيّة والإسلاميّة بهيمنة العقارات الوقفيّة (الخيريّة والذّرّيّة) على المشهد العقاريّ فيها(٢٧). كما لعب الوقف دورًا مهمًا في حياة القدس الاقتصادية بأن أنعش كل فروع الاقتصاد، فقد أوجد وظائف لمئات الأشخاص، وجاء ذلك بإدارة اقتصادية على درجة من الكفاءة(٢٨).

كما أنّ الأوقاف الذّرّيّة في القدس حافظت على الملكيّة العائليّة من التّجزئة والضّياع، وكان لها الأثر البالغ في التّجاوب مع الأزمات الاقتصاديّة والسّياسيّة الّتي عصفت بفلسطين منذ الحرب العالميّة الأولى حتّى تاريخه، مرورًا بالثّورة الكبرى عام ١٩٣٦م، والنّكبة في العام ١٩٤٨م، والنّكسة في العام ١٩٦٧م(٢٩).

وأمّا الدّور الأهمّ لأوقاف القدس، منذ الاحتلال الإسرائيليّ في عام ١٩٦٧م فهو أنها شكّلت سدًّا منيعًا في مواجهة عمليّة التّهويد التّي يقوم بها الاحتلال على مدار السّاعة، سواء على

مستوى العمل على الأرض بالمصادرة، أو التّزوير، أو الصّفقات المشبوهة.

رغم ذلك، استطاع الاحتلال بين عاميّ ١٩٦٧م و٢٠١٨م السّيطرة على (٨٠) عقارًا داخل البلدة القديمة عن طريق التّلاعب، وبحجج أملاك الغائبين، الأمر الّذي رفع عدد المستوطنين في البلدة القديمة من المدينة إلى (١٧٠٠) فرد(٣٠).

ختامًا،

ما يزال الاحتلال يوغل في الاعتداء على عروبة القدس، مستهدفًا الأوقاف بأشكال وصور مختلفة تتكرّر يوميًّا، ومنها: الاستيلاء على الوقفيّات تحت ذرائع مختلفة بخاصّة الأمنيّة منها كالاستيلاء على المحكمة الشّرعيّة في عمارة المدرسة التّنكزيّة المشرفة على حائط البراق، ومصادرة عدد من المنازل في البلدة القديمة بحجج مختلفة، ومصادرة أسطح المنازل والمحال التّجاريّة وعقارات بحجج مختلفة أيضًا، والاستيلاء على المساجد والمقامات، مثل: مبنى القلعة، ومقبرة مأمن الله... الخ، وتصنيف بعض الأراضي الوقفيّة كأراضٍ خضراء لإقامة حدائق توراتيّة عليها، ممّا يعني حرمان أصحابها من سبل الانتفاع بها، وطمس هويّتها العربيّة الإسلاميّة(٣١).

هكذا، نجد أنّ مدينة القدس تشهد صراعًا حقيقيًّا على ملامحها الحضاريّة وهويّتها الدّينيّة والقوميّة؛ إذ إنّ الاحتلال يسعى إلى جعلها ذات لون واحد من خلال السّعي إلى تهويدها، ولكنّ الأوقاف والوقفيّات لجميع الدّيانات تبقى السّدّ المنيع أمام هذا التّوجّه من خلال تعدّد تبعيتها الدّينيّة وتنوّعها، والّتي تعني أنّ القدس عربية حضارة وهويّة؛ بإسلاميتها ومسيحيتها.

هوامش:

١ صبري، عكرمة (٢٠١١): «الوقف الإسلاميّ بين النّظرية والتّطبيق»، دار النفائس. عمان، الأردنّ. ط٢. ص: ١٥.

٢ أبو زهرة، محمد (١٩٧١)، «محاضرات في الوقف»، دار الفكر العربي، ط٢، ص: ٤١.

٣ الحجيلي، عبد الله (٢٠١١): «الأوقاف النّبوية وأوقاف الخلفاء الراشدين». دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ص: ٦.

٤ سرور، موسى (٢٠١٢): «دور الاوقاف الإسلاميّة في التّنمية العمرانيّة في القدس». مجلة حوليات القدس. العدد (١٤). ص: ٦٤-٧٠.

٥ المقدسي (١٩٩١). أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. مكتبة مدبولي. القاهرة. ط٣. ص: ١٧١.

٦ سرور (٢٠١٢).

٧ الأسطل، محمّد زارع (٢٠١٤): «الحياة الفكريّة والثّقافيّة في مدينة القدس في العهد المملوكيّ (٦٤٢هـ-٩٢٢هـ/ ١٢٥٠م-١٥١٦م)». رسالة ماجستير غير منشورة. الجامعة الإسلاميّة. غزة. فلسطين. ص: ١٢.

٨ العسلي، كامل (١٩٩٢). القدس تحت حكم العثمانيين. في «القدس في التاريخ/ ترجمة كامل العسلي. تحرير: إبراهيم محمود الحسنات. الجامعة الأردنية. عمّان. ص: ٢٣٣-٢٧٠». ص: ٢٣٥.

٩ مجمّع عمرانيّ ضخم، يضم مسجدا وخانًا ورباطًا ومدرسة و(٥٥) غرفة لإقامة الصّوفيّة، ومطبخاً يقدم وجبات للفقراء ولمجاوري المسجد الأقصى المبارك، وفرناً ينتج (٢٠٠٠) رغيف يوميًا. وأوقفت عليها أراضي (٢٤) قرية ومزرعة.

١٠ سرور (٢٠١٢).

١١ الجبوري، أحمد (٢٠١٠): «القدس في العهد العثمانيّ (1516-1640)». الجزء الأوّل. دار الحامد للنشر والتوزيع. عمّان. الأردن. ص: ١٧١-١٧٣.

١٢ الوعري، نائلة (٢٠١٤): «دور مديريّة عموم أوقاف القدس الشريف». مقدم إلى مؤتمر «استراتيجية النهوض بواقع أوقاف القدس الشريف». الجامعة الأردنية. عمّان. غير منشور.

١٣ العارف، عارف (١٩٩٩): المفصّل في تاريخ القدس. مكتبة الأندلس. القدس. ط٥. ص: ٤٧.

١٤ العارف (١٩٩٩). ص: ٧٦.

١٥ العارف (١٩٩٩). ص: ٧٧.

١٦ كما كانت توجد كنيسة العذراء الجديدة التي بناها جوستانيان الأول سنة (٥٤٣م).

١٧ يعرف بدير قسطنطين، بني بعد سنة (٤٩٤م)، فيه ثلاث كنائس، هي: كنيسة القديسة هيلانة، وكنيسة القديسة تقلا، وكنيسة مار يعقوب.

١٨ الحنبلي، مجير الدين (١٩٧٣). الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل. ج٢. مكتبة المحتسب. عمّان. الأردن. ص: ٥١، ١٧٠؛ اللهيبي، فتحي سالم (٢٠١٣). دراسات في علاقة الأرمن والكرج بالقوى الإسلامية في العصر العباسي. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ط١. ص: ١١٠-١١٢؛ شامية، فادي (٢٠١٠). الممتلكات والأوقاف المسيحية في القدس. في: «دراسات في التراث الثقافي لمدينة القدس. تحرير: محسن محمد صالح. مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات والحملة الأهلية لاحتفالية القدس عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٩. بيروت. لبنان. ص: ٢٤٧-٢٦٨»؛ داود، جورج (٢٠١٣). الأوقاف المسيحية في القدس خلال القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين. في: «مؤتمر بيت المقدس الإسلامي الدولي الرابع: الأوقاف الإسلامية والمسيحية في القدس تحت الاحتلال الإسرائيلي. الجزء الأول. تحرير: محمود سعيد أشقر وخالد علي زواوي. وزارة الأوقاف والشؤون الدينية. رام الله. فلسطين. ص: ٢٨١-٣٠٢». ص: ٢٨٧؛ العارف (١٩٩٩). ص: ٣١-٣٢، ٧٥، ٥٢٦-٥٤٣.

١٩ الحنبلي، (١٩٧٣). ج١. ص: ٢٤٨-٢٥٠.

٢٠ فارس، عزت محمود (٢٠١٠). قراءة في العهدة العمرية. مجلة جامعة دمشق – المجلد (٢٦). العدد الأول. ص: ٢٠٥-٢٢٥.

٢١ العارف (١٩٩٩). ص: ٧٦.

٢٢ الحنبلي (١٩٧٣). ج٢. ص: ٥٠.

٢٣ القضاة، أحمد (٢٠٠٧). نصارى القدس: دراسة في ضوء الوثائق العثمانيّة. مركز دراسات الوحدة العربيّة. بيروت. لبنان. ص: ٤٧٣، ٤٧٨.

٢٤ الوعري (٢٠١٤).

٢٥ العارف (١٩٩٩). ص: ٥١٤-٥١٥.

٢٦ غوشة، محمّد (٢٠٠٩): «الأوقاف الإسلامية في القدس - دراسة تاريخية موثقة –»، المجلّد الأوّل. استانبول, [تركيا]: مركز الابحاث للتّاريخ والفنون. ط١. ص: ١٩.

٢٧ فخر الدّين، منير، وتماري، سليم (٢٠١٨): «الأوقاف والملكيّات المقدسيّة». مؤسسة التّعاون، ومؤسّسة الدّراسات الفلسطينيّة. بيروت. لبنان. ص: ٢٩.

٢٨ العسلي، كامل (١٩٩٢). القدس تحت حكم العثمانيين. في «القدس في التاريخ/ ترجمة كامل العسلي. تحرير: إبراهيم محمود الحسنات. الجامعة الأردنية. عمّان. ص: ٢٣٣-٢٧٠». ص: ٢٣٦.

٢٩ فخر الدّين وتماري (٢٠١٨). ص: ٤٧.

٣٠ قدورة، محمود (٢٠١٨): «جمعيّة المحافظة على الوقف والتّراث المقدسّي. في «الأوقاف الذّرّيّة في القدس الشّريف». منتدى الفكر العربي. مراجعة وتحرير: نادية سعد الدّين». عمان. ص: ٥٠.

٣١ غوشة، صبحي، والعبادي، عبد الله (٢٠١٤): «الأوقاف في القدس: البشر والحجر. في: «الأوقاف الإسلاميّة والمسيحيّة في القدس: الأبعاد القانونية والإنسانية ومستقبل القدس. مراجعة وتحرير: السيدة نادية سعد الدين. منتدى الفكر العربي. عمّان. الأردن. ص: ١٠٣-١١٢». ص: ١٠٥-١٠٦.

القدس في صفقة القرن: تحليل وبدائل

د. وليد سالم*

مدخل

يعالج هذا البحث وضع القدس في إطار « رؤية السلام من أجل الازدهار « ، والمعروفة بإسم صفقة القرن والتي أعلن عنها في البيت الأبيض بواشنطن يوم ٢٨ كانون ثاني ٢٠٢٠ من قبل الرئيس الأميركي دونالد ترامب وبحضور رئيس الوزراء الاسرائيلي بنيامين نتنياهو.

تحلل الدراسة ما أتت عليه الخطة بشأن القدس، ثم تأتي بعد ذلك إلى تحليل انعكاسات بنود الصفقة على القدس، وعلى بقية فلسطين ، وأخيرا تقترح بعض البدائل لمواجهة تداعيات صفقة القرن على القدس بشكل خاص وعلى فلسطين بشكل عام.

صفقة القرن والقدس

ضمن صفحاتها ال ١٨١ الصادرة عن البيت الأبيض باللغة الانجليزية ، تعالج صفقة القرن موضوع القدس في قسم «المقاربة» (ص.٩) ، وقسم « رؤية للسلام بين إسرائيل والفلسطينيين والمنطقة: القسم الخامس (ص. ١٤-١٩). وفي القسمين تتعامل الصفقة مع القدس من منطلق ديني أساسًا ، وذلك باعتبارها مدينة مقدسة للأديان الثلاث ولقسم كبير من البشرية(ص.١٠و ص. ١٥) . وتعطي الأولوية للدين اليهودي من

* أكاديمي وباحث فلسطيني.

وقت قيام النبي ابراهيم عليه السلام بمحاولة ذبح ابنه اسحق إلى أن منعه الله من فعل ذلك، وما تبعه من قيام مملكة داود قبل ٣٠٠٠ عام، ثم قيام الملك سليمان ببناء الهيكل الأول والذي أودع داخله الوصايا العشر. وبعد تدمير الهيكل مرتين ، أخرهما عام ٧٠ ميلادية، راح اليهود حسب الوثيقة / الصفقة يحيون ذكرى تدميره في التاسع من آب كل عام، مرددين عبارة" العام القادم في أورشليم». وحسب الوثيقة فقد جاءت بعد ذلك المسيحية ، فالإسلام للقدس، حيث ذكرت الوثيقة أهمية القدس لكلا هاتين الديانتين، ولكنها تلت ذلك بكيل المديح لإسرائيل بأنها حافظت على الأماكن المقدسة لكل الأديان طيلة فترة حكمها للقدس منذ عام ١٩٦٧، فيما كان السابقون لحكم إسرائيل يقومون بتدمير الأماكن المقدسة للأديان الأخرى (ص. ١٦)

وبعد ذلك تشير الوثيقة الى ضرورة ابقاء القدس بدون تقسيم ، وأن هذا الموقف يعكس رأي كل الإدارات الأميركية السابقة ، كما ينعكس في قانون القدس العاصمة الذي أقره الكونغرس عام ١٩٩٥(ص.١٦).

تشرعن الوثيقة / الصفقة ابقاء القدس ضمن حدود جدار الفصل العنصري غير مقسمة وخاضعة خضوعًا تاما للسيطرة الاسرائيلية ، فيما تخرج من القدس مناطق سبق أن ضمتها اليها والمكونة من كتلتين غير متواصلتين جغرافيا : الكتلة الأولى هي كفر عقب وسمير أميس ومخيم قلنديا وقرية قلنديا القريبة على مدينة رام الله، والثانية هي كتلة مخيم شعفاط وضاحية السلام ورأس خميس وأقسام من عناتا القريبة نسبيا لأبو ديس والعيزرية وهما مناطق ب حسب تقسيمات اتفاق أوسلو ٢ لعام ١٩٩٥، والتي تعني خضوعهما للسلطة الوطنية الفلسطينية في الشؤون المدنية وخضوعهما لإسرائيل فيما يتعلق بالشؤون العسكرية. وتشمل هذه المناطق ١٢٠ الى ١٤٠ ألف مواطن فلسطيني يساوون اقل بقليل نصف فلسطينيي القدس الشرقية الواقعة تحت السيطرة الاسرائيلية الكاملة والذين بلغ عددهم زهاء ٢٨٤،٩٢٦ نسمة في منتصف عام ٢٠١٨ حسب احصائيات الجهاز الفلسطيني المركزي للاحصاء(كتاب

القدس الإحصائي، ٢٠١٩، ص. ٢٧). ويعني ذلك أنه سيبقى في القدس المضمومة قسرًا إلى إسرائيل ما بين ١٤٤ و ١٦٤ ألفًا من الفلسطينيين فقط ، مقابل ٢٢٥،٣٣٥ مستوطنًا إستعماريا اسرائيليًا يقيمون في نفس المنطقة (نفس المصدر، ص. ١٧٥). أي سيصبح الفلسطينيون أقلية سكانية في الجزء المضموم من القدس الى اسرائيل حسب الصفقة.

تتضمن الصفقة فكرة إقامة عاصمة فلسطينية تسمى القدس (ص.١٧) في كتلتي كفر عقب ومخيم شعفاط غير المتواصلتين جغرافيا مضافا لهما ابو ديس، وحيث أن الأخيرة تخضع للسلطة الأمنية الاسرائيلية العليا، فإن ذلك يعني أن ما سيضم اليها من كتلتي كفر عقب ومخيم شعفاط سيخضعان لنفس السلطة العليا، وقد أكدت صفقة القرن من جهة أخرى أيضا أن السلطة الأمنية العليا ستبقى بيد إسرائيل على كل المناطق التي ستحول إلى الدولة الفلسطينية ، وبذلك فإن الصفقة تعني إلغاء المنطقة أ الواردة في اتفاق أوسلو ٢ بوصفها منطقة تخضع للسيطرة الأمنية والمدنية الفلسطينية في آن معًا، وفي هذا الإطار ستكون السفارة الأميركية التي وعدت الصفقة بإنشائها في مناطق القدس التي ستحال لفلسطين خاضعة أيضا للحماية الأمنية الاسرائيلية .

فيما يتعلق بمفهوم الصفقة لماهية القدس ، فإنها بموافقتها في اجزاء أخرى منها على ضم كافة المستوطنات الاستعمارية إلى إسرائيل ، فإن ذلك يعني تبنيها لمفهوم القدس الكبرى كما حددتها حكومات اسرائيل والتي تشمل كتلة مستعمرات غوش عتسيون التي تلف محافظة بيت لحم وصولًا إلى مشارف محافظة الخليل، كما تشمل كتل مستوطنات معاليه أدوميم وملحقاتها مثل ميشور أدوميم ومنطقة إي ١ المزمع البناء بها، وهي الكتل التي تشمل مخططاتها المستقبلية فكرة توسيعها لتصل حتى البحر الميت. كما تشمل كتلة جفعات زئيف التي تلف قرى شمال محافظة القدس. وإضافة لهذه الكتل الثلاث تقوم الحكومة الاسرائيلية بتوسيع كتلة رابعة من المستعمرات تشمل مستعمرات آدم وكوخاف يعقوب وبسغوت وهي مستعمرات تقر الصفقة ايضا بضمها إلى إسرائيل مما يحد من إمكانية التوسع المستقبلي لمحافظة رام الله.

وبالنسبة للأماكن المقدسة الإسلامية والمسيحية في المدينة تثني الصفقة على دور اسرائيل الإيجابي « كحارس للاماكن المقدسة» كما سبق ذكره ، وفيما تقول ببقاء الوضع القائم في المسجد الاقصى وحائط المبكى (الأخير كان قبل عام ١٩٤٨ مكانًا للصلاة لكل من اليهود والفلسطينيين وليس لليهود فقط كما هو عليه الحال اليوم)، فإنها في المقابل تنص على ان « الناس من جميع الأديان لهم حق الصلاة في الحرم الشريف/ جبل الهيكل بطريقة تحترم كلية أديانهم، مع الأخذ بعين الاعتبار أوقات الصلاة لكل دين ، والأعياد ، وعوامل دينية أخرى»(ص١٦-١٧) . وفي هذا الإطار تدعو الصفقة إلى تنظيم رحلات طيران من الدول العربية والإسلامية بهدف الوصول والصلاة في الأماكن المقدسة في القدس.

يسمح الاقتباس أعلاه بتقسيم الاقصى(والمسمى بجبل الهيكل في الصفقة) مكانيًا وزمانيا بين المسلمين واليهود ، وبالتالي يعطي مصداقية لدعوات منظمات الهيكل للسيطرة على المسجد الاقصى(انظر/ ي: محمود محارب : سياسات اسرائيل للسيطرة على الاقصى في هذا العدد من مجلة المقدسية).

وتذكر الصفقة ٣١ مكانًا مقدسا في القدس منها ١٧ مكانًا مسيحيًا و ١٣ يهوديًا و١ اسلاميا تسميه باسم الأمكنة المقدسة للمسلمين بدون تحديد أي اسم محدد من هذه الأمكنة . وحينما تذكر الصفقة الحرم الشريف فإنها تعتبره مكانًا مقدسًا مشتركًا للمسلمين واليهود.

وتتضمن هذه اللائحة مشكلتين كبريين اثنتين اضافة لاعتبارها الحرم الشريف مكانًا مقدسًا للمسلمين واليهود، وهاتان المشكلتان هما:

اولا : أن الصفقة كما ذكر لا تأتي على إشارة لأي من الأماكن المقدسة للمسلمين سوى بعبارة عامة هي» الأماكن الإسلامية المقدسة» (ص.١٦) وذلك بدون ذكر اي منها بالتحديد، هذا علما أن عدد المساجد من هذه الأماكن فقط يزيد عن ٤٠ مسجدًا حسب دراسة غير منشورة بعد للدكتور حنا عيسى، كما أن الأماكن المسيحية المقدسة

تزيد عن ٧٠ وفق نفس الدراسة. يضاف لذلك مئات المعالم الإسلامية داخل المسجد الاقصى وخارجه.

وثانيًا: أن الأماكن المقدسة ال ١٣ المذكورة لليهود ليست غالبيتها مقدسة كما ورد في دراسة لمؤسسة « عيمق شفيه» الاسرائيلية (عيمق شفيه، شباط ، ٢٠٢٠). وتشير المؤسسة إلى المواقع التالية التي اعتبرت مقدسة في الصفقة فيما هي ليست كذلك : التلة الفرنسية، وممر الحجاج الذي أقامته منظمة العاد اليمينية المتطرفة في سلوان، ونبع جيحون وحدائق داود قرب سلوان ايضا والتي تقوم منظمة العاد بحفريات اثرية فيهما أيضا مع إهمال أهمية هذه المواقع للمسيحيين أيضا ، وأضرحة الرسل حجاي وزكريا وملاخي في جبل الزيتون مع أنه لا توجد دراسات علمية تؤكد وجود هذه الأضرحة في تلك الأماكن، ومقبرة سامبوسكي ، وكنيس هورفا. كما اعتبرت مقبرة جبل الزيتون مكانًا مقدسًا لليهود وأهملت أهمية الجبل الدينية المقدسة للمسيحيين . يعني ذلك أن الصفقة تحاول تزوير التاريخ واختراع أماكن يهودية مقدسة جديدة من أجل تبرير الاستحواذ على المدينة.

وعدا هاتين المشكلتين فإن الصفقة تطرح فتح الأماكن المقدسة في القدس للسياحة والصلاة للمؤمنين من كل أنحاء العالم، وتعطي إسرائيل صلاحية تنظيم ذلك، كما تطرح اشراك الأردن في تنظيم السياحة الإقليمية نحو القدس والأماكن المقدسة (ص.١٩) فيما تقسم المناطق الفلسطينية إلى أجزاء ، وتعطي الامن الإسرائيلي أولوية ، وبالتالي تجعل القدس مفتوحة لكل العالم ما عدى الفلسطينيين بذريعة الأمن.

وفي مجال الحقوق، تطرح الصفقة نقل ال ١٢٠ إلى ١٤٠ ألف من المقدسيين في كتلتي كفر عقب ومخيم شعفاط من حالة الهوية المقدسية التي ليست سوى حالة « إقامة لمواطنين اردنيين في ارض إسرائيل» وذلك حسب التعريف الاسرائيلي بعد ضم القدس أرضا إلى إسرائيل عام ١٩٦٧ بدون ضم سكانها إلى الأخيرة (سالم، ٢٠١٨) ، إلى حالة المقيمين الفلسطينيين تحت ظل السلطة الوطنية الفلسطينية ، وبالتالي يصبح

لهم الحق في الحصول على الجواز الفلسطيني وتنزع عنهم صفة الإقامة التي كانت تعطيها إسرائيل لهم. يتضمن هذا التوجه تفريغا سكانيا للمدينة من أجل ضمان أغلبية يهودية في القدس الشرقية كما سبق ذكره أعلاه. في المقابل تضع الصفقة ثلاثة خيارات أمام ال ١٤٤ إلى ١٦٤ ألفًا من الفلسطينيين الباقين تحت السيادة الاسرائيلية المفروضة في القدس، وهذه الخيارات هي: إما أن يحصلوا على الجواز الفلسطيني الذي لا يعطي وضعًا اكبر من حالة الإقامة في فلسطين نظرًا لأن الصفقة لا تعطي فلسطين وضع السيادة على الإقليم والشعب والحكومة، وإما أن يحافظوا على وضع الإقامة القائم، والخيار الثالث هو الحصول على الجنسية الاسرائيلية .

الخيار الأخير لا تقبله غالبية المقدسيين وطنيًا ، كما أن من الصعب الحصول على الجنسية الاسرائيلية لمن يتقدمون بطلبات للحصول عليها نظرًا للإجراءات المعقدة والمهينة التي تشمل الفحص الأمني وشروط مثل إتقان اللغة العبرية واثبات الولاء . ولذلك يبقى خيار الإقامة في المدينة والذي يتعرض للمطاردة الاسرائيلية من خلال سحب الهويات لمن يقيم خارج القدس ، وفرض الضرائب الباهظة، والامتناع عن توفير رخص السكن مما يجبر الأهالي للسكن خارج المدينة وبالتالي فقدان هوية الإقامة. يترتب على ذلك أن الصفقة تطرح شكليًا ثلاثة خيارات، ولكنها تلغي فعليا خيار التجنس بالجنسية الاسرائيلية ولا تعطيه الا لأقلية محدودة من آلاف الطلبات التي تقدم لذلك، كما تجعل الإقامة في المدينة رهن المطاردة، وبالتالي فإن خيار اسرائيل في القدس هو خيار السيطرة على أرض بدون سكان عبر الترحيل المتدرج للمقدسيين إلى خارج القدس. ويلاحظ هنا أن الصفقة تطرح خيار الإبقاء على حالة الإقامة في المدينة بصيغة ملغومة حيث نصت الوثيقة على أن قسمًا من المقدسيين « يريدون الحفاظ على هوية منفصلة عن فلسطين وإسرائيل تسمح لهم بالفخر بهويتهم المميزة وتاريخهم، وهذا الخيار يجب أن يكون متاحًا لهم»(ص.١٧). هذا وكأن سعي الفلسطينيين المقدسيين للحفاظ على وجودهم في القدس من خلال حفظ الإقامة فيها هو سعي

للانفصال عن فلسطينيتهم.

اخيرا تطرح الصفقة في الجانب الاقتصادي، تطوير منطقة سياحية في عطروت بمستوى عالمي وتضم فنادق ومطاعم وحوانيت ووسائل مواصلات مريحة نحو الحرم الشريف ويساهم الأردن في تنظيم السياحة الإقليمية نحوها (ص.١٩) ، وإنشاء شركة مشتركة لتنمية البلدة القديمة من القدس بدون المساس بالسيادة الاسرائيلية عليها تقدم لها إسرائيل جزءا من عائدات الضرائب(نفس الصفحة).

انعكاسات بنود الصفقة على القدس وفلسطين

بناءً على ما تقدم، وبموافقتها على ضم المستوطنات الاستعمارية إلى إسرائيل ، فإن الصفقة تجعل السيطرة على القدس أولًا مدخلًا لتمزيق الضفة الفلسطينية إربا،ومنع قيام دولة فلسطينية متواصلة جغرافيا، وذلك عبر توسيع الاستيطان الاستعماري في القدس تحت عنوان إنشاء مشروع القدس الكبرى المطروح ليصل إلى البحر الميت شرقا، وإلى مداخل الخليل جنوبا، والى محيط رام الله شمالًا ، علما أن مخطط القدس الكبرى المستقبلي سيجعلها تصل إلى مستعمرة شيلو في منتصف الطريق إلى نابلس شمالًا. يعني ذلك ابقاء حدود القدس مرنة ومفتوحة للتوسع الدائم بما يلغي أي حدود ثابتة حتى لدولة فلسطينية بدون القدس. ويتضمن هذا المشروع ايضا تغيير الطابع العربي الإسلامي للبلدة القديمة عبر المشاريع المطروحة لإنشاء تلفريك وحديقة توراتية ومرافق سياحية عبرية حولها، وكذلك ربط المستعمرات الاستيطانية داخل المدينة ببعضها البعض لتضييق الخناق على الأحياء الفلسطينية تمهيدا لإجبار أقسام أوسع منها للرحيل عن المدينة.

وثانيًا: لا تأتي الصفقة بأية كلمة فيما يتعلق بحقوق المقدسيين في أملاكهم في القدس الغربية، وهي بالتالي تطرح حلًا لقضية لاجئي القدس عام ١٩٤٨ ونازحيها لعام ١٩٦٧ خارج فلسطين ، وذلك تساوقا مع نصوص الصفقة التي تدعو لحل قضية اللاجئين عبر

توطينهم في الخارج بما في ذلك استيعابهم تدريجيا في دول الخليج العربي.

وثالثا: مع فرضها للسيادة الاسرائيلية على المدينة، تنزع الصفقة الحقوق الوطنية الجماعية للمقدسيين الباقين في مدينتهم ، ولا تبقي لهم ما هو أكثر من حقوق إنسانية فردية قابلة للانتزاع عبر التهجير وسحب الهويات، كما وتضعهم على شفير الترحيل. هنا يجب الإشارة أيضا إلى إزاحة كتلتي مخيم شعفاط وكفر عقب المكتظتين بالسكان إلى خارج القدس لحل مشكلة التناسب الديمغرافي في القدس الشرقية ، ومما يعني أيضا إخراجًا للاجئي مخيمي قلنديا وشعفاط من المناطق المضمومة لإسرائيل. يضاف لذلك إهانة للمقدسيين الذين يحافظون على الإقامة في المدينة بنعتهم في نص الصفقة بإسم المقدسيين الفخورين الذين لا يريدون الارتباط مع السلطة الوطنية الفلسطينية كما سبق ذكره. مع ما سيتبع ذلك من إمكانية إقفال مكاتب وكالة الغوث الدولية في المدينة.

ورابعًا: بتركيزها على الطابع الديني للصراع ، وحق اسرائيل في استمرار حراسة الأماكن المقدسة ، تخلق الصفقة وضعًا متفجرا في المسجد الاقصى من خلال تعزيز نشاطات منظمات جبل الهيكل الهادفة للصلاة فيه وتقسيمه مكانيا وزمانيا، عوضا عن أن هذا التوجه يخلق توترا مع الأردن وحق الرعاية الأردنية فوق الأماكن الدينية المقدسة في القدس كما ورد في نصوص اتفاقية السلام الاسرائيلية الأردنية لعام ١٩٩٤.كما أن هذا التوجه يخلق حالة يصل بها اصحاب الديانات الثلاث في العالم الى القدس ، فيما يحجر هذا الحق عن المسلمين والمسيحيين الفلسطينيين من الضفة وغزة.

وخامسًا : هنالك آثار أخرى منها وأد أي وجود مؤسسي فلسطيني في القدس سواء كان سياسيًا أو تعليميًا أو صحيًا وغير ذلك طالما هي عاصمة إسرائيل واعتقال الشخصيات الفلسطينية المقدسية ومنعها من حرية الحركة والتنقل ، ومنع القيام بنشاطات فلسطينية في القدس كما هو جار. يضاف لذلك منع الأسرى المحررين المقدسيين من تلقي أموال من السلطة الوطنية الفلسطينية حيث طالبت الوثيقة ضمن إحدى شروطها السلطة الوطنية الفلسطينية بأن توقف دفع مساعدات للأسرى وعائلاتهم.

خيارات وبدائل

لا تقل صفقة القرن عن كونها محاولة لاستخدام قدرات اكبر قوة عظمى في الكون من أجل الاجهاز على الإنجازات الفلسطينية ، وإعادة القضية الفلسطينية إلى نقطة الصفر . وفي القدس يظهر هذا الاستنتاج بشكل جلي للغاية.

وفيما تحافظ فلسطين على إعترافات ١٤١ دولة من العالم بها، وتبقى قرارات الشرعية الدولية ثابتة بشأنها، فإن هدف التحالف الأميركي الصهيوني هو الاجهاز على فلسطين على الأرض بحيث تصبح الاعترافات والقرارات الدولية غير ذات صلة.

يترتب على ذلك أن المعركة من أجل القدس لا تنفصل عن المعركة من أجل استعادة فلسطين مجددا على الخارطة، وهو ما يقتضي مشاركة الكل الفلسطيني ، بما يتضمن مهمات ومسؤوليات لكل فرد ، حيث لم يعد أحد معفى من المسؤولية. ويشمل ذلك فعل الجاليات الفلسطينية الموحد في أميركا وأوروبا وباقي دول العالم من أجل تغيير مواقف دول العالم والتأثير فيها، واستعادة اللاجئين لكرامتهم من خلال إستنهاض الكفاح الجماعي من أجل حق العودة. وفعل الفلسطينيين داخل الوطن بأشكال كفاحية ميدانية ابداعية كإعادة بناء العراقيب عشرات المرات ، وإقامة قرى باب الشمس والكرامة في الضفة ، وكذلك فعلهم لبناء التنمية المبنية على المجتمع المحلي مما يعزز الصمود الإيجابي الذي يبني للمستقبل وليس مجرد الصمود السلبي المستكين، إضافة لتنمية المنتجات المحلية والاستغناء عما عداها. على أن يتم تنسيق كل هذه الجهود من قبل منظمة التحرير الفلسطينية الموحدة والتي تضيف اليها العمل الدبلوماسي مع المؤسسات الدولية ودول العالم، ورفع القضايا للمحاكم الدولية ومتابعتها. أي تحقيق التكامل بين البعد الشعبي المقاوم والتنموي وبين البعد الرسمي الدبلوماسي والقانوني. واذا ما خططت هذه الأفعال بشكل جيد ومتراكم فإنها كفيلة بتجاوز الأزمة واستعادة فلسطين خلال عدة سنوات لا أكثر.

أوراق ثقافية

فاروق وادي: بيتيّ الأول هو بيت عرفات الأخير

حاورته بديعة زيدان

تجربة الكاتب والروائي الفلسطيني فاروق وادي، هي تجربة وطن بأكمله، ما بين الأرض الحبلى بالذكريات وبرائحته المذابة بالهواء وبخطوات العائلة في أرجائها، وما بين المنافي، قبل العودة الجزئية، ثم المغادرة.. فما بين مسكنه الطفوليّ في «المقاطعة»، مروراً بتجاربه الكتابية الأولى، وخصوصية رام الله، وتجربة بيروت، وحكاية مخطوط إميل حبيبي، وعلاقة درويش بكتابة وادي لـ«منازل القلب»، وليس انتهاء بالحديث عن تجاربه الإبداعية المتعددة، وآخرها رواية «سيرة المشتاق».. إنها رحلة سردية إنسانية بمثابة سيرة لوطن بأكمله، معه كان لـ«أوراق فلسطينية» الحوار التالي:

لنتحدث بداية عن مسقط رأسك في البيرة، جارة رام الله الاقرب. كيف أثر ذلك على كتاباتك كونك ابن الوطن والمنفي والعائد؟

ـيبدو لي أنني وُلدتُ على الخط الوهمي الفاصل بين (مدينتيّ) البيرة ورام الله. وقد جرى قيد الولادة في مبنى «الصّحيّة» القريب من مدرسة الفرندز، فكنتُ بذلك من مواليد البيرة. لكن البطاقة الشخصيّة التي استلمتها بعد اتفاقيات أوسلو، وغدوتُ بموجبها «مواطنًا» فلسطينيًا عائدًا، تشير إلى أنني من مواليد رام الله!؟

حين رحل ياسر عرفات، كتبتُ عن تلك المفارقة التي صاغتها الوقائع الموضوعيّة ولم تصنعها

بلاغة اللّغة. تلك المفارقة التي جعلت من ترابي الأوّل الذي شهد مسقط رأسي، هو نفسه تراب ياسر عرفات الأخير، في الوقت الذي كان فيه بيتي الاسمنتي الأوّل، الذي انتقلت إليه العائلة بعد ولادتي، هو بيت عرفات الأخير.. الذي تشبّث به بشراسة إلى أن غادره «شهيدًا.. شهيدًا» إلى بيته الأخير.

دعيني أشرح قليلاً: إذا أردت أن أشير إلى مكان مسقط رأسي بدقّة، وفي دائرته الأكثر تحديدًا، فسأقول إنني ولدت في خيمة كانت قد مُنحت لوالدي الشّرطي، الذي كان من قبل مقاتلاً ضمن مجموعات «الشيخ حسن سلامة» وتحوّل إلى شرطيّ في البوليس الانجليزي بعد أن أصاب الثورة ما أصابها، ليصبح بالتالي شرطيًا أردنيًا بعد النكبة!

وضمن «الامتياز» الممنوح للشرطة، ضَربت الخيمة أوتادها في تراب «المقاطعة» (التي بنيت في عهد الانتداب البريطاني وكان يُطلق عليها أيضًا اسم «المركز»)، وهو التراب الذي تردّدت في ذرّاته صرختي الأولى، ثمّ حوى جثمان عرفات بعد سنوات طويلة، ليقام ضريحه بعد ذلك فوقه. أما المقاطعة نفسها، بيته الأخير، فقد كانت المكان الذي مُنحت فيه عائلتنا غرفة بجدرانٍ دافئة، حفاظًا على صحّة وحياة الطّفل الوليد، الذي هو أنا. وهي جدران بيت عرفات الأخير.. الذي حوصر فيه وتشبّث به بعناد أسطوريّ حتى اللحظة الأخيرة.

وإذا كانت تلك الحكاية تحتاج إلى توضيح، فهو القول إن ما أرويه لا يحمل أيّة بلاغة أو مدلول سياسي يستهدف الإشادة بالزّعيم. وهو حديث لا يطمح سوى لمجرّد الإشارة إلى أن مصير ومسار حياة من عاش زمن عرفات وارتبط بمشروع التحرر الوطني الذي قاده، وسار معه في تلك الرّحلة التراجيديّة.. هذا المصير يظلّ يتقاطع بشكلٍ أو بآخر، وإلى هذا الحدّ أو ذاك، مع حياة القائد نفسه ومصيره. أقرِّر ذلك، رغم حرصي الشديد، طوال أكثر من ثلاثة عقودٍ من الزّمان، على حفظ المسافة بين المثقف والقائد، أو المسؤول السياسي. حتّى أستطيع القول، من دون الحاجة إلى أيّ تفسير أو تأويل، إنني لم أدخل يومًا، ولا لأيّ سببٍ من الأسباب، مكتبًا أو مقرًا لياسر عرفات، أو من خلِفه، لا في بيروت ولا في تونس أو في رام الله أو غزّة.. وغيرها!

بعد المقاطعة، انتقلت عائلتنا للسكنى في بيتٍ قرميديّ صغير يقع في منطقة قريبة من مكان

مولدي (علمتُ في وقتٍ متأخر أن اسمها: «رأس الطاحونة»)، وهي المنطقة التي أطلقتُ عليها في النّص المكتوب في المنفى، أوائل التسعينات، وقبل أن أعثر على اسمها الحقيقي، اسم «حارة الفردوس». هناك، كان البيت الذي عشتُ فيه سنوات طفولتي الأولى. وعلى مسافة من البيت وساحة الحارة، وفوق ربوة تظللها أشجار عالية معمِّرة، كانت تقع روضتي (روضة السّت «عدلة العقّاد»)، التي شغلت الطّابق السّفلي لبيت «عبد الله الجودة»، رئيس بلديّة البيرة في حينه، ومالك العقار. وفوق الرّوضة مباشرة كان يقع بيت السيدة سميحة خليل وزوجها المربي سلامة خليل. في تلك الرّوضة، عثرتُ على حروفي الأولى في الحياة!

ذلك البيت، وتلك الحارة، وروضة الأطفال، استعدتها جميعًا بكثيرٍ من التخييل ودرجة كبيرة من النوستالجيا الجارفة، في روايتي «رائحة الصّيف». ثمّ سردتُ تجربة العودة إلى ذلك البيت في «منازل القلب» ووقائع زيارتي لأصحابه، جيراننا الذين تقاسمنا معهم المساحة الضّيقة والمطبخ الصغير الذي فصَلناه بيننا بلوحٍ من الخشب الرّقيق كان يسمح لسيّدتيّ البيتين بإزاحته قليلاً لتبادل شيء من الملح والبهارات وتلقيمة القهوة. وهم الجيران الذين لم تخفت علاقتنا بهم حتى اللّحظة.

لن أنسى أبداً الحياة في بيتي الأوّل، الذي شهد سنوات طفولتي الأولى، وما يعنيه هذا البيت في وعيي وذاكرتي وتجربتي. وهي المسألة التي أفرط «غاستون باشلار» في الحديث عنها في كتابه «جماليات المكان»، وإن كان يشكّل بيت منفاي الأول، أو على الأدق بيت منفى العائلة الأكثر استقلالاً، إذا ما قفزنا عن الخيمة وغرفة المقاطعة. وأذكر كم كانت جدران ذلك البيت تنتحب وهي تصغي في ليالي الشتاء لحكايات خروج العائلة من ديارها وقريتها «المزيرعة» المطلّة على السهل السّاحلي وزرقة البحر.

بعد ذلك انتقلنا للسكنى مقابل منتزه البيرة على أوّل طريق القدس، ثم إلى رام الله بالقرب من «ميدان المغتربين» و»سينما الجميل». درستُ في «البيرة الجديدة» و«رام الله الإعداديّة»، ثمّ في «رام الله الثانويّة»، وتخرّجت من «المدرسة القوميّة» بالإسكندرية.

لقد بقيت رام الله هي مكاني الأثير للكتابة. كانت كذلك من قبل في روايتي الأولى «طريق إلى

البحر»، حيث أيام الشباب واللّحظة التي شهدتُ فيها سقوطها في الـ ٦٧ والعودة إليها وإلى القدس بتصريح زيارة، ثم حضرت في «رائحة الصّيف»، وأعتقد انها ستكون كذلك في ما سوف أكتب لاحقًا، طالما كنت قادرًا على مواصلة الكتابة!

شيء واحد أود أن أضيفه هنا:

في «رائحة الصيف» ذهب بي شطط الخيال وجموحه لأن اتخيّل فندقًا يقام في «حارة الفردوس». وعندما عادت «شهد»، ابنتنا المقيمة في لشبونة، من زيارتها الأخيرة لفلسطين، ذهبت لزيارة ذلك البيت، وعادت لتقول لي بأن فندقًا قد أقيم في الحارة بالقرب من البيت.. ربما في المكان الذي حدّدته تخييلات النّص. الأمر الذي حرّضني على التفكير بمعاودة زيارة رام الله/ البيرة والإقامة في حارتي الأولى، في الفندق نفسه. غير أنني سرعان ما طردت الفكرة، بعد أن داهمني كابوس راعب ينكر وجود فندق في حارة الفردوس وبجواره عمارات عالية مكتظّة.. وفي الشّارع كنتُ أرى ازدحامًا مروريًا لسيارات يضيق بها هواء المكان، ويضجّ بحديدها اسفلت شارع كنا نقطعه ونحن دون الخامسة متوجِّهين طلبًا لعلم السّت عدلة، ليتحوّل بعد انتهاء الدّوام المدرسي إلى ملعبٍ لكرة القدم.

سرعان ما ألغيت الفكرة ولم أذهب إلى رام الله بعد ذلك، رغم ان المدينة ما زالت تأتيني بنفسها لتزورني كلّ يوم، بشكلها القديم، من خلال الذّاكرة المستيقظة والحلم المتجدِّد.

حديث البدايات

حدثنا عن بداياتك في الكتابة وكيف اكتشفت الكاتب بداخلك؟ وماذا عن حكايات النشر الاولى؟

ربما تكون البداية تميّزًا على صفحات دفتر الإنشاء المدرسي، حيث كان أستاذي للّغة العربيّة في مدرسة البيرة الجديدة، نعيم عطيّة، يطوف على الصفوف الأعلى ليقرأ على طلابها «نصوصي» التي ظلّت تدهشه، فكان أوّل مروِّج لنتاجي الأدبي، وأوّل ناشر لأعمالي.

وإلى جانب جرائد الحائط المدرسيّة التي أتاحت لي نشر نصوص غير مدرسيّة وغير منهجيّة، فقد أصدرت مع ثلاثة من زملائي مجلّة مستنسخة على طريقة الشّمع «ستانسيل»، إلى أن اكتشفني أستاذي للّغة العربيّة في رام الله الثانويّة، خليل السواحري، من خلال المقالات التي كنتُ قد شرعتً بنشرها في جريدة «الجهاد» المقدسيّة. وعندما علم أستاذي بأنني أكتب القصّة القصيرة، أيضًا. أمسك بواحدة من قصصي وكانت بعنوان «الأرجوحة»، فكتب حولها تعقيبًا نقديًا نشره معها في زاوية «القصّة» التي كانت تطالعنا أسبوعيًا في جريدة «فلسطين» المقدسيّة ويشرف عليها شاب موهوب وواعد اسمه يحيى يخلف، كان يدرس في دار المعلمين التابعة لوكالة الغوث برام الله وينشر نتاجه القصصي في مجلّة «الأفق الجديد» التي كانت تصدر في القدس ويرأس تحريرها الشّاعر أمين شنّار.

في المدرسة الهاشميّة الثانويّة في البيرة، كان هناك أستاذ لغة عربيّة آخر لم يدرّسني، ولكن كان له فضل كبير عليّ وعلى جيلي من «مشاريع الكتّاب» في حينه، وأشير هنا إلى الاستاذ محمود شقير. وقد عمل شقير، في منتصف الستينيات في جريدة «الجهاد»، وكان مشرفًا على زاوية يوميّة للقصّة القصيرة تحتل مكانًا مهمًا في الجريدة، حيث تقع في صفحتها الأخيرة. وقد نشرتُ فيها عددًا من قصصي المبكّرة التي لم تندرج إحداها في مجموعتي الأولى «المنفى يا حبيبتي». وكان شقير ينشر قصصنا بعد مراجعتها وتحريرها وتدقيقها. وقد كنت واحدًا من «جيل الكتّاب الناشئين»، حسب وصف أستاذنا، الذي كان ينتمي إلى «جيل الشّباب» في حينه، كما عبّر في إحدى مقالاته في «الجهاد»، التي وضع لها عنوان «دراسات أدبيّة»!

من الأسماء التي «درسها» محمود شقير في مقالته وواصلت الكتابة: سمير اسحق، وليد سيف، ليلى الأطرش، محمود الريماوي، فاروق وادي، فؤاد أبو حجلة، محمود الخطيب، يوسف عبد العزيز محمود، عزمي الشعيبي، وابراهيم الغبيش.

بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧، كان من ضمن خساراتنا الكثيرة، توقف «الأفق الجديد» عن الصّدور بعد سقوط القدس الشّرقيّة، ما عنى فقداني حلم الكتابة في المجلّة الأدبيّة التي تصدر في المدينة المقدّسة. غير أن الحلم تحقّق عندما نشرت لي مجلّة «الآداب» اللبنانيّة (وكانت في حينها

ملتقى أدباء الوطن العربي الكبير) أولى قصصي، وكنت طالبًا في سنتي الدراسيّة الجامعيّة الأولى (١٩٦٩)، ثمّ نشرت قصّتي الثانية بعد شهور. وتوالى نشر قصصي القصيرة فيها.

أتاحت لي «الآداب» أن أرى اسمي على غلاف المجلّة، إلى جانب أسماء: فدوى طوقان وعبد الوهاب البياتي وغالي شكري في المرّة الأولى. ثم، ومع نشر القصّة الثانية، كان اسمي إلى جانب أسماء: إحسان عباس ومحمود درويش وصلاح عبد الصبور وخليل حاوي.. وغيرهم.

عن قصّتي الأولى كتب الناقد سامي خشبة، وعن القصّة الثانية كتب الناقد صبري حافظ. وقد أجمع الاثنان على الإشادة بتلك القصص العائدة إلى اسمٍ مجهول بالنسبة لهما.. ومن المؤسف أنه لم تتح لي الظروف، للقاء الناقدين لأقول للواحد منهما كلمة شكر.. ولأعبِّر لهما عن مقدار الدّفع الذي شكّلته كلماتهما بالنسبة لي. رحل سامي خشبة قبل أن نلتقي، غير أنني كنت قبل ذلك قد التقيت بزوجته الناقدة السينمائيّة خيريّة البشلاوي أثناء مشاركتنا معًا في مهرجان موسكو السينمائي (١٩٧٧) وحمّلتها كلمة الشّكر التي كنتُ أرغب في ايصالها للأستاذ خشبة، وما زالت الظروف تعارضني لألتقي بالناقد صبري حافظ. والقصّتان نشرتا في مجموعتي «المنفى يا حبيبتي»، ولكنني ما زلت أحتفظ بهما كما نشرتا للمرّة الأولى في «الآداب»، مثلما أحتفظ بالتعقيبين/ الوسامين اللذين نلتهما من ناقدين محترمين.

درويش و«منازل القلب»

ما حكاية أن محمود درويش هو من طلب منك كتابة «منازل القلب»؟

لم يطلب مني محمود درويش كتابة «منازل القلب ـ كتاب رام الله» بشكلٍ مباشر. كلّ ما هنالك هو إنني، في إحدى زياراتي لرام الله (ربما في عام ٩٦)، دعاني أستاذي وصديقي محمود شقير إلى الغداء في مطعمٍ جميل يقع في مبنى عتيق يحتل مكانه في قلب رام الله القديمة. هناك، شاءت المصّادفة أن يأتي محمود درويش ويجلس مع ثلّة من أصدقائه من القياديين الفلسطينيين على طاولة مجاورة. عندما رآنا، جاء بنفسه وسلّم علينا، قال لنا إنه يبحث عنّا كلينا، ويريد الحديث معنا كلّ واحد على انفراد لأمرٍ يتعلّق بالكتابة لمجلّة «الكرمل» التي

يستعد لإعادة إصدارها من الوطن.

صبيحة اليوم التالي، كنت ألتقي درويش في مكتبه الأنيق في «مركز خليل السكاكيني» الثقافي في رام الله، وكان يشرح لي فكرته قائلاً، إنه يعد لزاوية ثابتة في المجلّة سوف تحمل عنوان «مكان الذاكرة.. ذاكرة المكان»، يتناوب عليها كتّاب مختلفون للكتابة كلّ عن مدينته أو مكانه الأثير، وإنه بحكم معرفته بما أكتب وما تعنيه رام الله بالنّسبة لي، في الوعي والذاكرة ومشروع الكتابة، يرشّحني لكتابة نصّ طويل نسبيًا عن رام الله (علمتُ فيما بعد أنه اختار محمود شقير لكتابة نصّ آخر عن القدس). اتفقنا على ذلك وحدّدنا مواعيد التسليم والنشر وأسلوب التواصل.

بعد شهور التقيت محمود درويش في إحدى المناسبات الثقافيّة التي تقيمها «دارة الفنون» في عمّان، وعندما سألني كيف تجري أمور كتابة نصّ رام الله معي، قلت له إن مشكلتي تتلخّص في أنني لم أستطع كبح جماح نفسي، فاستجبت لإلحاح الكتابة، ولم أقدر على وقفها. فقال وهو يضحك: «كنتُ أتوقّع ذلك. ورّطتك في نصّ لمجلّة، فيبدو إنك سوف تخرج علينا بكتاب!». وقد أعلمني، في حينه، أن الأمر نفسه قد حدث مع محمود شقير أيضًا، الذي يبدو أنه سيمنحنا، هو الآخر، كتابًا حول القدس.

هكذا ولد «منازل القلب»، الذي لم يتأخر نشره عن نشر المادة في «الكرمل»، ومعه ولد كتاب محمود شقير «ظلّ آخر للمدينة». والغريب هو اكتشافنا لاحقًا، شقير وأنا، أننا تحدّثنا كلّ واحد منّا عن الآخر في كتابه، من دون علمٍ أو تنسيق مسبق. وقد أشار شقير إلى أنني كنت أنظر من نافذة غرفته في وزارة الثقافة واتطلع نحو ساحة «المقاطعة»، عندما قلت له: في تلك السّاحة الممتدة أمامنا.. كانت ولادتي!

حدث ذلك قبل ثماني سنوات من اختيار ياسر عرفات لتلك الساحة، نفسها، لتكون مقرًا أخيرًا، ودائمًا له!

غواية السيرة

في ذات الاطار نلاحظ ان السيرة تلاحقك وتلاحقها في معظم أعمالك. هل من غواية ما هنا؟

لا أعرف من منّا يلاحق الآخر. أو أيّ منّا يمتلك غواياتٍ استدراجيّة للآخر فيجذبه نحوه.. إلى عالمه!

لكن على الرّغم من أن سيرتي لا تحمل أيّة ملامح تراجيديّة عاصفة، أو أيّ نوعٍ من أنواع البطولات الملحميّة، أو تنطوي على مغامراتٍ شائقة بشكلٍ أو بآخر، إلاّ أنها تبقى، رغم كلّ شيء، سيرتي!

المهم عندي أن أعرف كيف أستثمر الخبرات والتجارب و(وقائع «السيرة»)، إن أردتِ، وكيف أصوغ منها نصًّا ًابداعياً جديرًا بالقراءة على الأقل، رغم أن طموحي يظلّ يهدف أيضًا إلى استثارة المتعة.. إن لم يكن الدّهشة. ولأنني لا أحبّ أن أكتب إلاّ في الأمور التي أعرفها جيّدًا، حقّ المعرفة، حتّى لو شطحت بي التخييلات الجامحة بعيدًا عن مداها الواقعي، فإن الشيء الذي أنا على ثقة من معرفته، هو أن التجارب التي عشتها في هذه الحياة، وخبرتُها بنفسي مباشرة، وأقدمتُ بالتالي على كتابتها بشكلٍ يرضيني (أي الكتابة عن ما أعرفه تمامًا بشكلٍ لا أعرفه)، يجعلني أستطيع الكذب حول المسألة نفسها أيضًا، وهو أمرٌ يمنحني الحق في خوض مغامرة التخييل في القصّة أو الرواية، بلا حدود، وإن كانت كلمة «الكذب» مفهومة في هذا السياق، فدعيني أقولها هنا، لأعني بها شيئًا أبلغ به، ومن خلاله، قمّة الصّدق!

ربما لذلك أراني وقد ابتعدت عن كتابة الرواية التاريخيّة، فهي تنتمي لأمكنة وأزمنة مجهولة بالنسبة لي، ولبشرٍ يعيشون في منأى عني.

لكن ذلك لا يعني إنني أقف ضدّ الرواية التاريخيّة، أو إنني أقلل من قيمتها الفنيّة، بل على العكس، فإنني أظلّ أغبط من يكتبونها، ولكنها بالنسبة لي على الأقل، تبقى كتابتها: ابداعًا مقيّدًا». ويعلم الصديق ابراهيم نصر الله أن روايته «قناديل ملك الجليل»، التي يذهب من خلالها في الزمان والمكان الفلسطيني نحو أزمنة بعيدة نسبيًا، تظلّ تقع في مقدِّمة أعماله الروائيّة الأقرب إلى نفسي ولتقويمي الأدبي والنقدي، ومثلها رواية رضوى عاشور «ثلاثيّة غرناطة»، من دون أن أنسى جوزيه ساراماغو في «قايين» وطارق علي وروايته «تحت ظلال

الرّمّان».. وغيرها.

لا يزعجني أن أستثمر سيرتي في الكتابة، وأعيد استثمارها، إن توافر المبرر الفني لذلك، ووجدتُ الأسلوب المقنع لمثل هذا الاستثمار. ولكن سوف يزعجني أن أثير انزعاج القارئ تجاه كتابة من هذا النوع، تكون مستهلكة، مكرورة، وتبعث على الضّجر!

ما المختلف في سيرة رام الله عن سيرة بيروت. قلت بأن «ديك بيروت» كتاب تخييلي يتكىء على احداث واقعية، هل هذا يبعده عن خانة السيرة؟

ـ ثلاث مدن من تلك التي عشتها في حياتي، تبقى هي الأقرب إلى نفسي وقلبي وروحي، وفيها تميّزت تجاربي وخبراتي في الحياة. مدينة القلب الأولى هي رام الله، بلا منازع (ومعها البيرة بكلّ تأكيد. ودعيني أعترف بأنني في كثير من الأمكنة المتلاصقة والمتداخلة في المدينتين، لا أعرف غالبًا إن كنتُ أقف في البيرة أم في رام الله. وحقيقة إنني لا أريد أن أعرف!). ورام الله هي المدينة التي كتبتها في «منازل القلب» كسيرة، وكتبتها كنصّ تخييليّ، كما أشرت، في «طريق إلى البحر» ثمّ في «رائحة الصّيف».

أمّا مدينة القلب الثانية التي عنت لي الكثير، حياة وتجارب ومشاعر، فهي بيروت، التي طالما حلمتُ، يافعًا وشابًّا، بالاستقرار فيها، قبل أن أذهب إليها. وعندما وصلت إلى بيروت، قبل قليل من الحرب، كانت المدينة تتهيّأ للانفجار، فعشت فيها عقداً من الزّمان، كان بالغ الغنى وشديد الاشتعال.

كتبت تجربة بيروت في «ديك بيروت» ثمّ في «سرير المشتاق» وأشعر بأنها لم تستنفد ذاتها بعد في الكتابة.

لم أقل، ولم يصدر عني ما يشير، إلى أن «ديك بيروت» هو كتاب «سيرة»، من دون أن أتنكر لكونه كتابًا ينهل الكثير من مادته، من تجربتي في المدينة ذاتها.. من بيروت الحرب الأهليّة على وجه التحديد.

كان الخلاف في التجنيس النقدي ل»ديك بيروت»، يتمحور حول كونه «رواية» أو «مجموعة قصصيّة». فهو رواية على اعتبار الوحدة المكانيّة لأحداثه (بيروت) إلى جانب الوحدة الزمانية (زمن الحرب الأهليّة)، مع تكرار ظهور بعض الشخصيّات وتردّدها بين مقطعٍ وآخر. وهو مجموعة قصصيّة لتوافر امكانيّة انتزاع أيّ جزء من الكتاب وقراءته كوحدة سردية قائمة بذاتها ومستقلّة بنفسها. ولم أشهد أيّ خلاف نقدي تجنيسي أو تصنيفي بشأن إذا ما كان العمل «سيرة» أو عملاً سرديًا من نوعٍ آخر. بالنسبة لي المسألة لا تهم، بقدر ما يهمني أن يمتلك النّص قدرته على التعبير والوصول. وكون أيّ عمل يذهب إلى التخييل بشكلٍ أو بآخر، فإن مثل هذا الأمر يخرجه عن السيرة. في «منازل القلب» لم أذهب مطلقًا إلى أيّ نوعٍ من التخييل، كذلك في «٥٩ شارع صفيّة زغلول: كتاب الاسكندريّة» الذي تعذّر نشره حتّى الآن. بإمكان كلّ من ورد اسمه مثلاً أن يراجعني عن دقّة الحدث الذي أرويه عنه في تلك الكتب، من دون أن اتقبّل محاسبتي حول صحّة الوقائع والأحداث في «رائحة الصيف» أو «ديك بيروت» أو «سرير المشتاق»، مثلاً. فمهما أكون قد استفدت، في الأعمال المذكورة من السيرة، أو استثمرتها، إلا أنها تبقى في النهاية «ليست سيرة».

ماذا عن «رائحة الصيف» والذي يبدو ان جزءًا من سيرتك لم يغب عنها؟

في حديثٍ سابقٍ، اعترفت لمحاوري بحقيقة عشتها على الأرض، وهي أنني كنتُ قد دخلت المستشفى، في سنّ السّابعة أو الثّامنة من عمري، وأجريتُ عمليّة جراحيّة باسم «يونس» (الاسم نفسه لشخصيّة طفلٍ في «رائحة الصّيف»، من دون أن تنسحب تلك الحقيقة على كلّ ما جاء في الرواية).

تلك الواقعة المنتزعة من تجربتي الخاصّة، أو سيرتي الذاتية إن أردتِ، دخلتْ إليها عند الكتابة الروائيّة عناصر لم تكن قد وردت في الواقع أصلاً.

لقد «استثمرت» تجربتي في التخفي وراء اسمٍ آخر تحايلاً، فعملتُ على تشييد بنيان روائي يضجّ بالتخييل، ولم أكن أطمح إلى مجرّد تسجيل تجربة حدثت بدقّة، ورصد تفاصيلها كما

جرت تمامًا، من دون زيادة ولا نقصان. لقد تغيّر المكان في الرواية وافترق عن مكانه الواقعي، وفي ذلك كنت أستثمر تجربة أخرى جرت في مكانٍ آخر. لقد كنتُ، منذ اللّحظة الأولى، واعيًا إلى أنني أكتب رواية.

عصفور الشمس

حظيت روايتك «عصفور الشمس» باهتمام نقدي كبير، لماذا برأيك؟

نعم، لقد حظيت الرواية بقراءات نقديّة متميِّزة أضاء لي بعضها جوانب لم أكن نفسي قد وصلت إليها من قبل، وفي مقدمتها قراءة الدكتور محمّد عبد القادر المنشورة في كتابه الهام «جماليات الرّمز والتخييل». إلى جانب قراءة الدكتور فيصل درّاج في «الدستور» الأردنيّة، والدراسة البنيوية المتميِّزة للدكتور هيثم سرحان المنشورة في مجلّة «دراسات سيميائيّة». من دون أن تفوتنا الإشارة لقراءة الروائي رشاد أبو شاور المنشورة في كتابه «قراءات في الأدب الفلسطيني»، وهيا صالح في «الرأي» الأردنيّة (التي عادت ونشرتها في أحد كتبها النقدية)، وقراءة سيلفانا خوري في «النهار» اللبنانيّة.. أرجو أن لا تكون قد فاتتني الإشارة إلى دراسات وقراءات أخرى حول الرواية لم أتمكن من الوصول إليها، ومن ثمّ الإشارة إليها هنا.

أما لماذا حظيت «عصفور الشّمس» باهتمام نقدي أوسع من غيرها، فأعتقد أن الإجابة على السؤال قد لا تكون عندي تحديدًا. ربما تكون الأسماء المشار إليها أعلاه، أو إحداها، أقدر مني على ذلك.

السؤال المتكرر

في كتابك النقدي «ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية» تحدثت عن كنفاني وجبرا واميل حبيبي، هل تعتقد ان هؤلاء هم مؤسسو الرواية الفلسطينية؟ ألا ترى أن اعتمادهم كمرجعية للرواية الفلسطينية فيه ظلم لمن تلاهم من روائيين؟

من الغريب أن يتكرّر طرح مثل هذا السؤال عليّ مجددًا، وكان قد طرح عشرات المرّات منذ صدور «ثلاث علامات» (١٩٨٢)، ويبدو أنه لن يكفّ عن الطّرح. ولو كلّف السائلون أنفسهم قراءة مقدِّمة الكتاب، لتوقفوا عن عناء السؤال، وأعفوني من مهمّة تكرار الإجابة. وقد كان الأمر مبرّرًا عندما كان الكتاب مفقودًا في الأسواق بعد نفاذ نسخه.

لم أقل في المقدمة، أو في متن الكتاب، أن كنفاني وحبيبي وجبرا هم «مؤسسو الرواية الفلسطينيّة» ولم أطالب أحدًا باعتمادهم «كمرجعيّة» وحيدة للرواية الفلسطينيّة. كل ما قلته هو أن الوقوع على هذه الأسماء الثلاثة، أو العلامات الثلاث، لم يكن ضربًا من المصادفة أو اختياراً عشوائيًا أملته نزعة انتقائيّة، بل انه جاء بعد دراسة بذلت جهدها لتكون شاملة في تقصّي مسار الرواية في فلسطين منذ محاولاتها الأولى مطلع القرن العشرين، وحتى صدور «ثلاث علامات» أوائل العقد التاسع من القرن العشرين.

في فصلٍ استبق قراءة هؤلاء الثلاثة جاء بعنوان «من الخطابة إلى الكتابة»، تابعت ما صدر من روايات فلسطينية لم تتوافر على قيمة فنيّة لافتة، لأنتهي إلى القول بأن رواية غسان كنفاني «رجال في الشمس» هي أوّل عمل فلسطيني أسهم في نقل الرواية الفلسطينية من الخطابة إلى الكتابة، الأمر الذي عزّزته الأعمال الروائية التالية لغسّان ومعها أعمال حبيبي وجبرا الروائية.

أما «الظلم» الذي تتحدّثين عنه، فاسمحي «للظالم» بأن يدافع عن نفسه، ويرد من مقدِّمة الكتاب نفسه.. قلتُ إن «ثلاث علامات»، بما تحمله كلمة «علامة» من معاني التحول والتميُّز، مع الحرص على حذف «أل التعريف» (فلم نقل إنها «العلامات الثلاث») «لأننا نؤمن بأن الزّمن ما زال مفتوحاً أمام الإشارات الجديدة لصنع علامات جديدة تقف إلى جانب هذه العلامات، فليس المستقبل حكراً على أحد، ولكلّ زمنٍ علاماته وإشاراته، إلا أن هذه الأصوات الثلاثة ما زالت حتى الآن هي علامات الرواية الفلسطينيّة في زمننا هذا حتى هذه اللحظة»..
هذا هو كلامي بالنّص، وهو موقّع بتاريخ ٢١ شباط ١٩٨١، ولم أدّع يومًا بأن كلامي يصلح لكلّ زمانٍ ومكان!

«الرواد» خارج السياق

ما بعد هؤلاء الثلاثة من هم الرواد برأيك؟ وأتحدث عن الرواية هنا؟

ربما لا تكون كلمة «الرواد» مناسبة في هذا السياق. فالرواد هم الذين يصلون أولاً ويبلغون أرضًا لم يصلها مسافر من قبل. أما وقد وصلنا أرض «الكتابة» مع رواد بلغوها قبلنا، وضربوا أوتاد خيامهم هناك ثم رفعوا بيارقهم فوقها، فإن من يصل بعدهم يكون قد وصل إلى أرضٍ مهد «الروّاد» الطّريق إليها وعبّدوها وأسسوا الأعمدة الأولى فيها، وعلى الواصلين من بعد أن لا يتنكّروا لذلك، حتى لو بلغ نتاجهم مستوى فنيًا يتجاوز المستويات التي قدّمها الأوائل أنفسهم.

عندما توصّلت إلى تحديد الأسماء الثلاثة التي أطلقت عليها «ثلاث علامات»، كنت قد قرأت جميع ما كان قد صدر من روايات فلسطينيّة حتى أوائل الثمانينات، وانخرطت في جهدٍ دراسي سجّلت فيه ملاحظات تفصيليّة دقيقة حول الروايات التي قرأتها. غير أنني مع فقدان بيتي في بيروت ومكتبتي الكاملة فيه، فقدت ضمن ذلك المكتبة الروائية الفلسطينية التي كنت قد جمعتها بعناء، ووضعت على صفحاتها خطوطي وإشاراتي، كما فقدت أوراقي التي سجّلت عليها ملاحظاتي، ولم ينجُ لي من ذلك سوى انجاز دراسة عن سحر خليفة كنت قد نشرتها في عدد خاص من مجلّة «الطريق» اللبنانيّة تمحور حول الرواية العربيّة وصدر قبل حرب ٨٢. ودراسة أخرى عن أفنان القاسم ونشرت في مجلّة «شؤون فلسطينيّة» قبل خروجنا من بيروت، وكان يمكن أن تشكّل القراءتان جزءًا من دراسة موسّعة وشاملة تسهم في عمليّة تقويم نتاج جيل جاء بعد تلك الأسماء الثلاثة.

في تلك الفترة (١٩٨٢)، أجرى معي أستاذي خليل السواحري حواراً لجريدة «الدستور» الأردنيّة، ألحّ عليّ فيه أن أقترح ثلاثة أسماء أرشّحها لتكون علامات روائيّة فلسطينيّة محتملة، فاقترحت: يحيى يخلف وسحر خليفة ورشاد أبو شاور. الآن الوضع يقتضي قراءات أشمل وأكثر عمقًا، ودراسات نقديّة موضوعيّة تخصصيّة. وإن كنت أقترح أن يتولى المسألة شبّان مهتمون، إلا أن متابعتي تجعلني أتوقّف الآن لأقترح عليهم أسماء: ابراهيم نصر الله، صاحب الانتاج

الروائي الكبير حجمًا وقيمة، ومحمود شقير الذي وفد متأخرًا وناضجًا إلى الرواية، وحزامة حبايب، بأعمالها المتميِّزة التي لم تنل حظًا كافيًا من الدراسة والتقدير والاهتمام.

ولأن إجابة السؤال تزج بي، شئتُ أم أبيت، في حقل ألغامٍ مرشّحة للانفجار في وجهي، فدعيني أنهي الحديث بترديد الاعتذار عن كلّ ما نسيت.. أو أخطأت!

بين كتاب وآخر

لماذا يغيب فاروق وادي طويلا فيما بين كتاب واخر؟

لا أعرف، حقيقة، لماذا أغيب بين كتابٍ وآخر، وأين أغيب؟! ولا أستطيع تقدير المدّة التي على الكاتب أن يحضر فيها، أو يغيب، بين كتابٍ وآخر. أعرف أنني لا أتوقّف عن مشاريعي الكتابيّة لحظة، ولا يزعجني من أن يقال عني: «كاتب مقلّ»!

الكاتب المكسيكي خوان رولفو لم ينشر في حياته سوى رواية واحدة هي «بيدرو بارامو»، إضافة إلى مجموعة قصصيّة وحيدة هي «السُّهُب المحترقة»، ولم يمسك له أحدٌ «الحسّابة» ليقول له: هذا فقط يا سيِّد رولفو؟! أين غبت يا رجل طويلاً بين كتابٍ وآخر؟! ومثله يمكن أن نتحدّث حول الكاتب الألماني باتريك زوسكيند، الذي قدّم في الثمانينيات روايته المدهشة «العطر» ليغيب بعدها زمناً طويلاً (أين اختفيت يا باتريك؟!)، ثمّ يعود إلينا بكتاب يتضمّن روايته القصيرة «اليمامة» ومعها بضع قصص قصيرة حملت عنوان «هوس العُمق»، ومؤخراً صدرت له رواية قصيرة أيضًا بعنوان « حكاية السيد زومّر» (ترجمت إلى العربيّة). ولا أحد يسأل زوسكند: «لماذا تغيب بين رواية وأخرى»؟! فالأهم يبقى قراءة وتقويم ما قدّمه الكاتب بعد هذا الغياب. ولنا من الشّاعر البرتغالي العظيم فرناندو بيسوا خير مثال على القلّة والغزارة في الانتاج. فهو لم يصدر في حياته القصيرة (١٨٨٨ ـ ١٩٣٥)، بلغته الأم، سوى ديوان شعر واحد هو «رسالة». وعندما رحل، فاجأ الجميع بأنه كان قد ترك خلفه حقيبة ضخمة من المخطوطات، باسمه واسماء «أنداده» الذين خلقهم بنفسه وكتب بأسمائهم أجمل الأشعار. وقد ظلّت الحقيبة حتى سنوات قريبة معيناً عصيًا على النّضوب، من الشّعر والنّثر معًا. فهل يسأل أحد

من البرتغاليين أين كان فرناندو بيسوا يتسكّع في حانات لشبونة، حتى قتله تشمُّع الكبد؟!

روائيون جدد

من هم الروائيون الفلسطينيون الجدد الآن من جيل الشباب يعتقد وادي انهم سيحملون لواء الرواية الفلسطينية القادمة؟

ليتك قد حدّدتِ لي مفهومك لمعنى «جيل الشباب»، فإن كانت الأسماء التي ذكرتُها في إجابتي على السؤال الثامن من هذا الحوار هم جيل الشّباب، الذي جاء بعد كنفاني وحبيبي وجبرا، فإنني باسمهم جميعًا، أتقدّم إليك بالشّكر على وسمك لهم بالشّباب. أما إذا كنتِ تقصدين جيلاً جاء من بعدهم، فإنني أعترف لك بأن قراءتي لهذا الجيل هي محدودة للغاية لأسباب تتعلّق بمشكلات أعانيها تحول دوني والمتابعة الحثيثة والقراءات المنهجيّة المكثّفة.

مع ذلك فإنني سعدتُ بقراءة روايات أنتجها شبّان جاءوا من بعدنا، وجاءت أعمالهم لتومئ إلى أسماء تعدنا بالكثير. وأشير هنا إلى اسم أكرم مسلّم ورواياته الثلاث «هواجس الاسكندر»، و»سيرة العقرب الذي يتصبب عرقاً»، ثمّ روايته الأخيرة البديعة «بنت من شاتيلا». كما أشير إلى اسم عبّاد يحيى، الذي أتيح لي أن أقرأ له قبل سنوات روايتيه «رام الله الشقراء» ثمّ «جريمة في رام الله». أشرت إلى الأولى في مقال لي في «الأيّام»، وأمّا الثانية فقد جاءت أكثر نضجًا. كما أشير إلى رواية سليم البيك «تذكرتان إلى صفّوريّة»، (علمت أن رواية أخرى صدرت له). ورواية البيك مع رواية عبّاد يحيى الثانية ربما يكون قد ظلمهما ما تميزتا به من جرأة كتابيّة لافتة، حين أطاحتا بأحد وصايا الثالوث المحرّم، وهو أمر يقف ضدّهما في زمنٍ تصرّ فيه السلطات على ارتداء مسوح القوى الدينيّة الأصوليّة.. فكأن المواضعات الاجتماعيّة لا تكفي. وأنا لا أجد حرجًا في كسر تابو الجنس طالما أن الرواية تظلّ حريصة على توافر سويّة فنيّة عالية. وقد يتطلّب حديثي تقديم اعتذار لأسماء أخرى قد لا تقل أهميّة عن من ذكرت، غير أن أوضاعي في القراءة حالت دون الوصول إلى تلك الأعمال، وقراءتها في ظروفٍ أفضل.

عالم المقال

كان لك مشوار طويل في كتابة المقال الصحفيّ المطعم بالأدب، ألا تفكر بنشر مختارات من هذه المقالات في كتاب؟ وهل اعتزلت كتابة المقال؟

أتاحت لي الكتابة الأسبوعيّة في جريدة «الأيّام» الفلسطينيّة أن أكون على تماس دائم مع الوطن، مشكلاته اليوميّة وهمومه الحاضرة، وعلى علاقة دائمة بالكتابة نفسها.. من غير انقطاع مزاجيّ.

لم تغوني كتابة المقال السياسي التحليلي الذي يقضي نحبه في اليوم التالي لصدور عدد جديد من الجريدة. كنت أطمح لأن أكتب مقالة لا يلقي بها القارئ مع الجريدة وينساها تمامًا وكأنها لم تكن. في بداية كتابتي لمقالتي الأسبوعيّة، قال لي أكرم هنيّة، رئيس تحرير «الأيّام»، إنه دخل عيادة طبيب معروف و»رجل سياسة» مشهور في رام الله، فوجد أنه قد اقتطع مقالتي الأولى في «دفاتر الأيّام» وعلّقها على أحد جدران عيادته.

قارئ من هذا النوع يكفيني وحده ليمنحني طاقة على أن أسلخ أسبوعًا كاملاً في كتابة مقالة من خمسمئة إلى سبعمئة كلمة. كما يسعدني أن أجد مقالة كتبتها قبل عقد أو عقدين من الزّمان، ما زالت تمتلك الشروط الكافية لتكون قابلة لإعادة النشر الآن، وتجد لها قراءً ومتابعين. إنني أجد أن المقالة المستوفية للشروط الفنيّة، هي جديرة بذلك، وقابلة للنشر في كتاب، كالقصّة والقصيدة؟!

فن المقالة فن جميل، وكنت أشعر بمتعة فائقة في كتابته. وأنا قارئ جيِّد وتلميذ مواظب للتعلُّم في هذا الفن. هل تصدِّقين إنني أتلقّف (على سبيل المثال) كتب ماركيز التي يجمع فيها مقالاته، بالشّغف الذي ألتقط فيه رواياته وقصصه. وأذكر إنني كتبت ذات مرّة بأن واحدة من قصص ماركيز المطوّرة عن إحدى مقالاته، أحبطتني بعد قراءتها كقصّة، فبقيتُ منحازًا إليها كما نُشرت كمقالة، وأنني جاهدتُ طويلاً لأنسى تلك القصّة، التي قامت على أنقاض مقالة مدهشة.

نشر مختارات من مقالاتي ليس أمرًا صعبًا، وفّري لي الناشر المتحمّس لنشر هذا النوع من الكتابة وأعطيك خمسة كتب بدلاً من واحد. فكتاب المختارات من المقالات ما زال يصطدم بتلك النظرة التصغيريّة السّائدة التي تنظر باحتقارٍ لفنّ المقالة، ربما لكونه كتابًا غير تسويقيّ.

كتاب واحد من كتبي تضمّن مجموعة من المقالات هو «سيرة الظّل ـ نصوص عن آخرٍ هو أنت»، نشر بالمصادفة. وما شجّع الناشر على مغامرة نشره، توافر الوحدة الموضوعيّة لنصوص كتابٍ يتحدّث عن شخصيّات ثقافيّة عرفتها أو التقيتها وعشت معها وعايشت زمانها. وهذه الوحدة الموضوعيّة هي ما أفضّله في موضوع نشر المقالة، الأمر الذي سأحرص عليه عندما أقدِم على النّشر..

وحول «اعتزال» كتابة المقالة الصّحافيّة، فأنا أوثر استخدام مفردة «التوقُّف» لا الاعتزال. وقد توقفتُ عن الكتابة بعد استفحال مشكلات الإبصار لديّ. فليست المقالة هي الجُهد المبذول في الكتابة وحسب، فقد كانت المقالة تتطلّب مني أن أتابع عدّة صحفٍ يوميّة ورقيّة، مع ملاحقة ما ينشر على الشبكة العنكبوتيّة، إلى جانب قراءة موسّعة للكتب بموضوعاتها واهتماماتها المختلفة التي تهمّني، وهو أمر لم أعد أقوى عليه للسبب نفسه. ذلك إلى جانب المشاهدة المكثّفة للأفلام السينمائيّة ومتابعة جديدها، والتردُّد على صالات عروض الفن التشكيلي، والحفلات الفنية والموسيقيّة (لا أحبّ، ولا أرغب، ولا يغويني التردُّد على الندوات والمؤتمرات والقاعات المغلقة التي تستعر فيها شهوة الميكروفون)!

مخطوط إميل حبيبي

تحدثت ذات لقاء عن مخطوط نادر لـ «إميل حبيبي» اطّلعت عليه ثم ضاع عند آخرين.. ما حكايته؟

لم أطّلع على المخطوط وحسب، بل اشتغلت عليه وعملتُ على تحريره، ثمّ أعدت العمل عليه مع إميل حبيبي حينما التقينا في براغ شتاء ١٩٨٢.

تشكّلت مادة الكتاب من «مختارات» واسعة انتقاها الكاتب من مقالاته المنشورة في جريدة

«الاتحاد» (بتوقيع «جهينة») منذ الأربعينات وحتى أوائل الثمانينات. وكان الكتاب المخطوط يقع في خمسة أجزاء/ مجلّدات، كلّ واحدٍ حمل عنواناً مستقلاً. لم أعد أذكر منها سوى العنوان الأخير الذي وضعته مع أبي سلام: «الخروج من القمقم». أما العنوان العريض الذي حملته الأجزاء جميعها فهو: «مذكرات باقٍ في حيفا». والكلمات الثلاث الأخيرة استقرّت محفورة على شاهدة قبر حبيبي في مدينته حيفا.

كان الكتاب في مرحلة الإخراج عندما اندلعت الحرب الإسرائيليّة على لبنان والمقاومة الفلسطينيّة صيف ٨٢، وكنّا في زيارة للأردن، وكنتُ ممنوعًا من السّفر، عندما قررت سناء (زوجتي وزميلتنا في دائرة الثقافة) اقتحام الحصار وزيارة بيروت المطوّقة للاطمئنان عن أصدقائنا وبيتنا ومكتب الدّائرة في منطقة أبي شاكر قرب الجامعة العربيّة، بعد أن دخل الجيش الإسرائيلي، متحالفًا مع القوى الانعزاليّة، أطراف العاصمة اللبنانية. ساعدها على ذلك كونها كانت حاملاً بابنتنا «شهد» وتحمل جواز سفرٍ مصري (استثمرتُ حكاية دخولها في أحد مقاطع «ديك بيروت»). طلب منها مسؤول الدائرة أن تتوجّه لإسماعيل شموط وتأخذ منه مشروع الكتاب، ثمّ تعمل على تسليمه لأحد أعضاء المكتب السياسي في حزبٍ شيوعي عربي، ليعمل بدوره على إخراجه من المدينة المحاصرة إلى إحدى الدول الاشتراكيّة. بعد ذلك تورّط المسؤول الشيوعي في مستنقع التمويل الأجنبي، فضاع شخصيًا وضيّع مخطوطة الكتاب، منكرًا إنه تسلّمها في يومٍ من الأيّام!؟

حول «سرير المشتاق»

قلت بأنك كتبت رواية «سرير المشتاق» قبل سنوات طويلة ثم نحيتها جانباً... ما أسباب التنحية، وثانياً ما الذي حفزك لإكمالها ونشرها الآن؟

عندما يصل الكاتب في عمله الكتابي، ولنقل هنا في روايته، إلى طريقٍ مسدود، فإن عليه أن يتوقّف، ولو إلى حينٍ، خاصّة بعد أن تفشل كلّ محاولاته للعودة إلى مقارعة النّص المعاند. ولو كنت أرغب بأن ألخّص بكلمات قليلة مسألة تنحية العمل جانبًا، لزمن قد يطول أو يقصر،

لاكتفيت بالقول: إن ذلك يحدث بعد تراجع، أو غياب، ما يمكن أن نسمّيه «شغف الكتابة».

فالشّغف هو مُحرّك الإبداع. ثمّة أسرار وديناميّات تكمن وراء اشتعال ذلك الوهج أو انطفائه، ليس من بينها الإرادة الحرّة الواعية. وإذا أردنا أن نستبدل المفردة بأخرى، قد نستخدم كلمة «الحرارة» التي لا تتولد بالرّغبة الذاتيّة.

لقد نحيت ما كتبته من الرواية قبل سنوات، لغياب أو خفوت شغفي تجاه ما كتبت، وانتفاء الحرارة التي تحثّ على مواصلة الكتابة، وكنتُ أقول في نفسي، مخطئاً أو مصيباً، إن العالم لن ينهار إذا ما توقفت لالتقاط الأنفاس، فثمّة من يكتبون أفضل مني وينتجون نصوصًا أكثر جمالاً. ثمّ إن متعة التلقي، بالنسبة لي، لا تعادلها متعة أخرى، حتّى الكتابة، التي تظل تنطوي على شيء من اللذّة وقدر من الألم.

أما كيف أو لماذا عدت إلى الرواية بعد سنوات وواصلت العمل فيها، فقد حدث الأمر عندما عثرت على خيوط كانت غائبة عن النّص المكتوب غير المكتمل، فحثّني ذلك على العودة إلى المشروع والكتابة بشغف هائل أخذني معه. تغيّرت عاداتي في النوم والكتابة. كنت أكتب في كلّ الأوقات.. في الظهيرة مثلاً، أو بعد منتصف الليل، أو أثناء السّفر. ولا أريد الاستفاضة في أسباب أو مبررات العودة للعمل على مشروع قديم، لأن الأمر الطبيعي للكاتب، هو أن يكتب، من دون الاضطرار لسؤاله: لماذا عدت تكتب؟!

ذكرت في تنويه داخل صفحات الرواية بأن الوقائع والشخصيات والاسماء متخيلة، هل هو تمويه روائي أم تنصل من المواجهة مع أشخاص بعينهم او حتى مع سيرتك الذاتية؟

في «سرير المشتاق» كنتُ أكتب رواية لا سيرة ذاتيّة، بمعنى أن مبنى العمل السّردي هنا كان تخييليًا تمامًا، فالخيال هو حقّ أساسيّ من حقوق الكاتب الروائي. ولأن الكاتب يستقي مادة كتابته وعناصرها من الواقع، أو إنه ينطلق منه في تأسيس وقائع روايته وأحداثها ورسم ملامح شخصياته، فإنه قد يضطر إلى التمويه حتى لا يُحاسب بأنه قد شذّ عن الحدود المستقيمة

الصّارمة. ناهيك عن أن الخيال، في كثير من الأحيان، لا يكون خيالاً صافيًا، فهو ينطوي على حقيقة أو شيء من الحقيقة.

فقد تستفيد العديد من أحداث الرواية من أحداثٍ عشتها ووقائع حقيقيّة وقعت، لكنها ليست مُجبرة لان تلتزم بحقيقتها حتّى يتطابق السّرد على الورق بحقيقة ما سردته الحياة نفسها، وإن كان يسعدني كثيرًا أن أعثر على من يصدّق أكاذيبي البيضاء التي تصنعها الكتابة، ويقتنع، من دون لبسٍ، بأن الخيال في الرواية لم يكن خيالاً، وأن شطحي لم يكن شطحًا.

أحياناً أتصوّر أن أحد الأصدقاء سيسألني: ألم نعش هذه التجربة المكتوبة معاً؟ لماذا حذفتني من السّرد؟ فهل أصدمه بالحقيقة عندما أقول له: لأن وجودك لم يكن يلزمني في سرديتي، بعد أن غادرت الواقعة واقعيتها وأصبحت خيالاً. ثمّ أعده أنني، إذا ما كتبت الواقعة نفسها يومًا كسيرة، فسوف تجد نفسك فيها بملامحك كاملة، من دون حذفٍ ولا إضافة ولا أيّة رتوش.

في الرواية نكذب حتى نبلغ أقصى درجات الصّدق الفني، أما في السيرة فإن علينا أن نظلّ ملتزمين بصدقيّة السّرد حتى يكون النّص واضحًا كالحقيقة. ولا أذكر من الذي شبّه كتابة السيرة بالكتابة على ورقٍ مسطّر، فيما شبه الرواية بالكتابة على ورق بلا سطور، حيث لا تلتزم الكتابة بمسارٍ محدّد أو أيّ خطوط.

لا أخشى المواجهة مع سيرتي الذاتيّة، لأنها أولاً سيرتي، ولأنني كتبتها وأكتبها وأنهل منها معظمّ حقائقي وأكاذيبي، أما التنصّل من مواجهة أشخاصٍ بعينهم، فلا مواجهة الأشخاص تدخل في مشاريعي، ولا التنصّل منها يدخل في همومي، وأفضّل دائمًا أن أقول للأعور إنه أعور بعينه، دون الاضطرار لأن أدخله في نصوصي. حتى لو رأى أحد أن هناك ملامح تتقاطع بين شخص في الواقع وشخصيّة في الرواية، فإن همّي ينحصر في الحديث عن مظهر سلوكيّ وليس عن شخصٍ بعينه، فالخائن الذي وشى برفاقه وخان مبادئه، ورأى نفسه في إحدى الشخصيّات الروائيّة، أرجوه أن لا يحملني مسؤوليّة خيانته.

شدّدت في مطلع الرواية على كونك لاجئاً فلسطينياً هل هذا المدخل يأتي للمقاربة مع حكاية منافيك المتعددة ومنافي السرير.. وهل يمكن أن يكون السرير وطناً ومنفى؟

كون السّارد في الرواية لاجئاً فلسطينياً، فلأن وجوده الفني اقتضى ذلك في الرواية، ووجود الكاتب كذلك في الحياة فرض نفسه على تجربته التي لم يخرج عنها إلا ليعبث في صناعة الخيال.

عندما أكتب فإنني لا أحبّ أن أضع إلى جواري مسطرة أو ميزاناً أزِن فيه الكلمات قبل أن تأخذّ مكانها في النّص. وقد كنتُ أستجيب لما كان يقترحه عليّ «السّرير» من وقائع حدثت وأحداث لم تحدث وتخييلات قد تُصدّق أو لا تصدّق. أما الدّلالات فأتركها للقارئ، لأن الرواية إن عجزت عن أن توحي بدلالاتها أو تومئ إليها همسًا لتخلق فرصًا للتأويل، تكون قد فشلت في الوصول، وأنا لا أحب أن أشرح روايتي أو أن أتطرّق لدلالات عنصرٍ من عناصرها، ويسعدني أن يضيء لي قارئ أو ناقد زاوية معتمة في الرواية.. زاوية لم أكن قد بلغتها أو قادراً على بلوغها وحيدًا. فأنا أحتاج في كثير من الأحيان إلى قارئ يمسك بيدي ليدلني ويضيء لي زواياي المعتمة.

لا أرى أن السّرير كان وطناً، لأنه عاش حتّى لحظته الأخيرة بلا وطن، ولا هو منفى، لأنه ظلّ حتّى لحظته الأخيرة، هو نفسه، منفيًا. لكنني لن أختلف مع من يراه كما رآه السّؤال.

رغم شغفك بالسرير الا أنك تنازلت عنه أمام دموع السريلانكية.. هل هو الحس الإنساني الطاغي أم الحالة المأساوية للسرير ما دفعك لذلك؟

ليس الحسّ الإنساني الصّافي، المنقّى، والذي هو أقرب إلى أحاسيس الأنبياء والقديسين، هو الذي دفعني إلى ذلك، فأنا لست نبياً ولا قديساً، ولم تجعلني الدّموع التي جرت في عيون الخادمة السريلانكيّة كذلك.

أحياناً نلتقي، بعد سنواتٍ طويلة من الغياب، بصديقٍ كانت تربطنا به علاقة حميمةً، فنكتشف أن الزّمن قد غيّره... وربما يحمل، هو أيضًا، الانطباع نفسه، فنفشل معًا في استعادة تلك

الحميميّة التي غيّبها البعاد ومحاها تراكم السنين.

في الواقع، لقد أصابني الإحباط، بل ألمّت بي الفجيعة عندما رأيت السّرير وشهدت ما آل إليه، بعد سنوات طويلة من الغياب. ولو كان السّرير يشعر ويحسّ كما هو في الرواية، لفجعه ما آلت إليه أحوالي بعد مرور الزّمن!

يبدو أن عجلة الزّمن قد أسهمت في تدمير ذلك الشّغف الذي تتحدثين عنه، ما خلف فجوة عاطفية شاسعة بيني وبين سرير الواقع. لكن دموع السريلانكيّة نبهتني إلى أن شغفًا آخر بالسّرير قد تأسس وتنامى بعيداً عني، فكنت مثل الوالدين اللذين انفصلا عن طفلهما وعادا إليه بعد سنوات ليجدا أن الطّفل لم يعد طفلاً ولم يعد طفلهما.

أنا تخليت عن السرير في الواقع لأنه لم يعد سريري ولم تعد تربطني به تلك العلاقة العاطفيّة القديمة، التي ظلّت، رغم ذلك، متأججة في الخيال، فأسفرت عن كتابة هذه الرواية.

منذ العام ٢٠٠٦ لم يخرج فاروق وادي برواية كاملة. ماذا عن غيابك لأربعة عشر عاماً عن الكتابة الروائية؟ وهل ستشكل هذه العودة مفتاحاً لروايات قادمة؟

هناك اعتقاد ساد في الأوساط الثقافيّة خلال السنوات الأخيرة، فحواه أن الكتابة، والكتابة السّرديّة على وجه الخصوص، هي الكتابة الروائيّة، وحدها لا شريك لها، فأصبحت الأجناس الكتابيّة الأخرى تتراجع بعد أن غدت كلامًا لا يعوّل عليه ولا يُعتدّ به!

ربما أسهمت الجوائز التي باتت تقليداً دوريًا يُمنح للرواية دون غيرها، في تكريس هذا الاعتقاد، وربما أسهم الناشرون أنفسهم في تأجيج الحماسة لهذا الجنس الأدبي على وجه التحديد لأسبابٍ تجاريّة بحتة وليس عشقًا للرواية في حدّ ذاتها، فتراجع الإقبال على الشّعر والقصّة القصيرة وكتب السّيرة والمقالة، وربما غيرها، وهي أجناس أقصيت عن دائرة النشر.. إلا بحدود.

حتّى السؤال المطروح لم يبتعد عن ذلك. لم يأبه لكتابتي في جنس آخر غير الرواية. كتابي «ديك بيروت يؤذن في الظهيرة» (٢٠١٥) الذي يجمع بين جنسيّ القصّة القصيرة والرواية، اعتبر ناقصاً لأنه ليس رواية خالصة من غير سوء، ونصوصي شبه السيرة في «سيرة الظل» (٢٠٠٨) شطبت

من دائرة الفن والإبداع، لأنها مثّلت شكلاً هجينًا من الكتابة التي هي ليست رواية. وما كتبته خلال السنوات المذكورة ولم أقدم على نشره، ظلّ قابعًا في الزوايا الخبيئة لكمبيوتري ولم أتشجّع على نشره لأنه ليس رواية، ومنها مجموعة قصصيّة قد تكون قابلةً للنشر.

لم أتوقف عن الكتابة خلال تلك السنوات، وإن توقفت عن النشر لأسبابٍ لا تعود إليّ بالدّرجة الأولى، مع إعادة التأكيد على أن الكتابة لا تُختزل بكتابة الرواية وحدها، رغم أهميتها الكبيرة. ولا أريد إعادة التذكير بكتّاب كبار أبدعوا في فنّهم القصصي دون أن يقتربوا يومًا من الرواية.

أما عن رواياتي القادمة فأمرها عند شغفي. توقفت قبل شهور عن مواصلة الكتابة في مشروع روائي بدأته فور انتهائي من السّرير، ولا أدري كيف ومتى سأعود إليه.

وجدت في سرير المشتاق بوحًا سيرياً ما ينزاح عميقاً الى الاجتماعي والوطني دون الغوص في تفاصيل يوميات المعارك الفلسطينية اللبنانية أو المواجهات الفلسطينية العربية. هل هي رقابة ذاتية أم رغبة سامية في عدم نبش الجروح؟

السؤال ينطوي على أسئلة عديدة. البوح السيري وفق تعبيرك، لا ينزاح إلى الاجتماعي والوطني بإرادته، ولكن لأن السيرة التي نهلت منها أو اتكأت عليها أو استثمرت شيئاً من وقائعها في التخييل السردي، لم تكن لتنفصل عن محيطها الاجتماعي وعن الهمّ الوطني الفلسطيني العريض. أمّا عن عدم الغوص في تفاصيل المعارك والمواجهات الفلسطينيّة اللبنانيّة، فالسبب يبدو بسيطًا وواضحًا، وهو أنني لم أدّعِ يومًا خوض تلك المعارك جسديًا وبالأسلحة الأوتوماتيكيّة. فأنا لم أحمل السّلاح يومًا، ولم أقاتل بشكلٍ مباشر، ولم يدخل أيّ نوع من الأسلحة بيتي حين كان وجوده ضرورة في كلّ بيوت المدينة.

أنا متأكد بأنني لم أطلق رصاصة واحدة طوال حياتي، رغم ايماني بأن الكفاح المسلّح هو أرقى أشكال النّضال، ولذلك فإنني لم أطلقها حتى في خيالاتي السّرديّة، ولا تغويني الكتابة في أمورٍ لم أعشها ولا أعرفها ولم أجرّبها.

أمّا الرّغبة في عدم نبش الجروح، فهي مسألة ليست «سامية» في اعتقادي، وعدم النبش لا يعني أن جراحنا قد اندملت، وأن ذاكرتنا غدت نظيفة لا تشوبها شائبة، فنمضي من دون أن نلتفت.. فكأن شيئاً لم يكن.

تذكرين أنني نبشت جراح لبنان في «ديك بيروت»، وأنني نبشت الجراح التي خلّفتها معارك أيلول الأسود في «السرير»، ولم أكن ساميًا وأنا أتحدّث عن مصادرة مستقبل السّارد في الأردن، مع أنه لم يكن بطلاً نموذجيًا بمعايير كثيرة، ولم يهدد الأمن الوطني في البلاد. لقد صودر مستقبله، كما صودر مستقبل الكاتب نفسه من قبله. فماذا تبقى لنا لكي نحتفظ برغباتنا السامية ولا نمارس بذاءة النبش في القمامة التي أغرقونا بها.

هل يمكن أن نرى أجزاء أخرى من سرير المشتاق يكمل فيها فاروق وادي سيرته أم أن هناك مخططاً لكتابة هذه السيرة بشكلها التقليدي وفي إطار مشروع منفصل؟

لم أفكّر بأجزاء أخرى من «سرير المشتاق»، فالسّرير عاد إلى وطنه في جذوع الشّجر، والسّارد الذي رجع طفلاً، عاد في سريره الأول (الباطية) إلى وطنه أيضًا، وهي النهاية السعيدة المتخيّلة للرواية. وعليه فإنني لا أجد ما يدعوني لكتابة أجزاء أخرى بعد تلك المآلات.

أمّا كتابة السيرة، فقد جرت عندي بشكلٍ مجزأ. كتبت جزءًا منها مع كثير من التخييل، في رواية «رائحة الصيف»، التي اعتبرتها سلمى الخضراء الجيوسي نوعًا من «السيرة»، ونشرت جزءًا منها في الطّبعة العربية لـ «أنطولوجيا الأدب الفلسطيني»، وتحديدًا في باب السيرة، كما كتبتُ جزءًا آخر من سيرتي في «منازل القلب ـ كتاب رام الله»، وشذرات أخرى في «سيرة الظّل»، ثمّ استثمرت سيرة بيروت وتجارب الحرب فيها، في «ديك بيروت». وهناك مشاريع منجزة أو شارفت على الإنجاز تستثمر تلك السيرة، منها كتاب بعنوان «٥٩ شارع صفيّة زغلول ـ كتاب الاسكندريّة» وكتاب آخر حول تجارب السّفر، والقسم الثاني من «سيرة الظّل» الذي حطّ أخيرًا بين يديّ ناشر صديق. وعليه، فإنه لن يكون ضمن مشاريعي أن أجلس يومًا لكتابة ما يمكن أن نطلق عليه، كما جرت العادة، تعبير «سيرتي الذّاتية».

أخيراً ماذا يعد فاروق وادي بعد «سرير المشتاق»؟

طوال حياتي، بقيتُ أتجنّب تقديم أيّ وعد في أيّة مسألة كانت. لم أقدِّم وعدًا لامرأة، ولا لطفلٍ، ولا لقارئ. فأنا لا أثق بالزّمان وغدره المباغت، ولا بتقلُّبات المزاج الاكثر قسوة، ولا باستقرار الرّضى عن إنجاز شبه متحقِّق.

في السياق الذي تسألين عنه، وهو الكتابة، أقول إنني صعبٌ في إرضاء نفسي عمّا أكتب، وأتردّد كثيرًا في الوصول إلى قناعة تامّة قبل نشر النّص بشكله الأخير.

والمزعج في «سوق» القراءة والكتابة، هو طغيان القناعة بأن كلّ ما يكتبه الكاتب ولا ينتمي إلى جنس «الرواية».. هو محض «هراء»!

ضمن هذا الـ «هراء»، لديّ العديد من المخطوطات التي تنتظر النّشر، أو تتردّد في ذلك، وهي تتوزّع في بضعة عناوين وأجناس كتابيّة مختلفة: مجموعة من القصص القصيرة، وسيرة أخرى للشّخص والمدينة، وكتابًا حول هموم الكتابة وأسئلتها، وآخر حول آفاق السّفر. وقسم ثانٍ من سيرة الظّل.

كورونا لم تمنحني وقتًا كافيًا لألمس ردود الفعلٍ التي أترقبها حول «سرير المشتاق»، لكن الفيروس اللعين الذي جعلنا نعيش بين جدران الحظر والعزلة، لم يفلح في أن يجعلنا جميعًا نتسمّر أمام شاشة التلفزيون، في وضعيّة هي أكثر تدميرًا من أعراض الوباء نفسه.

عزلتي الفرديّة منحتني الفرصة لكيّ أتفرّغ لإنجاز الكتابة الأولى لرواية كانت ضمن مشاريعي. وقد بلغتُ قدرًا من الرّضى عنها، إلى الدّرجة التي لم أتردّد بتقديمها لقارئتي الأولى دائمًا، وناقدتي المتشددة، سناء، زوجتي وشريكتي في الفنّ والحياة. لتدخل الرواية بعد ذلك مرحلة كتابة ثانية، وربما مختبر قراءات أخرى وكتابات لا تتوقّف حتّى الصّدور.. الذي لا أتعجّله على الإطلاق.

فما زال أمام الرواية مشوار طويل من إعادة النّظر وإعادة الكتابة، وعليه، فإن كلّ ما سبق وقيل أعلاه، لا يمتّ لكلمة «الوعد» بصلةّ!

نباحٌ بعيدٌ على مارّة غرباء

قصي اللبدي

صراخ

سأقولُ شيئاً خالياً إلا من الإيقاعِ:
كم أني وحيدٌ..
ربما لو قلتِ شيئا ما، لو استرسلتِ في ما قلتِ،
لو لم..
منذ غادرتِ اختفت من عالمي الأصواتُ.
لم أسمعْ سوى نفسي.
ولي صوتٌ عميق اللحن مثلُ مفاجآت الطقس.
أما خارجي، فأرى فتىً يبكي على أشياء
يحملها، فتسقط منه..
يحملها،
فتسقطُ.
قلتُ:
«يكفي ما رأيتُ . سأكتفي بي».
.
هكذا..
انحرفتْ مع الإيقاعِ أجنحتي،
فطرتُ كأنني صوتٌ من الأصواتِ
لا معنى له.

*

اسمي قصي

أنت تنسين،
لا تتذكر عيناك ما رأتا.
لا النهار الذي لم أزل عالقا في ظهيرته
لا قصيدتك الأمّ،
لا بحرَها،
لا الطريق الذي صار أغنية،
لا أنا.
كلما ركضت كلماتي إليك، كأنك أختٌ لها،
ارتطمتْ رغبتي
بالزجاجِ،
كأنك لم تدخلي جسدي، قبل هذا،
ولم تخرجي منه.
- هذا أنا. هل تذكرتني؟
أنت تنسين.
عما قليلٍ، أذكّر عينيك بي،
فتصيران أكبر
عما قليلٍ، نسير، معا، في الطريق الذي صار أغنية
وأقولُ لكِ: اسمي قصيٌّ.
تقولين: واسمي.. كذا.

*

نوم

أنت ساطعة في السرير
كشمس شتائيةٍ
والشراشف مثل سحابٍ بطيءٍ على الجسم.
ماذا ترين، وراء الوميض السريع لنظرتك،
الآن؟

ماذا ترين هناك؟
اختفى كل شيء، هنا. لا كواكب
لا ضحكات
ولا صوت في الخارج،
اختفت الكلمات،
ولا ظلّ،
لا خطوة تشطر الليل،
لا شيء
لا شيء
إلا نباحٌ بعيد على مارّة غرباء.
*

التوائم

لا تزال تحوّم في داخلي، كعصافيرَ
منهوبةِ اللونِ،
أصواتُهم.
الرؤوس ملاصقةٌ بعضها البعض.
.
يا للسذاجة ايتها الريح،
لا فرق عندك ما بين ماسورة الناي
والبندقيةِ.
.
هذا أنا أتحسّسُ جسمي؛
نجوتُ من الموت في حلمٍ سيء.
.
أنت لا تعرفين،
ولكنّ تلك حياتي التي تتنقل بين المكائدِ.
.
أعينهم تتلامع سوداءَ، مائيةً، مثل عاطفة الحيوان.

وأنت تظنين أني أقول كلاما.

*

خط الجنازة

سوف أقضي الظهيرة منتظراً.

لن يمرّ ..

سوى عقربِ الساعةِ.

.

امرأةٌ تتأمل خط الجنازة:

- يحمل تابوته ميتٌ، ويسير وحيداً.

أما عاد يحفل بالموت إلا الذي ماتَ؟

يا للحياةِ!

.

- تُرى، من يكون الذي ماتَ؟

يسألني عابرٌ، فأقول:

- أنا.

- كيف كانت حياتكَ؟

- جيدةً، في العمومِ.

ويسأل:

- ماذا تركت وراءك؟

- شمسا على باب بيتي، وأغنيتين تقولان أشياء عاديةً

والحوار القصير الذي دار ما بيننا،

ههنا.

*

إصابة

بينما كان يحصي إصاباته،

وجدت صوتها الكلماتُ:

ستدفعني رغبتي في الغناء الى الطيران

بعيداً
بعيداً.
ولن أتذكر شيئاً،
إلى أن ينبهني حدثٌ عابرٌ؛
نظرةٌ، أو ملامسةٌ، أو كلامٌ
فأهوي
الخ،
وتزيد الإصاباتُ واحدةً.
*

تلاش

عندما لا تكونين موجودة،
ههنا،
تنزوي الكلماتُ.
زهورك تخضرّ، مرغمةً. وطيورك تأوي
الى الصمتِ،
حتى الأواني الزجاجَ، تشفّ بلا رغبةٍ.
جسدي، هو أيضا - أجل جسدي - يتضاءل
شيئاً
فشيئاً
كأن السجائرَ تمتصّني.
*

زهرة

كما لو تغمّدني النومُ،
رحتُ أفتشُ طياتِ جسمكِ
عن
زهرةٍ ما،
نمَتْ عند مخرجِ لفظٍ،
ولم أدرِ ما هوَ..

.

لم يمضِ ليلٌ وحيداً،
كما جاءَ،
لا ظلّ لم أشعلِ النارَ فيهِ،
ولا نظرةٌ لم أصلْ قبلها..
- هكذا اصبحتْ نظرتي لا لزوم لها -

.

كلما ارتبتُ في زهرةِ،
قلتُ: ها هيَ.
لم ينجُ شيءٌ، سوى الوقتِ.
حتى إذا ما تبدتْ
أخيرا،
وجدت حياتيَ جرداءَ، صامتةً،
حولها.

*

اسم

لو كان مكانا..
أنشأت، على حرف فيه،
سبيلي.
لو كان سبيلا،
لاستعجلتُ المشي
قليلا
كي لا يمحوني الليلُ،
ولو كان الليلَ..
لنمتُ به، أو همتُ..
وأرسلتُ، إلى نجم فيه،
عويلي.
لو كان عويلا،

لاستعملتُ الجهل على نفسي،
وازددتُ به علما.
لو كان هو الجهل،
ركضتُ إلى ضوء أعمى، واستكثرتُ قليلي.
ما أوسع هذا الاسمَ،
وما أضيق تأويلي.
*

خطاب

سأقول للأمل:
اختلق سببا لتنهي ما بدأتَ.
أقول للصمت: ارتجف.
للرغبة: اقتربي، أو ابتعدي، قليلا.
للأسى: ما زلت تجلس صامتا.
ولأمس: لا ناجين منكَ.
ولي:
.. لماذا لا تنام؟
.
لما تبقى منكِ:
لا تنظر إليّ، كأنني خالٍ من الكلمات.
.
لليأس: احترس مما أفكر فيه.
للشباك: أوقف هذه الأصواتَ
.
للأصوات: لا تمشي على فخذيّ.
للفوضى: اجلسي.
للظل: واصلت النموّ،
وصرت أطول من إلهك مرتين.
.

لآخر اليوم:
انتظرتَ..
ولم يجيء أحد.
.
وللمعنى:
رجاء، لا تكن متأكدا من أي شيء.
*

إذا كنت وحدك

إذا كنت راغبة في البكاء،
خذي كتفي.
سوف تمتصّ حزنك إسفنجة من
نسيجي الحزينِ.
.
إذا كنت في حاجة الذكريات،
خذي ذكرياتي
أنا رجل غارق في الحنينِ
الى كل شيء.
.
إذا كنت يائسة، فكري بي.
وإذا بردت قدماك، اجلسي بين حرفين،
وانتظريني.
.
اذا كنت لا ترغبين بشيء،
لديني.
*

تذكّر

لم أنس شيئا. هذه
خطواتها..

- لحني النهاري الأثيرُ -
تسير من ذكرى
إلى
ذكرى.
.
وهذا ظلها..
جسدٌ دخانٌ؛ ينثني ويطيرُ
.
هذا صوتها،
شكرا..
لأن الله أسكت كلّ شيء حوله.
.
لم أنس شيئا قطّ.
هذي نظرة منها
إليّ،
تحط
هادئة على أخرى.
*
ساعي البريد
ماتَ آخرُ ساعي بريدٍ
على الأرضِ.
لن تتحجّر أسراركم، في مظاريفَ مختومةٍ
بعدهُ.
.
لن تروا الكلماتِ تحدّقُ
فيكم،
وأنتم تزيلون عنها القشورَ، وأغلِفةَ الجبسِ.
لن تتنفس بين الكسورِ،

الكولونيا.
ولن تجدوا في الزوايا خرائطَ سريةً
.
من هنا،
سيجدّفُ بالقدمينِ على عجلاتٍ هوائيةٍ،
عالياً
عاليا
حاملاً في حقيبته الجلد، آخرَ ما سطّرتهُ يدُ.
*

بكاء

لو رأيتَ أصابعها تنزع القبعاتِ
عن البامياءْ..
لو رأيتَ الستائر ترقص،
خجلى،
على آلة النفخِ.
والليلَ، مختبئا في الخزانةِ، ينبحُ مثل الجراءْ
لو رأيتَ الزجاجَ يشفّ
وأغنية الماء تطفو،
على مهلها..
كنت أدركتَ:
هذا البكاءْ..
على امرأةٍ أضحكت كلّ شيء.
*

بيت

أرى الصمتَ يجلسُ
منتظرا ما سيحدثُ.
والبردَ مرتجفا، يتدفأ
والذكرياتِ تثرثر، مبتلةً عند أجفانها.

.

وأرى الليل يسهرُ

فيه،

على بضعة من حروف.

.

منزلي هو،

لكنه مشرع البابِ، محتشدٌ بالضيوف.

*

لو كنت شاعرا

الوعورةُ في النطقِ، من شدة اسمكِ.

ليس كلام فمي،

هو صوتي، فحسب، الذي يقطع الليل،

مرتجفا، بحروفٍ مقطعةٍ ووساوسَ.

لو كنت صاحبَ موهبةٍ

كنت ألفتُ أغنية لك من كلمات فمي.

لصنعتُ نشيد أناشيدَ باسمكِ..

عقدا من الكلمات الفريدة، أحمله لك.

ما من مجازٍ،

أنا لست نايا، ولا شاعرا.

هو صوتي فحسب، الذي يتمشى

إلى الليل

مرتجفا، حاملا حمله.

*

هو

الذي

خبأته الثيابُ،

وخبأه البابُ

والمنعطفْ

.

والذي

أخفتِ الكلماتُ ملامحه:

كلما قال حرفا، أو اثنين،

شفْ

.

الذي

لا يحبّ،

ولا رغبةٌ عنده في صعود السلالمِ،

أو في هبوط التلالِ،

ولا رغبة عنده في الكلام أو

الصمتِ..

.

يطوي النهارات طي السجل،

بلا ذرة من أسف.

*

يحدث الان

يحدث الآن..

أنك نائمة في سريري

وأن ثعالب بيضاء تركضُ

تحت الملاءة،

أن عروقا، كأوردة البرق،

تومض

أن سماء رصاصية اللون، تنهضُ

من نومها.

.

يحدث الآن أنك تمشين مشيتك. الليل أبيضُ

حولك، والباب يغمض،

إذ تعبرين
صدى خطواتك، أم هو قلب من اللحم، ينبضُ
تحت الرخام؟
.
ويحدث أنك تستبدلين الثياب، فتهوي المجازات
عارية منك.
في الخارج، ارتجفت ندفة الثلج، أيضا
ولم تستطع حمل معطفها.
.
يحدث الآن
أنك ترتشفين حليبك، واضعة فخِذا فوق أخرى.
وأما أنا،
فأحاول ملء الفراغ الذي شعّ منبثقا، فجأة،
من شرودك.
*

كتْب كتاب

لو كتبتُ كتابي على حجرٍ
وانتظرتُ..
أما كان أشرقَ لي قلبُه؟
.
لو كتبتُ على ناب أفعى، أما كان أيقظني
السمّ؟
أو لو كتبتُ على حصة الشمس،
هذا،
أما كنتُ عبأتُ من ذهب الذاهبين، جيوبي؟
.
بلى،
لو كتبتُ على رقعة الليل،

سطرا أو اثنين
شمّر عن ساقه، هابطا سلم الكلمات
حبيبي.
.
ولكن مشيتُ إلى شجر اللوز، أعمى
فمرّ زفافي،
كفصل قصيرٍ من الثلج.
*

بيتزا

من الليل،
يلتقطون شظايا الزجاج المحطم
حول قبور النجوم.
.
من الصمت،
قشرا رقيقا لأنسجة الكلمات.
.
من الظل،
يستخرجون قبورا شراعية
ووجوها مجللة بالوجوم.
.
من اليأس،
يلتقطون مناديل دمع، وريشا كثيفا،
ومنحدرات.
.
من الشمس
يلتقطون اللآلىء، والسمك الحيّ،
والأغنيات.
.

من البحر،
يستخرجون دمى متحركة،
وخرائط عمياء
.
مني..
كلاما على صورتي،
وشرائح بيتزا مثلثة.
*

«نون»

يحدث الموت للآخرين،
وأما أنا..
فعلى ظهر دراجتي في الشعاب،
أسافر منشغلا بهدير المحرك.
لا شأن لي بجيوش الرياح المضادة؛
تلمس وجهي سياط حريرية،
ثم تهوي
وتضربني عشرات المدافع
بالبالونات
ولي قبضتان من الضوء والماء، ثابتتان على مقودٍ ثابتٍ
لا عويل الرياح، ولا السحب السود، يمكنها
أن تضلل قلبي.
على ظهر دراجتي في الشعاب البعيدة،
مصطحبا نجمة
وعلى كتفي وشم دائرة؛ حرف نون.
*

الظلّ

جسد خفيف، لا علامات له، إلا ثلاثا
توقه الأزليّ للطيران،

واستسلامه الكليّ للإيقاع،
والصمتُ العميق.
وغالباً، ينسى اسمه ويسير منهوباً من الأطراف،
مثل دوائر الطبشور
أمشي حوله،
وأرى له صوراً تجوبُ الماء والأشياء من حولي.
كأني جئت من ليل بعيد - قال -
من لغتي أخذت ملامحي،
ورسمت لي جسدا خفيفا يختفي في النور.
*

وهم

أرسم امرأة، وأحدق فيها
كأني سأبعث من نظرتي:
آه لو كان لي أن أراقصك الآن..
أي أن أمدّ يدي حول خصرك،
أو أن أقبلك -
اللحن أبعد من خطوتي،
وأنا أتمشى حواليك أعمى، كأنك موجودة
في مخيلتي.
آه .. لو أستطيع حملتك بين ذراعيّ،
ما بين بابين.
"لكنك امرأة لا وجود لها"
قلت في داخلي،
وتركت نواياي تمشي بمفردها،
ثم أخرجت من دفتر الرسم تفاحة،
وقضمت يدي.

قصتان

راوية بربارة

جريدة

كلّ صباحٍ أمرّ بباب البيت ألتقطها، أتصفّحها، أكتئبُ وأتابع سيري

أفتح المذياع في السيّارة، وكأنّه قد اتّفق مع محرّر الصحيفة...أكتئبُ وأتابع سيري...

أبحث عن مفرداتٍ أخرى أسمعها، أقرأها... لا أجدها إلّا في عقلي، على الأقلّ مفرداتي تنجّيني من الاكتئاب...

اليوم سبقني كلبي «روكي» وأخذ الجريدة، لُمْتُه على فعلته، صحتُ في وجهه، لوّح لي بذيله فرحًا وحام حولي...

تركت له الجريدة ليلعبَ بها، سافرتُ مع صديقتي وتحدّثنا طوال الطريق.. والحديث، خصوصًا حديث النسوة، ذو شجون...وكيفما أخذنا الحديث وأخذتنا الطريق، نجد مفردات التعب، والعائلة، والأخبار التي لا تسرّ لا عدوّ ولا صديق تلاحقنا، من قتل النساء على خلفيّة وبلا خلفيّة، والعنف المستشري، والشرطة الّتي أرجعت امرأة لرجال عائلتها فسلّمتها لحتفِها..

شعرتُ شعورًا غريبًا...

حتّى في العمل نشرب فنجان القهوة في الاستراحة، ونحن مطالبون عند شرب القهوة أن

نوقف كلّ حديث عن عملنا ونخفّف قليلًا من الأعباء عن كاهلنا، فما يكون إلّا لأحداث الساعة أن تكون حديث الهيل والقهوة، فأشعر شعورًا غريبًا...

الظاهر أنّ «روكي» أعجبته لعبة الجريدةِ، يسبقني إليها كلّ يوم، وروكي اسم على مسمًّى لا يهزّه ريح، صخرةٌ، جلمود، يقرأ الأخبار، يمضغها، يمسك الجريدة يعضّها، يقضمها، يتذوّق حبرها، يمزّقها ويملأ الساحة أخبارًا «بايتة»...

اليوم أيضًا لوّح لي بذيله منتصرًا بفعلته... اليوم أيضًا شعرتُ شعورًا غريبًا...أصبحتُ عن قصدٍ أترك له الجريدة لأريح أعصابي منها، فلا أتصفّحها عند الضوء الأحمر في الإشارة المروريّة، ولا أتعب نفسي بقراءة عناوينها الرئيسّة ولا الفرعيّة، أصبح التفريق بين الرئيسيّ والفرعيّ مهمّة بحاجة إلى خبير في الشؤون المجتمعيّة، فهل الانتخابات المعادة أهمّ من جريمة القتل في وضح النهار؟ هل تشكيل الحكومة، أهمّ من نسبة الفقر الآخذة في الازدياد؟ هل أخبار الرياضة أهمّ من أولادنا الذين بالكاد يجدون ملعبًا في القرية يجمعهم أو يفرّقهم؟؟؟

عدتُ مساءً.. الجريدة الممزّقة تملأ الساحة، حبرها الأسود مع غبار اليوم وأوّل الغيث.. بدا ككحلِ الصبايا الّذي يملأ الخدّ بعد الدمع، سأربّيه هذا الكلب، سأضربه كي يتعلّم ألّا ينعف وسخه في كلّ مكانٍ.. أين هو؟ لماذا لم يستقبلني؟ هل خاف من فعلته الشنيعة؟

روكي، روكي..

وما من مجيب...

أين ذهب؟ لماذا مزّق الجريدة وبعثر سواد أخبارها في الساحة كلِّها؟

روكي؟ روكي..أين أنتَ يا كلبي العزيز؟ بحثت وبحثتُ، وجدته هناك مكوّمًا في الزاوية، يرمقني بنظراتٍ لم أعهدها قبلُ! لا يلوّح بذيله، ولا يقوى على الحراكِ...في فمه بقايا الجريدة وبقايا الأخبار...وفي قلبه.. اكتئاب!

تركوه نائمًا

دخل الجنديّ، الوحل قد جفّ على حذائه، حقيبته الكبيرة بلون ملابسه لم تسلم هي أيضًا من الوحل، فرشةٌ متّسخة لفّها ووضعها أسفل الحقيبة، وقف قربي لاتّساع المكان، فقد اخترتُ المقاعد الطوليّة في القطار، والتي لا تكون عادةً محطّ الأنظار، بل محطّ الدرّاجات وأصحابها، وقف وانتظر صديقه الذي يحمل شبيه حملِه، وضعا الحقائب مكان الدرّاجات، جلس زميله مقابلي، وجلس هو قربي، عن يساره وعلى مقعدين متجاورين جلست صبيّة محجّبة وبيدها رواية أليف شافاك «الفتى المتيّم والمعلّم»، لم تفتحها ولم تضعها في حقيبتها الجامعيّة، لكنّها أصرّت على احتضانها بين يديها، وبقربها فتاة وضعت سمّاعات الهاتف في أذنها إلّا أنّ صوت الأغنية العبريّة كان يصلنا جميعًا...

الجنديّ الجالس قربي يبدو متعبًا، بدأت أجفانه تلتصق بعضها ببعض.. وغفْوَتُه تحاول أن تهبَه حلمًا جميلًا، قسطًا من الراحة.. وضع قدمًا على قدمٍ فاتّضحت لي الرؤية، بسطار بمقاس ٤٦، فيه من الوحل ما يكفي للوشاية بما مرّ عليه.. وبدأت غفوته، تمنّيت أن تغفو كلّ جنود العالم» عن ثعالبها»، أن يمحى الجذر «ح. ر.ب « من قاموس البشر.. لا بدّ أنّه بدأ يتمتّع بغفوةٍ مشتهاة، فرأسه بدأ يثقل ورقبته بدأت تنحني.. مؤكّدٌ أنّه كان متأهّبًا لفترة طويلة، فرقبته تستصعب الانحناء، ما أصعب أن يختاروا لك أن تكون جنديًّا! وهل يُعقَل أن يليق التجنّد بكلّ الناس؟ هذا الغافي الغافل قربي هل سألوه رأيه؟ ولماذا أُشغل بالي وأفكاري به، ألومه؟ أشفق عليه؟ وما أدراني كيف يكون جنديًّا؟ إنّي أراه الآن بكامل هزيمته، بكامل إنسانيّته، بكامل غفوته التي لم تطل.. فالرجل الأجنبيّ مقابله لم يتوقّف عن التحديق به، يرمقه، وكأنّ له ذكريات حرب قديمة، ما الذي يزعجه هذا الآخر؟ انحنت رقبته بسهولة اتّجاه زوجته وشوشها شيئًا لم أسمعه، ولماذا أراقبهم؟ أسأل نفسي، أراقبهم لأكتبهم، لأقرأهم، لأفهمهم، لأتسلّى في سفرتي الطويلة...

الأجنبيّ لم يهدأ، توثّبت رقبته، عينه لا تفارق بارودة النائم، مدّ يده.. ربّت على رِجل الجنديّ، أيقظه وطلب منه أن ينزل فوّهة البارودة إلى الأسفل، باستغراب تامّ فتح الجنديّ

طرف عينٍ، وأنزل فوّهة البارودة بالاتّجاه المعاكس؛ باتّجاهي.. وعاود يتابع غفوته... لا بدّ سيحلم بحبيبته، بانتهاء الحرب، بالانتصار على الآخر... على الذات.. بالأيّام القادمة.. بالحرب القادمة ربّما، بالحرب الفائتة، بالحرب البائدة، بالعرب العاربة والعرب المستعربة.. بالحرب التي شارك فيها والده، بالحرب التي ستنشب ويشارك هو فيها، أو تلك البعيدة التي سيشارك ابنه فيها.. دائرةٌ هي الحرب بلا هوادة..

هل تلك كانت أحلامه أم تخيّلاتي.. أشعر به وبأفكاره.. لن يخيّب ظنّ تهيّؤاتي وبندقيته موجّهة باتّجاهي.. يا إلهي وشُغلتُ عن فوّهتها بتداعياتٍ غريبة، هل أوقظه؟ أربّت على يده؟ أريه خوفي من رصاصة طائشة!؟

ربّما أطلب من صديقه الجندي الجالس مقابلي أن يزيح فوّهة البارودة؟ ماذا لو أنزلتها أنا؟ أيصحو؟ أيغضب؟

أنقذني هاتفه ينذره باتّصال... يصحو، يقرأ، يكتب.. لا بدّ إنّها أمّه.. والده، صديقه، حبيبته، البنك؟ قائد الكتيبة؟ أخته؟ جدّته؟ خاله؟ عمّته؟ صديقته؟ من ذا الذي قطع عليه غفوته، وقطع عليّ تساؤلاتي وأفكاري؟

رمق الهاتف وأراد أن يتابع أحلامه... لا بدّ إذًا أنّها أجمل، وأنّها أفضل.. طأطأ رقبته وأسلم عينيه للنوم..

توقّف القطار ودخلت عربتنا مجموعة من الناس، وكأنّ المكان يتّسع لأفكار أخرى، ارحموني!

كيف سأراقبكم جميعًا وأسبر أغواركم وأعرف قصصكم؟ لو تصمت تلك السيّدة التي تتمتم وتلعن المواطن الذي يدفع النقود ليُحترَم ويجلس على مقعدٍ في القطار، فيقف.. وتلعن الدولة والنظام، ستوقظ الجنديّ، وحين توقظه سأطلب منه توجيه الفوّهة أرضًا، ما زالت تتمتم، لم تجد كرسيًّا، لم تقم لها تلك التي تسمع الموسيقى، ولا حاملة الرواية، ولا الجنديّ مقابلي فهو على صحوةٍ يحرس الحقائب والوحل، ولا أنا، فلتُنزلني من اعتباراتها، دفعتُ مثلها وسفرتي طويلة وحملي ثقيل وأفكاري كثيرة.. أرِقَ الجندي وفتح عينيه.. رمقَتْه

وتابعت مسيرها باحثةً عن مجلس شاغر، الناس تدخل والأبواب تغلَق، والحقائب الموحلة تحتلّ الحيّز وتغلق على كرسيّ شاغر لقفته عجوزٌ بحمرةٍ زهريّة على شفتيها وجاكيت أحمر، وطلَبَتْ من الجنديّ الثاني أن يُبعدَ الحقائب لتجلس، بعض الفوضى في المكان كانت نتيجتها مغادرة الجندي الثاني وحقيبته المكان لأجل العجوز التي سُرّت بمقعدها الجديد واتّصلت بصديقتها لتجلسها قربها.. وإذا بأحدهم يقترب ويجلس ويقطع عليها دعوتها وفرحتها..

والجندي قربي.. يحاول أن يعود لغفوته.

نم.. ربّما لم تنم ليلتك.. لكن لو تُنزِل حذاءك المرفوع في وجهي، عندي حساسيّة من التراب والطين و... سأبدأ بالسعال... عندي حساسيّة من السلاح والحرب، ليتك تبعد البارودة من جهتي..

هل ستغفو دون أن تسمع أفكاري؟ هل ستوجّه فوّهة بارودتك نحو أليف شافاك؟ هل يزعجك التوجّه التركيّ؟ آه.. ربّما يزعجك هذا الفتى المتيّم الذي لا تستطيع أن تكونه وأنت في الحرب...

كلّا.. ربّما يزعجك هذا المعلّم... وهل للحبّ معلّم كما للحرب.. كلٌّ وقائده!

أفكاري بدأت تزعجك.. أشعر بململتك..

نم.. علّ الجنود إذا نامت.. استيقظ الحبّ.

وما ذنبك أنت؟ هل أنت من أعلن الحرب؟ هل أنت من اختار الملابس والطين والحقيبة والبارودة؟ لو خيّروك هل كنت تختارهم؟

استيقِظْ! علّك تجيب عن تساؤلاتي..

نم! علّ الحبّ ينمو.

احلمْ! اشعرْ! أنزِلْ قدمًا عن قدم! أبْعِدْ فوّهة البارودة! استيقظْ! كيف ينام «الجنود» والأمن غير مستتبّ؟

لو كنت أقبض على الأحلام كنتُ وزّعتها عليك لتنزل قدمك وسلاحكَ...

لو كنت أقبض على اليقظة، كنت أيقظتك من أوهامك..

لو كنت أنظر حولي أكثر لرأيتُ فاحص التذاكر يمدّ آلةً رصاصيّة نحوي يريد فحص بطاقة السفر وصحّتها.. ومصداقيّة ركوبي القطار مع كلّ هؤلاء، مددت يدي إلى حقيبتي، أعطيته بطاقةً خضراء أشحنها لكثرة أسفاري..

تناول من خاصرته آلة كشف الحقيقة.. وضعها على بطاقتي.. سألْتُه: كم سفرةً بقي لي في البطاقة؟

نظر الكلّ إليّ وكأنّهم يريدونني أن أصمت.. هل قطعتُ عليكم أفكاركم؟ يرمقونني كلّهم، ينظرون إليّ وإلى فاحص البطاقات وإلى الجنديّ.. أسأل كم سفرةً تبقّى لي لأكون بينكم، وأرى أحوالكم، ما بالكم ترمقونني، أصابعكم تمتدّ نحو شفاهكم.. أراكم.. وأسمعكم تنبّهونني أنا والفاحص:

هش.. اش اش ستوقظونه.. اتركوه نائمًا!

مقدمة لحكاية السينما في فلسطين قبل النكبة

يوسف الشايب

قلة ربما يعلمون أن الزيارة الأولى للموسيقار المصري محمد عبد الوهاب المعروف بألقاب عدة بينها «مطرب الأجيال»، إلى فلسطين، كانت في العام ١٩٢١، حيث شارك في سلسلة حفلات كواحد من فريق الفنان القدير نجيب الريحاني، احتضنتها على مدار أسبوع، قاعة سينما «سيون»، وهو من الأسماء الدارجة لسينما «زيون» أو «صهيون» في القدس.

وأشار إعلان منشور في ١٤ أيلول (سبتمبر) من العام ١٩٢١، نشرته صحيفة «لسان العرب»، وحصل الكاتب على نسخة إلكترونية منه بعنوان "جوقة نجيب الريحاني المعروف بكشكش بك الحقيقي»، مشيراً إلى أن «هذا الجوق الكبير المدهش المؤلف من أحسن الممثلين والممثلات، والمغنيين والمغنيات، لتمثيل أتقن رواياته وأحسنها في القدس، وسيمثل هذا المساء في مسرح سينما سيون، روايته حمار وحلاوة وهي من الروايات المدهشة التي نالت شهرة كبيرة في مصر، وسيحيي غداً حفلة نهارية، بعد الظهر، لا ليلاً، يمثل فيها رواية ولو».

وأضاف الإعلان ذاته «ولم يكتف هذا الجوق بأن جاء بممثليه المشهورين، بل أحضر معه ما عداهم المطرب الشهير محمد عبد الوهاب خليفة الشيخ سلامة، وأنيسة، وفاطمة قدري المغنية المشهورة، وماري بورصلي، وجوقة راقصات أفرنجية وشرقية، وطقم أوركستر من أمهر الآلاتية، بحيث أن كل فرد من أفراد الأمة يجد عنده المطلب الذي ينشده.. أما أسعار الدخول فقد جعلها كالآتي: اللوج (٢٠٠ قرش صاغ)، وكرسي بلكون (٥٠ قرش صاغ)، ودرجة

أولى (٤٠ قرش صاغ)، ودرجة ثانية (٢٥ قرش صاغ)، ودرجة ثالثة (١٥ قرش صاغ)»، ليختم «ولا شك أن الإقبال على هذا الجوق التمثيلي الكبير المتقن سيكون عظيماً».

فلسطين وبدايات السينما

وكانت «صهيون» في الأساس كوخاً للسينما الصامتة منذ العام ١٩١٦ أو ١٩١٧، على اختلاف المراجع، وكانت تحتوي ٤٠٠ مقعد، قبل أن تدمر سقفها الثلوج الكثيفة التي تساقطت على مدينة القدس في العام ١٩٢٠، وفي وقت لاحق تم بناؤه بحيث يضم ٦٠٠ مقعد، وباتت المعلم الرئيسي للميدان الذي حمل اسمها منذ عشرينات القرن الماضي حتى إغلاقها في العام ١٩٧٢، حيث انتظمت فيها عروض أوبرا، ومسرحيات، وحفلات موسيقية، ومحاضرات، ومؤتمرات، علاوة على الأفلام، وفي ثلاثينات القرن الماضي كانت سينما «صهيون» المركز الثقافي الأبرز في القدس، وفي العام ١٩٣٨ بات مسرح سينما «صهيون» (Zion) شركة عربية يهودية يملكها كل من داود الدجاني، وعائلة الدباح، وعزرا مزراحي، وفي العام ١٩٤٣ انحلت هذه الشراكة التجارية، وباتت عائلة مزراحي هي المالكة الوحيدة لها.

ويرتبط حضور السينما في فلسطين ببدايات التصوير السينمائي عالمياً على يد الأخوين لوميير، فبعد العرض الأول لهم لمشاهد مصورة متحركة في باريس وعنها العام ١٨٩٥، قاما بتصوير مشاهد في القدس العام التالي أي ١٨٩٦، وهي مشاهد متفرقة تم تجميعها في قرابة الثلاث دقائق من قبل الأرشيف الفرنسي، وتظهر مشاهد في محطة القطار المركزية بالقدس، وفي العام ١٨٩٧ ظهر تصوير من قلب القدس، وخاصة خارج وداخل «باب العمود» (Jaffa Gate) لألكسندر بروميو (١٨٦٨- ١٩٢٦)، وحصل الكاتب على نسخ منها، قبل أن يشرع صموئيل فيج في العام ١٩٠٠ إلى عرض أفلام صامتة في ما يعرف بـ"بيت القهوة" (Coffee House)) أو المقهى الرئيس في باب العمود، في حين أشارت الباحثة راشيل نيمان في مقال لها منتصف كانون الثاني (يناير) ٢٠١٨، نشر في موقع «إسرائيل ٢١ سي»، أن أقدم «سينماتوغراف» (دار عرض سينمائي للأفلام الصامتة) تأسست في فلسطين، حملت اسم

«اوراكل» (Cinematographe Oracle)، وتأسست في القدس العام ١٩٠٨، حيث كانت العروض تنتظم السبت، ومساء الأحد، والخميس، وليس هناك معلومات كثيرة عنها، إلا أنه ذكر في أكثر من مرجع أن مؤسسها «مصري يهودي»، وأنها أغلقت أبوابها بعد أشهر على افتتاحها.

وفي العام ١٩١٢، تم افتتاح دار سينما صامتة بعنوان «السينما الدولية» أو «السينما العالمية» في الطابق الثاني من "منزل فاينكولد" (Feingold House)، حيث كانت تسميه الصحف الفلسطينية الصادرة في عشرينات القرن الماضي، باسم «السيناماتوغراف العمومي»، وفقاً للإعلانات المنشورة فيها حول الأفلام الصامتة التي يعرضها، وهي في الغالب أفلام طويلة ووثائقية، ولم تكن لها أوقات محددة للعرض، بل تبعاً لعدد التذاكر المباعة.

"ومنزل فاينكولد" بني في العام ١٨٩٥، عام الخروج بأول فيلم سينمائي متحرك للأخوين لوميير، بواسطة سولومون فاينكولد (Solomon Feingold)، وضم حينها مكاتب صحيفة (Dolar Hayom) التابعة للهستدروت، في حين بدأ العمل فيه لاستضافة أول عرض سينمائي في العام ١٩١٢ بشكل منتظم، كما أشرت، بينما كانت هناك عروض متفرقة منذ العام ١٩٠٨.

وعند الحديث عن فلسطين، فإننا نتحدث عن فلسطين العثمانية، ومن ثم الانتدابية، وعليه فإن من أوائل دور العرض السينمائي «عدن» أو «إيدن» (EDIN)، وافتتحها في العام ١٩١٤ مئير ديزنغوف، أول رئيس لبلدية تل أبيب، أي بعد خمس سنوات على إنشاء المدينة، بحيث كانت «عدن» دار سينما ومركزاً ثقافياً، وكان الجزء المسقوف منها يتسع لثمانمائة متفرج، غير القاعة الخارجية الصيفية، وعرفت بـ«سينما عدن الصيفية»، مع الإشارة إلى أنه تم منح المالكين مردخاي أباربانيل وموشيه فيسر رخصة حصرية لثلاثة عشر عاماً، وبمجرد انتهاء احتكار «عدن» العام ١٩٢٧، وهو ذات العام الذي أصدرت فيه سلطات الانتداب البريطانية قانون السينما الفلسطيني، ظهر العديد من دور السينما في تل أبيب، ما أفقد «عدن» بريقها بعض الشيء، هي التي كانت السلطات العثمانية أغلقتها إبان الحرب العالمية الأولى خشية استخدام مولدها لإرسال رسائل إلى «غواصات العدو» قبالة الشاطئ، لكنها افتتحت أبوابها

بمجرد إعلان الانتداب البريطاني في فلسطين.

ولا تتسع المساحة هنا للحديث عن دور العرض السينمائية الكثيرة في فلسطين التاريخية ما قبل العام ١٩٤٨، ولكن جدير بالذكر أن العدد الأكبر منها كان في تل أبيب ويافا والقدس، وتليها حيفا، وأيضاً كان صادماً حين كشفت لي بعض الوثائق التي حصلت عليها من أرشيف شركات مصرية تتعلق بتجارة السينما مع فلسطين في الحقبة الانتدابية، أن عدداً من هذه الدور كانت في نابلس وصل إلى خمسة، وفي غزة لم تقل الدور آنذاك عن ثلاثة، كما تكشف لي أن داراً وحيدة تأسست في رام الله قبل «النكبة» هي «دنيا» الشهيرة، بينما كان ثمة حضور لسينما حملت اسم «دينا» في بيت لحم.

ولم يقتصر حضور دور العرض السينمائية على المدن، بل بعضها كان في المستعمرات وثكنات الجيش، كما في المستعمرة الألمانية في القدس، وأسستها طائفة (German Templers) في العام ١٨٧٣، وهي طائفة إنجيلية انفصلت عن الطائفة اللوثرية.

في هذه المستعمرة بدأ المهندس «غوليب بولير» ببناء سينما بجوار المنزل الذي بناه والده للعائلة في شارع لويد جورج، وكان مبنى حديث الطراز في ذلك الوقت بالنسبة للمستعمرة الألمانية.. هكذا ظهرت دار سينما «سمدار» (Samadar) التي عرفت أيضاً باسم «بولير سينما» نسبة إلى بانيها (Bauerle Cinema)، وأنشئت العام ١٩٢٨، وكانت ملكاً ألمانياً وتقدم عروضاً حصرية للجيش البريطاني، وتم في العام ١٩٣٥ افتتاحها للعروض التجارية بعد استبدال اسمها إلى «أورينت» (الشرق) وكان ميشيل تلحمي من مالكيها، حيث تم تسليمها إلى إدارة يهودية وتحديداً لناثان جولدستيون المحامي القادم من نيويورك ومؤسس «دائرة السينما الفلسطينية»، وذلك للحيلولة دون مقاطعتها ما أغضب رئيس فرع الحزب النازي في القدس، خاصة أن «اتحاد أصحاب السينما في تل أبيب قرر مقاطعة الأفلام السينمائية الألمانية وعدم عرضها للجمهور» منذ منتصف أيار (مايو) من العام ١٩٣٣.

وبعد فترة تغير اسمها إلى «ريجنت» في أربعينات القرن الماضي، وكان يملكها الفلسطيني فرديناند شتاكليف الشهير بـ «ناندو»، الذي حاول الحفاظ عليها وشركاؤه من أنسبائه منذ

امتلاكها في العام ١٩٤٠ إثر صفقة سرية أبرمها مع تلحمي للحفاظ عليها، لكن انتهى به المطاف لاجئاً كبقية الفلسطينيين، وهي قصيرة مثيرة تستحق التوثيق، ولا متسع لها هنا، مع الإشارة إلى أن خليل السكاكيني عاش في المبنى لبعض الوقت قبل أن ينتقل إلى منزله في حي القطمون بالقدس، وأنه مع اندلاع الحرب العالمية الثانية تم تصنيف الألمان في فلسطين على أنهم أجانب أعداء، وتم إغلاق أربع مستوطنات ألمانية ممن أسستها طائفة (German Templers)، وتحولت إلى معسكرات اعتقال.

وكان للأخوين تلحمي، وكان عملهما الأساس في السياحة، دور بارز في استملاك دور العرض السينمائي، وفي التوزيع، وفق ما أظهره أرشيف شركتي بهنا ونحاس المصريتين، وحصل الكاتب على نسخة كاملة في أكثر من ٥٧٠ وثيقة تتعلق بالتجارة السينمائية ما بين القطرين في فترة ما قبل النكبة، فميشيل تلحمي كان شريكاً أيضاُ ليوسف ألبينا في ملكية سينما «ركس» الشهيرة، وتأسست العام ١٩٣٨ بالقدس، وكانت تتسع لما بين ١٣٠٠ إلى ١٤٠٠ شخص، بل إن «تلحمي إخوان» كشركة حصلت في نيسان (أبريل) من العام ١٩٣٣ على وكالة أفلام شركة «كولومبيا» الأميركية الشهيرة.

وبينما شكلت دور عرض سينمائية علامات فارقة في فلسطين كـ«عين دور» في حيفا و«أديسون» و“أوريون” في القدس، ظهرت بعض الأسماء لدور سينما بشكل عابر في الأرشيفات المتعددة، أو في الصحف الفلسطينية الصادرة ما قبل النكبة، ومنها سينما «رويال» في عكا، و«أوفير» و“مغربي” في تل أبيب، و«الملك غازي» في نابلس، و«النبيل» في حيفا، و«الخضراء» في غزة، و«أرمون» و«بستان البلد» في حيفا، و«راما» في رامات غان، وسينما «بيتان» لصاحبها عبد الرحمن الطوبجي، وسميت سينما «الطوبجي»، واعتبرتها بعض المراجع أقدم سينما في يافا، وتوقفت بعد انتهاء عهد الأفلام الصامتة.

العام ١٩٢٩ والوعي العربي

وكان ثمة تحول مهم على إثر أحداث العام ١٩٢٩ (هبة البراق)، وهو عام فارق لجهة صياغة

وعي وطني فلسطيني انعكس في القطاع السينمائي لجهة زيادة الاستثمار العربي في دور العرض السينمائية بفلسطين، وتأسيس شركة فلسطينية وطنية في هذا المجال، وهو العام الذي اعتبره عديد الباحثين والمؤرخين وبينهم الإسرائيلي هليل كوهين «عام الصدع بين اليهود والعرب».

في ذلك العام، وفي مطلع آب ١٩٢٩، وهو الشهر الذي شهد نهاياته بدايات الصراع الدموي بين العرب الفلسطينيين واليهود في أرض فلسطين، نشرت إدارة سينما «أبولو» في «حي العجمي» بمدينة يافا، وهي الدار التي أنشأتها عائلة زماريا العربية المسيحية، في عشرينات القرن الماضي، قبالة مركز «بوليس العجمي» بموقع تلاقي «شارع حلوة» مع «شارع دولة»، إعلاناً بأن سينما «أبولو» بإدارة أرملة المرحوم يوسف زماريا «تبذل كل جهدها لإرضاء الجمهور، بانتخابها الروايات الفنية الشيقة ذات الشهرة العالمية التي لم يسبق عرضها في فلسطين مطلقاً، فقد استحضرت أخيراً الرواية الشهيرة هزّة حب التي نالت إعجاب الجمهور الأوروبي الراقي، وهي ذات ٧ فصول كبار كل ما فيها فني دقيق وآخذ بالعواطف.. ومن دواعي السرور أن نرى سكان العجمي يسارعون إلى مشاهدة الروايات التي تعرض في سينما أبولو، فيوفرون على أنفسهم نفقات كبيرة، ويتمتعون برؤية روايات نادرة مشهورة، لأننا علمنا أن مدام زماريا آلت على نفسها إحضار أحسن الروايات، وتمثيلها في سينما أبولو قبل أن تعرض على ستارة أي سينما أخرى، فعلى الأهلين أن يقدّروا هذه الجهود التي تبذلها ويقابلوها بالتنشيط والتشجيع».

وكان العرض الأخير في «أبولو» ما قبل أحداث العام ١٩٢٩، فيلم «أمام وجه الموت»، وهو كوميديا فرنسية صامتة من إخراج ومشاركة في الكتابة والتمثيل الألماني هاري نيل، وفي خضم الأحداث عرضت «أبولو» فيلم أو «الرواية الخالدة» كما جاء في إعلان ١٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٩، «جريمة فيرامرتسفيا»، فيما نشرت صحيفة فلسطين بعدها بأحد عشر يوماً خبراً تحت عنوان «سينما عربي»، جاء فيه «على إثر فتح محلات السينما اليهودية في القدس شعر أهاليها العرب بشدة الحاجة إلى سينما عربي».

ولم تكن دور السينما بعيدة عن دائرة الحدث في ذلك العام، فكما جاء في خبر نشر في الثالث من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٩، تحت عنوان «مناشير شيوعية توزع في حيفا»، فإن «بعض اليهود الشيوعيين»، دخلوا «مساء السبت الماضي إلى إحدى دور السينما في حيفا، وأخذوا يوزعون على الحاضرين مناشير شيوعية تحض على الثورة، ومحاربة الإمبراطورية البريطانية، فقبض على واحد منهم، وأدوه السجن»، ما يعني أن دور السينما كانت تعمل، ولو بوتيرة أقل إبان «هبة البراق»، وأن جمهورها كان مستهدفاً من الأطراف المتصارعة على تعددها، رغم أن منع التجول كان سيد الموقف في جل المناطق وقتها.

وبعد ثلاثة أشهر على تواجدها في يافا، وتحديداً في نهاية تشرين الثاني (أكتوبر) ١٩٢٩، أرسلت الفنانة المصرية الشهيرة فاطمة رشدي رسالة نشرتها الصحف الفلسطينية تفيد بأنها ستقيم وفرقتها «حفلة خيرية شاملة على مسرح تياترو وحديقة الأزبكية بمصر»، متحملة جميع نفقاتها، وأن «ما يتحصل من دخل لأولئك المنكوبين» من «مصاب فلسطين في أبنائها دفاعاً عن الأماكن المقدسة، والذي هو مصاب عام يشمل جميع العالم العربي»، مشيرة إلى أنها فعلت ذلك بدافع «الغيرة العربية تخفيفاً عن تلك النفوس الأبية".

وفي وقت لاحق، وتحديداً في ١٩٢٩/١٢/١٢، نشر خبر في صحيفة «فلسطين»، بعنوان «فاطمة رشدي ومنكوبو فلسطين»، جاء فيه «هت المروءة كبيرة ممثلات مصر السيدة فاطمة رشدي، فتبرعت بأن تقوم بإحياء ليلة لمساعدة منكوبي فلسطين يوم ٣٠ كانون الأول الجاري، تمثل فيها رواية هاملت، وقد باشرت جمعية الدفاع عن فلسطين في مصر توزيع التذاكر لهذه الليلة على الأعيان والوجهاء والأدباء المصريين»، وفي مطلع العام ١٩٣٠ أشارت الصحيفة نفسها إلى أن الحلفة كانت ناجحة وأن الريع لم يقل عن ٢٠٠ جنيه مصري.

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) من العام نفسه «تبرع السادة عزام وعاقل أصحاب سينما الزهرة العربية بعكا بعرض رواية سينمائية يخصص ريعها لمساعدة لجنة إعانة منكوبي عرب فلسطين» بعكا، في حين أعلنت «سينما فلسطين لصاحبها يوسف أفندي البطروني لعموم المواطنين الكرام أنه افتتح محله الجديد في كلية تراسانطا (كلية الكاردينال فراري سابقاً)

في شارع الملك جورج، واستحضر أجمل الروايات السينمائية، ومنها عجائب الذئاب التي تحدث وقائعها في الثورة الفرنساوية أيام لويس الحادي عشر، وتعرض الوقائع مكتوبة باللغة العربية في وسط الفيلم».

وفي ذات الشهر «أقامت اللجنة السياسية الصهيونية في جنيف، حفلة سينمائية عرضت فيها شريطاً يمثل الحياة في فلسطين، وقد حضر عرض هذا الفيلم رئيس لجنة الانتدابات، وبعض أعضاء هذه اللجنة».

ومنذ العام ١٩٣٢ بدأت تظهر في الصحف الفلسطينية، وخاصة في القدس ويافا وحيفا، إعلانات لشراء أسهم في «شركة السينما الفلسطينية الوطنية المحدودة»، وغاياتها إقامة وتشغيل مسارح للسينما في القدس ويافا وحيفا وعمّان، وبناء الأملاك وتأجيرها، وإقامة محلات كازينو وحقول ملاعب، وأخذ المناظر، وإخراج أشرطة سينمائية، وكانت عملية شراء الأسهم تتم عبر البنك العربي، أو البنك الزراعي، أو في مقر الشركة بحيفا.

وفي العام ١٩٣٤، وتحديداً في نيسان (أبريل) منه، تألف لها مجلس إدارة لثلاث سنوات تكون من سبعة أعضاء هم: بولي سعيد رئيساً، ورشيد الحاج إبراهيم، ومغنم مغنم، وجريس خليل حنضل، ورشدي الإمام، وإلياس الجلاد أعضاء، وميشيل تلحمي سكرتيراً، بحيث كان رأس مال الشركة ثلاثون ألف جنيه فلسطيني تقسم إلى ثلاثين ألف سهم عادي، و«قد تعهد أحد عشر وجيهاً بمشترى ألف وخمسين سهماً الآن»، لافتة إلى أن الهدف من إقامة هذه الشركة «المحافظة على الكرامة العربية».

ونشر الكثير حول هذا المشروع في الصحف العربية، حيث تمت الإشادة بدور مؤسسي الشركة، ومنهم على وجه الخصوص « المهندس القدير البارع الأستاذ رشدي بك الإمام الحسيني، والوجيه الكبير إلياس أفندي جلاد، اللذان بذلا جهوداً جبارة لمشترى أراض مناسبة»، وفي موضع آخر أشار مقال صراحة إلى أن «فائدة هذه الشركة كبيرة لفلسطين»، وأنه «لو لم يكن هناك من فائدة سوى ردع الشاب العربي والسيدة العربية عن ارتياد دور السينما اليهودية لكفاها فائدة، لأن نظرة واحدة على دور السينما اليهودية يتأكد أن الأكثرية الساحقة من

المتفرجين هم من العرب».

وفي هذا الإطار كتب ميشيل تلحمي، سكرتير مجلس إدارة شركة السينما الفلسطينية الوطنية المحدودة في جريدة الدفاع، أيار ١٩٣٤، مقالاً جاء فيه «بعونه تعالى، وبهمة إخواننا الوطنيين الكرام، وبسبب ثقتهم التي أولوها لمجلس إدارة شركة السينما الفلسطينية المحدودة، فقد أصبح مشروع بناء دور السينما الوطنية في حيز الوجود، وإن شاء الله سنقدم في القريب العاجل لأمتنا العربية الكريمة دوراً للسينما تعرض فيها من الأفلام العربية أجملها، ومن الأميركية والأوروبية أعظمها، فنكون قمنا بقسم من الواجب الملقى على عاتق كل وطني، بوضع حجر في زاوية استقلالنا الوطني، وذلك ببناء تلك الدور الفخمة التي تشهد للعربي بالقدرة لمجاراة الأمم الراقية».

وفي نهاية العام ١٩٣٤، ظهر إعلان تحت عنوان «شرطة وطنية للسينما والمسرح بيافا»، جاء فيه «تألفت شركة وطنية بإشراف البنك العربي لإنشاء دور للسينما في حيفا ويافا والقدس، وأن رأسمال هذه الشركة ٣٠ ألف جنيه، صدقت الحكومة على قانونها، وصار يمكن دفع الاكتتاب لها بواسطة البنك العربي من الآن. ولما كان قد التبس على القراء في يافا أمر هذه الشركة، وظنوا أنها الشركة المزمع تأليفها في يافا لهذا الغرض، رأينا أن نوضح الأمر، فنقول إن الشركة المزمع تأليفها في يافا هي غير هذه الشركة، وشركة يافا يعمل على تأليفها نفر من الشباب الوطنيين بينهم الشاب الناهض ممدوح بك النابلسي، وقد جعلوا رأسمالها ١٥ ألف جنيه، كل سهم عشر جنيهات، واشتروا لها قطعة أرض لبناء دار للسينما والمسرح على مساحة ٩١٨ متراً في آخر شارع الملك جورج بيافا، على طريق القدس، حيث تقوم عيادة الدكتور مصطفى بك فخري الآن، ويضاف إليها قريباً ٥٠٠ متر فيكون المجموع ١٤١٨ متراً، فعلى كل من يهمه إخراج هذا المشروع الوطني في يافا إلى حيز الوجود أن يقصد مكتب السيد النابلسي أحد القائمين بالفكرة، في عمارة النابلسي على طريق المحطة بيافا في الساعة العاشرة من الأحد القادم ١٣ كانون الأول ١٩٣٤، للبحث في هذا المشروع، والسعي لإنجاحه بالسرعة الممكنة».

وفي وقت لاحق، وعلى إثر اجتماع هيئة إدارة هذه الشركة اليافية التي عرفت باسم «شركة السينما الوطنية»، انتخب في تشرين الثاني (أكتوبر) ١٩٣٤ أحمد حلمي باشا رئيساً للشركة، وممدوح بك النابلسي مديراً لها، وانتخبت كذلك لجنة مؤلفة من: ممدوح النابلسي، وميشيل تلحمي، وميشيل عازر، لإنهاء كافة ما يلزم للسير بالبناء من خرائط وغيرها، في حين كان انتخب النابلسي ومحمد أفندي الحسيني عضوين إداريين في مجلس إدارة الشركة، ليتضح بعد الفحص والتمحيص أن الشركتين ما هما إلا شركة واحدة، بدأت عملها الفعلي من يافا، وحاولت التوسع باتجاه القدس وحيفا وعمّان.

وفي تلك الفترة، ورغم استمرار استئجار دور العرض السينمائية التي يملك غالبيتها اليهود، وبعضها كان في مستعمرات يهودية بينها رمات غان، على سبيل المثال، سواء لاستضافة عروض أفلام عربية وأجنبية، أو حفلات لنجوم الغناء العربي، إلا أن البعض كان يتجه نحو دور العرض التي كان العرب يملكونها أو يشاركون في ملكيتها، وأبرزها «أبولو» في يافا، والتي أحيت على مسرحها فرقة يوسف وهبي (رمسيس) ثلاث أمسيات في أيار من العام ١٩٣٣، وكان إسحق الدجاني هو متعهد الحفل، في حين رافق العروض هذه حكايات مثيرة لا متسع لذكرها هنا.

وفي ذات الفترة، اتجهت قهوة «أبو شاكوش» في حيفا إلى عروض الأفلام منذ نهاية العام ١٩٣٢، وصل في بعض الأحيان إلى أربعة عروض في الأسبوع.

دار الحمراء في يافا

وفي ١٦ أيار ١٩٣٧، احتفلت الشركة الوطنية للسينما بتأسيس دار سينما الحمراء في يافا، وفي مقال تفصيلي حول ريادية المشروع نشرته صحيفة فلسطين لاحقاً، أشار إلى أن «سكان فلسطين العرب عرفوا السينما في الدور الأجنبية في القدس وحيفا وتل أبيب، وكانوا يتقاطرون على مشاهدة الأفلام السينمائية بالألوف، فتذهب أموالهم إلى المحلات الأجنبية، دون أن يفكر أحد من رجالات العرب في تشييد دار للسينما أو تأليف شركة لهذا الغرض..

وأخيراً قام فريق من الشباب الناهض يتقدمه عطوفة حلمي باشا المدير العام للبنك العربي في فلسطين بتأليف شركة عربية مساهمة للسينما برأسمال قدره ٣٠ ألف جنيه، وانتخب لإدارتها مجلس مكون من: حلمي باشا، بولس سعيد، المهندس رشدي بك الإمام، مغنم مغنم، ممدوح النابلسي، حسين عرفة، ميشيل عازر، محمد الحسيني، محمد رمضان حمو، رشيد الحاج إبراهيم، وحنا عصفور، وانتخب عطوفة حلمي باشا رئيساً لمجلس الإدارة، وممدوح بك النابلسي مديراً لها، وكان أول عمل لهذا المجلس أن اشترى قطعة أرض واقعة في الجهة الشرقية من شارع جمال باشا تبلغ مساحتها ١٦٥٢ متراً مربعاً، ثم أعلن عن مسابقة لوضع خرائط تشييد دار للسينما على هذه الأرض، فتقدم لهذه المسابقة كثيرون من كبار المهندسين في مصر وسوريا ولبنان وفلسطين، وكانت النتيجة أن نال المهندس القدير إلياس بك المر الجائزة الأولى وقدرها مائتا جنيه، والأستاذ المر هو أستاذ الرياضيات في جامعة بيروت الأميركية، وصاحب ١٤ داراً للسينما في سوريا ولبنان، ومن أقدر المهندسين الذين نبغوا في البلاد العربية».

وأضاف المقال «وقد أطلق على دار السينما الجديدة سينما الحمراء، وهو اسم أحد قصور العرب في الأندلس، ويسمى بالإسبانية (الهمبرا)، وسينما الحمراء تشبه في كثير من النواحي سينما الروكسي في بيروت، لكنها أحسن وأكبر منها، نظراً للترتيبات والتحسينات التي أدخلت عليها».

وفي الوصف جاء «يدخل الزائر إلى سينما الحمراء من بوابة رئيسية كبيرة، فيجد أمامه قاعة كبيرة للانتظار، وعلى الجهة اليمنى منها غرفة خاصة لبيع التذاكر للسيدات، ولهذه الغرفة نوافذ من الخارج لبيع التذاكر أيضاً، إلى جانبها غرفة ثانية فيها موظف خاص لاستلام المعاطف والبرانيط وغيرها من الألبسة التي يريد الناس حفظها لحين خروجهم من السينما، وإلى الجهة اليسرى مقصف فخم يجد فيه الزائر جميع ما يحتاج إليه من المبردات والمثلجات والحلوى، وقد رسي تعهده على السيدين رضوان الحلاق وتوفيق المصري، ولهذا المقصف نوافذ خارجية أيضاً، وللقاعة بابان للصعود إلى الطابق الثاني من اليمين ومن الشمال، وفي

الوسط المدخل العام للقاعة الأرضية، وهي تتسع لـ ٨٥٠ مقعداً فخماً ثبت كل واحد منها في الأرض بشكل هندسي، ويتفرع من هذه القاعة أربع أبواب كبيرة تستعمل للخروج والدخول، وعلى جوانبها وبينها مقصورات (ألواج) للسيدات المسلمات والعائلات وعددها ١٢ وتتسع لثمانية وأربعين شخصاً».

"أما القاعة العليا فلها مدخلان، وفيها ١٥ مقصورة كل واحدة منها لأربعة أشخاص، وأمامها مقاعد فخمة تتسع لـ ٤٠٠ شخص، وفي المقصورات أجراس تلفونية يستعملها الزائرون لطلب خادم المقصف، فيحضر لهم ما يحتاجون إليه، ولهذه القاعة مقصف خاص بها جهز بأفخم الأثاث، تعهده السيدان الحلاق والمصري، وإلى جانب المقصف منافع عامة للسيدات والرجال مستوفية أسباب الراحة.. وفي آخر القاعة مسرح كبير للتمثيل وإلقاء المحاضرات، وأمامه محل خاص لجلوس جوقة موسيقية يبلغ عدد أعضائها ١٤ شخصاً، وعلى جانبي المسرح غرف خاصة للممثلين ومكاتب الإدارة.. وطريقة الإنارة وتغيير الهواء في هذه السينما من الطرق المستحدثة الغير معروفة في هذه البلاد».

وأشار المقال إلى أن مجلس إدارة السينما طرح بناءها بالمناقصة، ورست على «الحاج أديب خير المقاول المعروف في دمشق من بين سبعة مقاولين تقدموا»، وأن «مدير السينما ممدوح بك النابلسي» هو من تولى مهمة «الإشراف على البناء، بحيث كان يعمل ١٢ ساعة يومياً.. وفي أثناء بناء السينما كلف إلياس بك المر مساعده المهندس الخواجا كازنجيان ليشرف بالنيابة عنه على البناء، كما كلف المقاول الحاج أديب خير المهندس جواد أفندي أبو الهدى ليشرف بالنيابة عنه على العمل، كما انتخب مجلس الإدارة أحد أعضائه المهندس القدير رشدي بك الإمام لمراقبة العمل والإشراف عليه».

"وتم الاحتفال بتدشين سينما الحمراء في ١٦ أيار ١٩٣٧، حيث قام حلمي باشا بقص الشريط معلناً الافتتاح رسمياً.. وكان أول عرض لفيلم نشيد الأمل، وهو الفيلم الذي فاق كل تقدير، وعجز عنه كل وصف للآنسة أم كلثوم كروانة الشرق.. وقد بلغت تكاليف سينما الحمراء ٣٥ ألف جنيه فلسطيني.. وهكذا أصبح للعرب دار للسينما يفخرون بها، وستعرض على شاشتها

أجمل وأروع الروايات السينمائية، بعد وضع ترجمة صحيحة لها للغة العربية».

ويحتوي أرشيف شركة بهنا، مراسلات كثيرة باسم الشركة، وسينما الحمراء ممثلة بمديرها ممدوح بك النابلسي، وأخرى من النابلسي إلى شركة بهنا، أبرزها تلك الرسالة الصادرة بتاريخ ٨ أيار ١٩٣٧ من شركة السينما الفلسطينية الوطنية المحدودة (سينما الحمراء / يافا)، وموقع من مدير الشركة ممدوح النابلسي، ويفيد بأن إدارة السينما لا يمكنها الاتفاق على أي فيلم إلا بالنسبة المئوية، إلا أن شركة بهنا ردت بعد ثلاثة أيام بأن أصحاب الأفلام لا يرغبون بتأجير أفلامهم على النسبة المئوية، وإنما مشددين على بيع حق استغلالها لفلسطين وشرق الأردن مع نسخة من كل فيلم، وهو الأرشيف الذي يكشف عن أسماء جديدة في عالم تجارة وبيع الأسماء، منها الفلسطينية والعربية، ومنها الأوروبية، ومنها اليهودية، كما يكشف الدور الكبير للنجوم من أبطال الأفلام كآسيا وفاطمة رشدي وبديعة مصابني في إبرام الاتفاقات، وحتى تلك الرسائل ذات النبرة التهديدية المتعلقة بتأخير شحن الأفلام، أو إعادتها، أو عدم إرسال بقية المستحقات المالية، وخلافه، وهو أرشيف من شأنه أن يقدم للقارئ والباحثين إضاءات جديدة وغير معروفة فيما يتعلق بواقع السينما في فلسطين ما قبل النكبة، وهو ما لا يتسع استعراضه أو جزء منه هنا.

خلافات وانشقاقات

وفي تشرين الثاني من العام ١٩٣٩، عقدت هيئة إدارة شركة السينما الفلسطينية الوطنية المحدودة، اجتماعها السنوي، برئاسة محمد عبدو بك حلمي، وعضوية: مغنم مغنم، وحسن عرفة، ومحمد رمضان حجو، وعيسى السفري، وعبد الرحمن الحاج إبراهيم، وقد تولى السكرتيرية مصباح العابودي، حيث تقرر توزيع عدد من الأسهم على جميع المساهمين بنسبة ٦٪ من الأرباح التي جنتها شركة السينما، على أن يصير توزيع هذه الأرباح عندما يتم قبض قيمة الكمبيالة من المستأجر ممدوح بك النابلسي نهاية الشهر، مع تمديد مدة مزاودة إيجار السينما إلى اليوم العاشر من شهر كانون الأول المقبل.

وفي التاريخ المذكور أعلاه ١٩٣٩/١٢/١٠، صدر بيان لمساهمي الشركة قال «كنتم انتخبتم في الحملة العمومية بتاريخ ٢٩ تموز ١٩٣٨ ثمانية أعضاء لمجلس إدارة الشركة، وهذا المجلس قرر بالأغلبية تشغيل السينما التابعة للشركة على حسابكم ابتداء من أول شباط ١٩٤٠، غير أن ثلاثة من أعضاء المجلس لم يوافقوا على التشغيل، فاستقال اثنان منهم، وبهذه الاستقالة أصبح عدد أعضاء المجلس ستة هم: محمد عبده حلمي (رئيساً)، عيسى السفري (مديراً للشركة)، محمد يونس الحسيني، محمد رمضان حمو، عبد الرحمن الحاج إبراهيم، ومحمد موسى الحسيني، وقرر المجلس هذا التشغيل لكنه لم ينفذ، ما قسم الأعضاء إلى فريقين، كل فريق يشتمل ثلاثة أعضاء: ولما كانت أصوات الفريقين متساوية كانت الجهة التي فيها الرئيس هي الراجحة، وبهذا الوضع الشاذ انحصرت السلطة كلها بالفريق الذي فيه الرئيس، يتصرف بمقدرات الشركة كيف شاء، دون احترام الفريق الآخر.

وأضاف البيان الموقع من عضو مجلس الإدارة محمد موسى الحسني، ومحمد رمضان حمو، وعضو مجلس إدارة «مدير الشركة عيسى السفري»: وأصحبت اجتماعات المجلس تعقد حينما يرغب الفريق الذي في جانبه الرئيس، فلا تعقد جلسة إلا بحضور ثلاثتهم لتظل كفتهم هي الراجحة، وإذا طلب الفريق الآخر عقد جلسة يتغيب بعض أعضاء الفريق الأول حتى لا يتم النصاب القانوني الذي يجب أن يتكون من خمسة أعضاء حسب نظام الشركة. وقد حدث بسبب هذا الخلاف أن مضت مدة سبعة أشهر لم تعقد خلالها سوى جلسة واحدة (...) وقدم مدير الشركة إلى مجلس الإدارة تقريراً هاماً يشتمل على عدة نقاط حول تجاوزات بخصوص: التذاكر وسوء التصرف بها، والاتفاقية وكفالة مدير السينما المعين، ولجنة الأفلام وإهمال صلاحياتها، وأموال الشركة وإيداعها البنك المختص باسم موسى يونس الحسيني لا باسم الشركة، وإقالة الموظفين في الشركة الذين عينهم المجلس، وأن رئيس المجلس عطل جلسة قانونية لبحث هذه الأمور في ٢٤ تشرين الأول ١٩٤٠، في حين عقدت جلسة في ٢١ تشرين الثاني ١٩٤٠ عين فيها الرئيس أعضاء جدد لمجلس الإدارة ليشغلوا المناصب الشاغرة دون الالتفات لآراء الفريق الآخر، بل تم تعيين ثلاثة بدلاً من اثنين، وأحدهم مدير السينما

المعين موسى يونس الحسيني، وبهذا الضم تحولت أرجحية الرئيس إلى أكثرية، وبعد ثمانية أيام عقدت جلسة أخرى اتخذت فيها قرارات قبل إطلاع المساهمين عليها بينها فتح دارين للسينما في القدس وحيفا، وتجديد الاتفاقية مع مدير السينما المعيّن، لافتين إلى أن الموظف المسؤول عن باب الدخول للسينما يحول «بالقوة» دون دخول مدير الشركة إليها، وقبلها لم يتم تمكينه من الاطلاع على الحسابات المالية للشركة، مشيرين إلى أنهم يمثلون مساهمي يافا الذين يشكلون ٨٥٪ من حملة أسهم الشركة».

وفي اليوم التالي، أي ١٩٤٠/١٢/١١، رد كل من محمد يونس الحسيني عضو مجلس الإدارة ومحمد عبد حلمي رئيس مجلس الإدارة، ببيان على بيان الفريق الأول، جاء فيه أن «السيد محمد موسى الحسيني أحد موقعي البيان اشترك بإنشاء دار للسينما باسم سينما الفاروق مع السيد ممدوح النابلسي وآخرين إلى جانب شركتكم، ما يضرها»، وأن «السيد عيسى السفري عين لمدة مديراً للشركة مع السيد محمد موسى الحسيني الذي أقيل فيما بعد مقابل حصة من الأرباح، ثم رأى مجلس الإدارة تنحيته عن العمل رغبة في توحيد الإدارة واقتصاداً في المصاريف، وكان ذلك بموافقة زميليه السيدين محمد رمضان حمو ومحمد موسى الحسيني»، وأن «السيد محمد رمضان حمو طلب استئجار السينما باسم ابنه، ورُفض طلبه مع بقية الطلبات صيانة لمصلحة الشركة»، وأن «أرباح الشركة الصافية بحسب الميزانية المدققة من فاحصي الحسابات عن سنة ١٩٣٩، وهي آخر سنة كانت دار السينما مؤجرة فيها لممدوح أفندي النابلسي، بلغت ٤٨ جنيهاً لا غير»، وأن التعيينات تمت بموافقة مصدري البيان السابق أو عدد منهم، وأن مجلس الإدارة يقوم بأعماله طبقاً للقانون، وأن «الرئيس لم يعطل أي جلسة لمجلس الإدارة»، لافتاً إلى أن القرارات الجديدة ساهمت بارتفاع سعر أسهم الشركة في السوق من (٤٠٠ مل) إلى جنيه فلسطيني واحد.

هذا واستمرت الردود المتبادلة، بما تشتمله من اتهامات، وتكذيب كل طرف إلى الآخر، إلى يوم ١٩٤٠/١٢/١٩، حيث عقد اجتماع عام لمساهمي الشركة، ولما اكتمل النصاب القانوني افتتح الاجتماع، وشُرع بتلاوة الميزانية العمومية عن سنتي ١٩٣٩ و١٩٤٠، وبعد ذلك أخذ

المساهمون في مناقشة بنودها، إلا أن الاجتماع انفض بناء على موقف رئيس مجلس الإدارة محمد عبده بك حلمي، الذي قال إن القانون ينص على أن النصاب القانوني لاجتماع فوق العادة هو ثلاثة أرباع حملة الأسهم، وليس الغالبية بما يزيد عن النصف، وهنا اشتد الخلاف وانفض الاجتماع.

وفي ١٢ تموز من العام ١٩٤١، عقد مجلس إدارة شركة السينما الوطنية بيافا جلسة دعا فيها المساهمين لانتخاب مجلس إدارة بدلاً عن المجلس الحالي الذي تنتهي ولايته في ٢٨ من ذات الشهر، وتألفت لجنة من: راشد كنعان، شوكت حماد، محمد موسى الحسيني لتدقيق أوراق الوكالات والشؤون الأخرى المتعلقة بالانتخاب، وعهد إلى السيدين عيسى السفري ومصباح العابودي تحضير وإرسال أوراق الدعوة إلى المدعوين، وعقد اجتماع آخر بعد أيام تغيب عنه رئيس مجلس الإدارة محمد عبده حلمي، فكان برئاسة محمد رمضان حمو بناء على اقتراح من عيسى السفري، وفاز بالانتخابات: محمد راشد كنعان، محمد رمضان حمو، عيسى السفري، درويش العيسوي، شوكت حماد، رفيق التميمي، إسكندر بيروتي، فايز كنعان، وعبد الحميد شومان.

وكان أول فيلم عرض في ظل الإدارة الجديدة «أصحاب العقول» لفوزي منيب، وبشارة واكيم، وبهيجة المهدي، تلاه فيلم البشرة لعزيزة أمير وأنور وجدي.

وبالعودة إلى أرشيف شركة بهنا، يجد رسائل متبادلة ما بين محمد موسى الحسيني كمدير لسينما فاروق وما بين الشركة المصرية الأشهر في عالم التوزيع السينمائي إلى الدول العربية وخارج الوطن العربي وقتها، ومقرها مصر، ومنها تسويق من قبل الشركة المصرية لأفلام شهيرة لغرض عرضها في سينما الفاروق بيافا، بينها رسالة بتاريخ ٢٩ تموز(يوليو) ١٩٤٣، تروج لأفلام: «الطريق المستقيم» (دراما قوية مثيرة من تمثيل الأستاذ يوسف وهبي، وفاطمة رشدي، وأمينة رزق، وبشارة واكيم، وستيفان روستي، وفردوس محمد، وأخرين)، و«تحيا الستات» (كوميدية ظريفة غنائية راقصة من تمثيل المطرب محمد أمين، وأنور وجدي، ومحسن سرحان، ومديحة يسري، وليلى فوزي، وأمينة شريف، وبشارة واكيم، وحسن فايق،

وإسماعيل يس، وماري منيب، وثريا حلمي، وآخرين)، عبر «توجو مزراحي»، ولم يتضح ما إذا كان المنتج أو الوسيط، وربما يكون صاحب شركة توزيع في تل أبيب، كما هو الحال في مراسلات سابقة، والذي حدد بدوره مبلغ أربعة آلاف جنيه مصري لاستغلال كل منها بفلسطين وشرق الأردن، كما اشتملت المراسلة ذاتها عن ترويج لأعمال قيد التصوير لليلى مراد وحسين صدقي، وآخر لمحمود ذو الفقار، والمفاجأة المنتظرة بفيلم لـ«مطربة الشرق وبلبله الآنسة أم كلثوم»، في حين كانت ترسل برقيات عاجلة أحياناً كما تلك المرسلة من «بهنا» إلى «مدير سينما الفاروق» حول قبول الفنانة آسيا بعرض فيلمي «المتهمة» و«لو كنت غني» في فلسطين مقابل ألفي جنيه مصري، ألف منها كعربون لتحضير «المادة».

جدير بالذكر، أن الحديث في هذا الجانب متشعب، ومليء بالتفاصيل، بحيث استمر حضور السينما في فلسطين حتى النكبة، كما كان لدور العرض السينمائي دور سياسي، لم يعفها من الاستهداف المتبادل، حتى ما بعد النكبة، وهي الدور التي كانت محجاً للآلاف في بعض الأيام، ولمئات الآلاف سنوياً، ومسرحاً لكبار الفنانين ليس أبرزهم أم كلثوم وأسمهان وفريد الأطرش وغيرهم الكثير، بل إن تجارة السينما كانت رائجة لا صناعتها التي تقودنا للحديث عن السينما الفلسطينية، التي تبين أن ما كتب عنها قبل النكبة قد يكون بحاجة إلى إعادة صياغة أيضاً، كما أن طبيعية الأفلام ورواجها والحركة النقدية، وربطها بالظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وعليه فإن هذه الدراسة ستكون مقدمة لكتاب في أجزاء حول «السينما في فلسطين ما قبل النكبة»، وهو عنوان الندوة التي قدمها الكاتب في الدورة الأخيرة (الحادية والخمسين) لمعرض القاهرة الدولي للكتاب.

أوراق المؤسسة

مؤسسة ياسر عرفات تفتح باب الترشيح
لـ جائزة ياسر عرفات للإنجاز للعام ٢٠٢٠

تعلن مؤسسة ياسر عرفات عن فتح باب الترشيح لـ«جائزة ياسر عرفات للإنجاز» للعام ٢٠٢٠ والتي تمنحها المؤسسة سنوياً لفرد أو مؤسسة أو فريق عمل تقديراً لما أنجزه في مجالات العمل الوطني أو الثقافي أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو العملي/الأكاديمي. وتقوم لجنة خاصة بدراسة الترشيحات المقدمة للمؤسسة واختيار الفائز بالجائزة والتي تشمل براءة الجائزة ومجسما رمزياً ومبلغ ٢٥,٠٠٠ دولارٍ أميركي.

مسوغات الترشيح:

للإنجاز المتميز عدة أوجه ومكونات تصب في التميّز العام للعمل الذي أنجزه المرشحّ، لذا يتوقع أن يتمتع العمل بالأصالة والإبداع، وأن يكون قد رسخّ نهجاً قيادياً في المجال المحدد، وأن يكون الجهد المبذول في إنجاز العمل كبيراً ومؤشراً على المثابرة والالتزام، وأن يكون قد أثر بشكل إيجابي ومستدام على نطاق واسع تعمّ الفائدة منه على المجتمع، وأن يحظى كذلك بالتقدير الشعبي وخاصة بين الفئات التي تأثرت به مباشرة.

ويقع على عاتق المرشِّح توفير كل ما يدعم المرشَّح من وثائق ومعلومات علماً بأن لجنة الجائزة ستقيّم فقط ما يردها ولا تأخذ على عاتقها استيفاء النواقص، وبناء على تقييم دقيق للترشيحات المقدمة، تدرج اللجنة عدداً من المرشحين الذين وجدت لديهم الأهلية لنيل الجائزة في قائمة مختصرة ويتم اختيار الفائز من بينهم بعد تقييم إضافي.

شروط الترشيح:

١ – يشترط أن يكون المرشَح إما فرداً فلسطينيا حيا يرزق، أو مؤسسة قائمة أو فريق عمل، قدم خدمات جليلة للوطن من خلال عمله في أي من المجالات الخمسة المحددة أعلاه، ويجوز ترشيح غير الفلسطيني إذا قدم خدمات جليلة لفلسطين.

٢ – لا يجوز لأي أن يرشح نفسه بنفسه لنيل الجائزة.

٣ – يجوز أن تكون الجهة المرشحة فلسطينية أو عربية، ويقبل الترشيح المقدم من الجهات التالية فقط:

أ – المؤسسات والهيئات الاعتبارية من خلال مجالسها التي تمثلها.

ب- الأفراد من ذوي الاختصاص والسمعة المهنية المشهودة.

٤ – لا ينظر في الترشيحات التي تكون خارج المجالات الخمسة المحددة للجائزة .

٥ – لا ينظر في أي ترشيحات تقدم دون مرفقات موثقة للإنجاز ويستحسن طباعة المواد المكتوبة.

٦ – آخر موعد لاستلام ملفات الترشيح هو ٣٠ تموز ٢٠٢٠.

إن شعبنا الفلسطيني يزخر بالأفراد والمؤسسات وفرق العمل التي أنجزت الكثير مما يستحق التقدير ولجنة الجائزة تحث جميع المعنيين على التنافس لنيل هذه الجائزة، علماً أنها ستمنح لفائز واحد فقط، وأنه بالإمكان إعادة ترشيح من كان قد أدرج على القائمة المختصرة ولم يفز في سنة ما.

للحصول على استمارة الترشيح، الرجاء زيارة الموقع الالكتروني للمؤسسة

مؤسسة ياسر عرفات

الماصيون- رام الله

mail@yaf.ps

ص.ب. ٥٧٣، هاتف:٠٢-٢٩٥٧٣٧٣، فاكس: ٠٢-٢٩٥٧٣٧٢

الموقع الالكتروني: www.yasserarafat.ps